

أهل الذمّة في مصر في العصر الفاطمي الأول

تأليف
د. سلام شافعي محمود



المكتبة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٥

تاريخ المصريين [٧٥]



رئيس مجلس الإدارة
د. سمير سرحان

رئيس التحرير
د. عبد العظيم رمضان

الاخراج الفنى : مراد نسيم

أهل الذمّة في مصر في العصر الفاطمي الأول

تأليف
د. سلام شافعي محمود



المكتبة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٥

تقديم

احتل تاريخ مصر الاجتماعى فى الفترة الأخيرة مركز الاهتمام الأول بين المؤرخين وطلبة الدراسات العليا فى التاريخ ، ولم يقتصر ذلك على عصر دون عصر ، بل شمل جميع العصور . وقد ظهر فى هذه السلسلة وحدها عدد كبير من الدراسات الاجتماعية على امتداد تاريخ مصر ، مثل : الأقباط فى مصر فى العصر العثمانى ، والمجتمع الريفى فى عصر محمد على ، ومصر الاسلامية وأهل الذمة ، والمرأة فى العصر الفاطمى ، وأهل الذمة فى الاسلام .

وها هو بين يدى القارئ الكريم كتاب جديد عن أهل الذمة فى مصر فى العصر الفاطمى الأول . ألفه أستاذ جامعى متخصص هو الدكتور سلام شافعى محمود ، يتناول تاريخ النصارى واليهود فى مصر فى عصر لعبوا فيه دورا هاما فى المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وهو العصر الفاطمى الأول الذى امتد نحو قرن من الزمان (٣٥٨ - ٤٤٧ هـ / ٩٦٩ - ١٠٥٥ م) .

فبسبب انتساب الفاطميين الى المذهب الشيعى وانتساب أهل مصر الى المذهب السنى ، وبعد الخلفاء الفاطميون الأوائل أنفسهم فى محيط عدائى دفعهم الى الاستعانة بالنصارى واليهود فى الوظائف المالية والادارية ، فكان منهم الوزراء ، والكتّاب ، ورؤساء الدواوين ، بل ارتبطوا مع بعض عائلاتهم برابطة المصاهرة . فعاش أهل الذمة - لذلك - فى مصر فى هذا العصر كطبقة متميزة تتمتع بمكانة اجتماعية عالية ذات ثراء .

وقد تتبع هذا الكتاب الهام دور هذه الطبقة من أهل الذمة

فى الوظائف العامة والحياة العامة ، فتناول أداءهم الوظيفى ، واحتفالاتهم ، وكنائسهم وأديرتهم ومعابدهم ، ودورهم فى النشاط الزراعى والصناعى ، وحياتهم فى القرى والمدن المصرية ، ولغتهم القبطية ولهجاتها ، وأسطورة تنصر المعز لدين الله الفاطمى . كما تناول علاقات الدولة الفاطمية بالدول المسيحية وأثرها على أهل الذمة ، والسفارات التى يتولى رئاستها كبار رجال الدولة من أهل الذمة . وأفرد فصلا لعلاقات الدولة الفاطمية ببلاد النوبة ، والصلة بين الكنيسة القبطية فى مصر والكنيسة النوبية ، واختتم الكتاب بفصل فى العلاقة بين مصر وبلاد الحبشة ، وبين الكنيسة القبطية وكنيسة الحبشة . ومدى تأثيرها بموقف الحلفاء الفاطميين من الأقباط إيجابا وسلبا .

وقد استند الدكتور سلام شافعى محمود الى عدد كبير من أوثق المصادر التى أضاء بها ذلك العصر المتميز فى تاريخ مصر الإسلامية ، وهو العصر الفاطمى الأول .

(مقدمة البحث)

عاش أهل الذمة من اليهود والنصارى منذ الفتح العربى لمصر سنة ٢١ هـ / ٦٤٢ م مع المسلمين فى ظل سياسة التسامح الدينى . وعلى الرغم من انتشار الاسلام بين أهل البلاد ، وتعريب الدواوين ، وتزوح بعض القبائل العربية الى مصر ، وسكنهم بالمدن والريف واختلاطهم بالمصريين على مدى الثلاثة قرون الأولى من الهجرة ، إلا أن نصارى مصر - فى العصر الفاطمى الأول ٣٥٨ - ٤٤٧ هـ / ٩٦٩ - ١٠٥٥ م كانوا ما يزالون يشكلون أقلية نشيطة كبيرة العدد تقدر بحوالى ثلث سكان مصر . كما أن يهودى مصر - فى هذه الفترة - كانوا يقدرون ببضعة آلاف .

ولذلك كان اختيارنا لموضوع « أهل الذمة فى مصر فى العصر الفاطمى الأول » انما يرجع الى أهمية الدور الذى لعبوه فى تاريخ مصر فى هذه الفترة فى كافة الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية . فقد أسند الخلفاء الفاطميون الى أهل الذمة كثيرا من الوظائف العامة فى الدولة ، فكان منهم الوزراء ، والوسطاء ، ورؤساء الدواوين ، والكتّاب ، كما عملوا فى الوظائف المالية والإدارية فى الدواوين ، اذ استعان بهم الخلفاء الفاطميون الأوائل لمهارتهم وخبرتهم فى تلك الوظائف ، ولأنهم وجدوا أنفسهم فى

محيط عدائي من أهل السنة - غالبية سكان مصر - بل لم يقتصر الأمر على الاستعانة بهم في دواوين الدولة وإنما ارتبطوا ببعض عائلاتهم عن طريق المصاهرة .

ولقد شارك الوزراء والوسطاء من أهل الذمة في تنفيذ السياسة الداخلية والخارجية لمصر في العصر الفاطمي الأول ، بل وأسهموا في رسم هذه السياسات كما أدى استفحال نفوذ بعض الوزراء والوسطاء منهم وانحيازهم الى بنى ملتهم الى سيطرة موظفي الدولة من أهل الذمة على الدواوين الحكومية ، وبالتالي الى تدمير الرعايا المسلمين ، وتدخل الخلفاء لاعادة الأمور الى نصابها ، مجارة للرأى العام الاسلامى .

وتحت مظلة التسامح الدينى قام أهل الذمة بدور هام فى الحياة الاقتصادية فى مصر ، وأسهموا بنصيب كبير فى النشاط الزراعى ، اذ كانوا يمتلكون الأراضى الزراعية والضيايع الواسعة ، كما شاركوا فى النهضة الصناعية الكبرى التى شهدتها مصر فى ذلك العصر ، اذ كان أهل الذمة وبخاصة الأقباط هم عماد الصناعة ، وعلى أيديهم ازدهر النشاط الصناعى ، كما ظهر أثر الفن القبطى فى كثير من الصناعات والفنون التى برعوا فيها بدرجة تدعو الى الاعجاب والتقدير . أما فى مجال التجارة الداخلية فقد قاموا بدور له أهميته ، كما أسهموا بدور نشيط فى مجال التجارة الخارجية التى انتعشت كثيرا فى العصر الفاطمي الأول .

وكان أهل الذمة فى مصر فى ذلك العصر بمثابة طبقة اجتماعية متميزة عاشت فى قرى ومدن مصر ، بل قد وجدت بعض القرى والمدن المصرية التى غلب على سكانها أهل الذمة وبخاصة الأقباط ، الذين انتشرت بينهم اللغة العربية وبخاصة بعد تعريب الدواوين ، وحرصهم على تعلمها . كما كان كبار رجال الدولة من أهل الذمة فى العصر الفاطمي الأول يتمتعون بمكانة اجتماعية ممتازة ، اذ

امتلكوا الثروات الطائلة والقصور الفخمة ، واشتهروا بالثراء ونشأت بين كثير منهم وقصور الخلافة علاقات طيبة وصلات وثيقة ، فمنحهم الخلفاء الفاطميون الألقاب وخلعوا عليهم الهدايا ، إلا أن ترفعهم واستعبادهم على المسلمين قد أدى إلى استنكار المسلمين لهذه الأوضاع .

ولما كانت الدولة الفاطمية هي أول دولة مستقلة استقلالاً تاماً في مصر فإن الأمر تطلب البحث وتقصى الحقائق عن مدى التزام الفاطميين بالعهود التي سبق أن أعطاهم الخلفاء المسلمون لأهل الذمة ، وبخاصة ما يسمى بالشروط العمرية ذلك أن خلفاء العصر الفاطمي الأول هيأوا لأهل الذمة فترة من التسامح الديني فاقت كل ما سبقها من عهود ، فتساهلوا في تطبيق هذه الشروط . وإن كان الحاكم بأمر الله - في فترة من عهده - تشدد في تطبيقها ، وفرض عدة قيود اجتماعية جديدة لدرجة أنها أدت إلى هجرة الكثيرين منهم إلى بلاد الروم والنوبة والحيشة وإن كان قد عاد في أواخر أيامه إلى التخفيف من غلواء سياسته وعاد إلى تسامحه معهم .

وكانت الاحتفالات بأعياد أهل الذمة من أهم مظاهر الحياة الاجتماعية في العصر الفاطمي الأول ، فقد شارك الخلفاء الفاطميون وعامة المسلمين في الاحتفال في كثير من هذه الأعياد ، وإن كان بعض خلفاء العصر الفاطمي الأول فرضوا قيوداً على بعض هذه الأعياد لأسباب اجتماعية .

وإذا كان أهل الذمة قد استفادوا من قيام الدولة الفاطمية في مصر ، فإن ذلك يرجع إلى سياسة التسامح الديني التي سار عليها الخلفاء الفاطميون - باستثناء فترة من عهد الحاكم بأمر الله - ، إذ كانت الصلات الطيبة هي سمة العلاقات بين الخلفاء الفاطميين ورؤساء الطوائف الدينية لأهل الذمة ، كما سمح الخلفاء الفاطميون

لنصارى ببناء وتعمير واصلاح الكنائس والأديرة ، بل أطلقوا الأموال للصرف على عمارتها واعادة بنائها .

واذا كانت كثير من دور العبادة لليهود والنصارى قد تعرضت للهدم والسلب والتخريب فى بعض الأحيان ، فلم تكن هذه سمة السياسة الدينية للخلفاء الفاطميين الأوائل ، بل كانت بمثابة قرارات استثنائية سرعان ما تعود بعدها السلطات الحاكمة الى التصريح باصلاح الكنائس وتعميرها بل والتصريح ببنائها من جديد ، وان كان ذلك يتنافى مع ما نصت عليه الشروط العمرية فى هذا الصدد .

كما تأثرت علاقات الدولة الفاطمية بالدول المسيحية بسياسة الفاطميين ازاء أهل الذمة ، كما أن أهل الذمة فى مصر بدورهم قد تأثروا بتدهور أو ازدهار هذه العلاقات مع هذه الدول ذلك أن الحروب التى نشبت بين الفاطميين والبيزنطيين أثرت على أحوال نصارى مصر وبخاصة طائفة الروم المكانية ، لذا تعرضت بعض المعاهدات والاتفاقات التى تمت بين الدولتين لأوضاع نصارى مصر وبخاصة فيما يتعلق بدور العبادة من كنائس وأديرة ، كما تولى بعض كبار الدولة من أهل الذمة رئاسة بعض السفارات الى بيزنطة .

وكان أيضا للعلاقات بين الدولة الفاطمية وبلاد النوبة والحبشة أثرها على أهل الذمة فى مصر ، وبخاصة الأقباط ، نظرا للصلات الوثيقة والروابط القوية بين الكنيسة المصرية وبين كل من كنيسة النوبة والحبشة . فكثيرا ما كان يستخدم ملوك هاتين الدولتين نفوذهم فى قصر الخلافة لصالح بطاركة الكنيسة القبطية وأقباط مصر ، بل اننا نجد الحاكم بأمر الله يخفف من غلواء سياسته ازاء أهل الذمة وبخاصة الأقباط خوفا من أن يقوم ملكا النوبة والحبشة بالاسباء الى المسلمين فى بلديهما ، كما نجد الخلفاء الفاطميين

يطلبون من بطاركة الكنيسة المصرية استخدام نفوذهم وارسال خطاب توصية كل عام للملكى النوبة والحبشة لصالح المسلمين هناك .

ومجمل القول أن هذا العصر شهد ازدهارا لدور أهل الذمة ونشاطهم فى المجتمع المصرى ، بحيث يمكن أن يعتبر العصر الفاطمى الأول بحق العصر الذهبى لأهل الذمة فى مصر .

وحتى تتضح أبعاد هذه الدراسة ، فقد قسمت هذا الكتاب الى أربعة أبواب على النحو التالى :

الباب الأول : وفيه تحدثت عن « أهل الذمة والوظائف العامة » . والأسباب التى دفعت خلفاء العصر الفاطمى الأول الى تعيينهم فى مناصب الدولة العليا واستخدامهم فى الدواوين . وموقف الخلفاء منهم عندما كان يستفحل أمرهم ويتعاطم نفوذهم ، ثم انتقلت الى الحديث عن الوزراء والوسطاء من اليهود والنصارى ودورهم فى السياسة الداخلية والخارجية لمصر فى ذلك العصر ، وعلاقتهم بقصور الخلافة ، وكيف أدى انحيازهم الى بنى ملتهم الى التنكيل بهم .

كما يتضمن هذا الباب اشراف أهل الذمة على الدواوين وسيطرتهم على الاداة الحكومية مع الاشارة الى الأطباء من أهل الذمة وعلاقتهم بالخلفاء وكبار رجال الدولة وأثر تلك العلاقة على ذويهم ، ونختتم هذا الباب بتناول موقف المسلمين من سياسة الموظفين الذميين ، ومظاهر الاحتجاج على تلك السياسة ونتائجها .

أما الباب الثانى : فيعنى بدراسة « أهل الذمة والحياة الاقتصادية » ومنه نبدأ الحديث عن النشاط الزراعى لأهل الذمة ، وعهد جوهر الى المصريين وموقف الدولة من امتلاك أهل الذمة للأراضى الزراعية ، مع الاشارة الى الأراضى الموقوفة على الكنائس والأديرة وتعرضها للمصادرات . كما نتناول بالحديث أهم

الحاصلات الزراعية ، وتأثر الانتاج الزراعى لبعض المحاصيل بالظروف الاجتماعية والاقتصادية لمصر فى ذلك العصر ، واذا كانت مصر قد شهدت نهضة صناعية كبرى فى العصر الفاطمى الاول فان الأقباط كانوا هم عماد الصناعة ولذلك يتناول هذا الباب دراسة عوامل ازدهار الصناعة وتقدمها ، وأهم الصناعات التى برعوا فيها ، وتأثر بعض هذه الصناعات والفنون بالسياسة الاقتصادية والاجتماعية والدينية لمصر فى عصر الخلفاء الفاطميين الأوائل . كما يتضمن هذا الباب دور أهل الذمة فى مجال التجارة الداخلية ، مع الإشارة الى الدور النشط لأهل الذمة فى مجال التجارة الخارجية ، وبخاصة دور يهود مصر الذين اشتغلوا فى تجارة الشرق .

أما الباب الثالث : فيتناول « الحياة الاجتماعية والدينية لأهل الذمة » وحياتهم فى القرى والمدن المصرية وتطور اللغة القبطية ولهجاتها ، ثم أسباب اندثارها أمام اللغة العربية . كما يتضمن هذا الباب الحديث عن المكانة الاجتماعية لكبار رجال الدولة من أهل الذمة وامتيازاتهم وموقف الرعايا المسلمين من هذه الطبقة - ثم نتناول بشئ من التفصيل القيود الاجتماعية التى فرضت على أهل الذمة ، وأسباب تشدد الحاكم بأمر الله فى تطبيق ما يسمى بالشروط العمرية وزيادته عليهما . كما نتعرض الى الحديث عن الحياة الدينية لأهل الذمة فنتحدث عن أعياد كل من النصارى واليهود ، مع التركيز بصفة خاصة على الأعياد التى شارك فيها الخلفاء الفاطميون والمسلمون ، والقيود التى فرضت على بعض هذه الأعياد وأسباب ذلك . كما يتضمن هذا الباب موقف الفاطميين من رجال الكنيسة والطوائف الدينية وسياستهم ازاء الكنائس والأديرة والكنائس اليهودية . مع الإشارة الى أسطورة تنصر الخليفة المعز ، وتعاطف الحاكم بأمر الله مع الرهبان . واستمرار سياسة إعادة بناء الكنائس فى عهد الخليفة الظاهر واهتزاز تلك السياسة

فى فترة الاضطرابات التى عمت البلاد فى نهاية العصر الفاطمى
الأول .

وفى الباب الرابع : تحدثت عن « علاقات الدولة الفاطمية
بالدول المسيحية وأثر ذلك على أهل الذمة » وعلى رأس هذه العلاقات
تأتى العلاقات الفاطمية البيزنطية . وقد أوضحت أثرها على أهل
الذمة فى مصر ، وأشارت الى السفارات التى تولى رئاستها كبار رجال
الدولة من أهل الذمة ، ونتائج هذه السفارات وكذلك الى المعاهدات
التي عقدت بين الدولتين وما تضمنته من نصوص تتعلق بحماية أهل
الذمة وكنائسهم وأديرتهم ومقدساتهم فى مصر والشام .

كما يتضمن هذا الباب العلاقات بين الدولة الفاطمية وبلاد
النوبة ، فتحدثت عن سفارة عبد الله بن سليم الأسوانى الى النوبة ،
واقرار معاهدة البقط والصلات الطيبة بين مصر والنوبة فى عهد
العزیز بالله ، وعن موقف ملك النوبة من ثورة أبى ركو فى خلافة
الحاكم بأمر الله ، ومن سياسته المتشددة ازاء الأقباط فى مصر .
ثم ما كان من عودة العلاقات الطيبة بين البلدين فى عهد الظاهر
والعدول عنها فى عهد المستنصر بالله أثناء وزارة اليازورى . كما
أوضحت الصلة بين الكنيسة القبطية فى مصر والكنيسة النوبية .
وأخيرا ختمت هذا الباب بالحديث عن العلاقة بين مصر وبلاد الحبشة ،
وبين الكنيسة القبطية وكنيسة الحبشة فى العصر الفاطمى الأول .

د . سلام شافعى محمود

عرض لأهم المصادر

اعتمدت في هذا الكتاب على عدد من مصادر التاريخ الاسلامى المخطوطة والمطبوعة . كما اعتمدت أيضا على عدد كبير من المراجع الحديثة . وتمتاز المصادر التى اعتمدت عليها بأن بعضها قد ألفه رجال عاصروا الفاطميين ، ومن ثم فقد أمدتنا بكثير من الحقائق عن العصر الذى عاشوا فيه . وسأتناول فى هذا العرض الموجز أهم المصادر والمراجع التى تتصل اتصالا مباشرا بموضوع الكتاب والتى برزت أهميتها من خلال هذه الدراسة ، ويأتى فى مقدمتها المصادر الخطية وفيما يلى عرض لكل منها :

١ - كتاب « سير البيعة المقدسة » وهو ذيل لكتاب « سير الآباء البطارقة » لساويرس بن المقفع أسقف الاشمونيين الذى عاش فى أيام المعز لدين الله ، وعمل موظفا بالدواوين الفاطمية . والذى تناول فى مؤلفه تاريخ بطارقة الاسكندرية ووقف فى كتابته حتى أوائل الخلافة الفاطمية فى مصر . ولكن هذا الكتاب استكملت كتابته باسم « سير البيعة المقدسة » أو باسم « ذيل سير الآباء البطارقة » واشترك فى كتابته مؤلفون قبط من الأحرار المتعاقبين . ومنهم قس معاصر يدعى الأنبا ميخائيل كان شماسا ثم قسيسا ثم اسقفا على تنيس ، فكتب سيرة الآباء البطارقة فى خلافة كل من

العزیز بالله ، والحاكم بأمر الله ، والظاهر لاعزاز دين الله . وبعد ذلك تولى موهوب بن منصور بن مفرج الاسكندراني كتابة سير البطارقة في عهد المستنصر بالله الفاطمي ، ويعتبر هذا المخطوط واحدا من أهم المصادر التي اعتمدت عليها ، اذ يلقي الضوء ساطعا على كثير من الأمور التي تتعلق بأهل الذمة كطبقة اجتماعية عاشت في المجتمع المصري في العصر الفاطمي الأول ، ودورهم في الحياة الاقتصادية والاجتماعية وسياسة الخلفاء الفاطميين الدينية ازاء الكنيسة ورجالها ، والمراسيم التي أصدرها الحاكم بأمر الله والتي ضيقت الخناق عليهم . كما تناول المصدر علاقات الفاطميين ببلاد النوبة والحبشة وأثر ذلك على المسيحيين .

٢ - كتاب « عيون المعارف وفنون أخبار الخلايف »

للقضاعي . وهو القاضي أبو عبد الله محمد بن سلامة الشافعي المذهب ، الذي ولد في مصر في أواخر القرن الرابع الهجري ، والذي توفي بها أيضا سنة ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م . والكتاب موجز في ذكر الأنبياء وتاريخ الخلفاء الى سنة ٤٢٢ هـ / ١٠٣٢ م ، ولعله مختصر لمؤلف أكبر ، لم يصلنا بعد . ولقد كان القضاعي من فحول الفقه والحديث والتاريخ وتولى القضاء وغيره من مهام الدولة في أيام المستنصر بالله الفاطمي . وقد أرسله هذا الخليفة في سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م سفيرا ليحاول عقد صلح بين تيودورا امبراطورة الروم وبين مصر . ومن هنا تأتي أهمية المصدر ، اذ أن مؤلفه كان معاصرا للفاطميين ، ومن كبار رجال دولتهم ، وبالتالي فان المصدر يزخر بكثير من حقائق عصره وبخاصة الأحداث التاريخية في خلافة العزيز بالله والحاكم بأمر الله . كما يحتوي مضمون سجلات الحاكم بأمر الله التي أصدرها لأهل الذمة . مما يوضح لنا جانبا كبيرا من دور أهل الذمة في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وموقف الخلفاء من موظفيهم الذميين .

٣ - كتاب « مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان » لمؤلفه سبط ابن الجوزى المتوفى سنة ٦٥٤ هـ / ١٢٥٧ م . ويهمننا فى هذا المخطوط الجزئين الحادى عشر والثانى عشر . اذ تناول المؤلف فيهما كثيرا من التفاصيل عن كبار موظفى الدولة من أهل الذمة ، ودورهم فى السياسة الداخلية والخارجية ، وموقف الخلفاء الفاطميين منهم . كما أمدنا بكثير من جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية لأهل الذمة . علاوة على تناوله لموضوع العلاقات الفاطمية البيزنطية بشئ من التفصيل .

٤ - كتاب « زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة » لمؤلفه بيبرس الدوادار المتوفى سنة ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥ م ، ويتناول المؤلف فى الجزء السادس من هذا المصدر ازدياد نفوذ أهل الذمة فى مصر فى العصر الفاطمى الأول ، ومراسيم الحاكم بأمر الله لأهل الذمة وأثرها على النشاط الزراعى والصناعى والتجارى ، كما أمدنا بالكثير من المعلومات عن سياسة الفاطميين الدينية ازاء أهل الذمة وكذلك عن أثر العلاقات بين الدولة الفاطمية وبيزنطة على نصارى مصر .

٥ - كتاب « نهاية الأرب فى فنون الأدب » للنويرى المتوفى سنة ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م ، ويهمننا من هذا المصدر ، الذى يعتبر من أعظم المصادر الاسلامية التى تناولت العصر الفاطمى - الجزء السادس والعشرين . اذ ألقى الكاتب فى هذا الجزء الضوء على هؤلاء الموظفين من أهل الذمة الذين تولوا أرقى مناصب الدولة ، وعلى موقف الخلفاء الفاطميين منهم ، ونظرة عامة المسلمين اليهم . بل انه انفرد ببعض الحقائق عن سياسة موظفى الدولة من أهل الذمة وسياسة الفاطميين ازاء الكنائس والأديرة . . كما تناول كثيرا من التفاصيل عن القيود التى فرضت على أهل الذمة ، وكذلك العلاقات بين الفاطميين وبلاد الروم .

٦ - كتاب « عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان » للعيني المتوفى سنة ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م ، وقد تناول الجزء التاسع عشر من هذا المصدر الهام . ذكر كثير من موظفى الدولة من أهل الذمة . والقيود التى فرضت عليهم ، وسياسة الفاطميين ازاء الكنائس والأديرة . كما تناول المؤلف العلاقات الفاطمية البيزنطية وأثرها على أهل الذمة فى دولة الفاطميين .

وأما المصادر المطبوعة فيأتى على رأسها بالنسبة لموضوع البحث :

أولا : كتب الرحلات :

١ - كتاب « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » للمقدسى المتوفى سنة ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م . الذى زار مصر فى أوائل العصر الفاطمى . ويمتاز المصدر بدقة المعلومات التى أمدنا بها ، اذ كان مؤلفه يتحرى الدقة فيما يكتب . لذا فان حديثه عن النشاط الزراعى والصناعى والتجارى جاء فى غاية الأهمية ، وبالذات تلك الشذرات التى تناولت دور أهل الذمة فى تلك الأنشطة المختلفة . كما أن المصدر يحتوى على ذكر المراكز الصناعية فى مصر كتنيس ودمياط وشطا ودبيق وغيرها من المدن الصناعية الكبرى . حيث يغلب عليها السكان من القبط . مع اشارته الى المراكز التجارية وطرق جباية الضرائب والمكوس ، واعجابه باستقرار الأمن والهدوء فى أرجاء الدولة .

٢ - كتاب « صورة الأرض » لابن حوقل ، وهو الرحالة الذى عاش فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى / النصف الثانى من القرن العاشر الميلادى وقد أمدنا ابن حوقل فى مؤلفه هذا بمعلومات وفيرة عن الشعوب التى زارها ومنها مصر . فذكر كثيرا من القرى والمدن المصرية وسكانها ، كمالقى بعض الضوء على النشاط الزراعى والصناعى وبخاصة فى تنيس ودمياط ، والضرائب الباهظة التى فرضها ابن كلسى على صناع هاتين المدينتين . كما ذكر المدن التجارية

بمصر كالاسكندرية والفسطاط . وكذلك الطرق التجارية ، اذ كان المؤلف واحدا من هؤلاء التجار الرحالة المثقفين .

- كتاب « سفر نامه » لناصرى خسرو . ذلك الرحالة الفارس الذى زار كثيرا من بلاد العالم الاسلامى ومنها مصر : وكانت زيارته لها فيما بين سنة ٤٣٩-٤٤١ هـ / ١٠٤٧ - ١٠٥٠ م فى خلافة المستنصر بالله ، وقد اتاحت له مدة اقامته بمصر التعرف على الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فى مصر فى عهد هذا الخليفة . كما أعجب برخائها ، واستقرار الأمن فيها ، واعتقد ان ذلك انما يرجع الى الدولة الفاطمية والى مذهبها الاسماعيلى ، ولذلك أصبح من أشد دعاة الاسماعيلية المتعصبين للخلفاء الفاطميين . واعتنى ناصرى خسرو بدراسة الأعياد والحفلات والصناعات والفنون والأسواق ، والمراكز الصناعية والمدن التجارية ، وعوامل ازدهارها فى مصر فى هذا العصر ، كما ألقى بعض الضوء على نشاط أهل الذمة فى ميادين الصناعة والتجارة ، وازدياد نفوذهم فى عهد المستنصر بالله ، بالإضافة الى ثراء كثير منهم كطبقة اجتماعية لها أهميتها فى المجتمع المصرى ، كما أشار الى علاقة الفاطميين بالروم ، وتسامح الفاطميين مع أهل الذمة . .

- كتاب « رحلة بنيامين » للرحالة بنيامين بن يونه التطيلي الببارى الأندلسى الذى طاف بكثير من بلاد العالم الاسلامى ومنها مصر ، واستغرقت رحلته المدة من سنة ٥٦١ الى ٥٦٩ هـ / ١١٦٥ - ١١٧٣ م . وعلى الرغم من أن زيارته لمصر كانت فى بداية عهد صلاح الدين الأيوبي ، الا أنها أمدتنا بمعلومات هامة عن التعداد التقريبى ليهود مصر فى ذلك الوقت . وأوقفتنا على بعض أحوالهم الاجتماعية والدينية . كما ألقى الضوء على النشاط التجارى فى المدن التجارية الواقعة على البحرين المتوسط والأحمر ، حيث كانت توجد فى كثير

منها جاليات يهودية . اشتغل أفرادها فى تجارة الشرق ، وأسهموا
فى النشاط التجارى بين أوربا والشرق .

- كتاب « رحلة ابن جبير » الذى رحل من الأندلس الى مصر
ثلاث مرات . وتوفى فى الاسكندرية سنة ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م أثناء
رحلته الأخيرة . وقدم لنا ابن جبير قبسا من المعلومات عن المدن
التجارية فى مصر ، وطرق التجارة بها ، وكذلك عن بعض المدن
الصناعية التى يكثر فيها السكان من أهل الذمة . كما ألقى الضوء
على كثير من نواحي الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى مصر فى ذلك
العصر .

ثانيا : المصادر التاريخية :

ويأتى فى مقدمتها المصادر النصرانية ومنها :

١ - كتاب « تاريخ » أو « صلة تاريخ أوتيجا » مؤلفه النصرانى
يحيى بن سعيد الأنطاكي المتوفى سنة ٤٥٨ هـ / ١٠٦٦ م . ويعتبر
هذا المصدر من أهم المصادر التى اعتمدت عليها فى هذا البحث .
اذ أن مؤلفه المعاصر للخلفاء الفاطميين الأوائل ، تناول تاريخ
الأقباط وكنيستهم باستفاضة ، ووقف عند سنة ٤٢٥ هـ / ١٠٣٣ م .
وأمدنا بمادة تاريخية غزيرة خاصة فيما يتعلق بأحوال النصارى
فى دولة الفاطميين أيام الخليفة المعز لدين الله وابنه العزيز بالله ،
والقى الضوء على كبار موظفى الدولة من اليهود والنصارى ،
وسياسة التسامح التى سار عليها كل من الخليفتين تجاه أهل الذمة
بوجه عام ، هذا الى جانب المراسيم والسجلات والمنشورات التى
منحها الحاكم بأمر الله عند عودته الى سياسة التسامح الدينى ازاء
أهل الذمة ، ومنها نص سجله لرهبان دير القصير ، ومنشوره
لنقفور بطريرك بيت المقدس ، ومرسوم العفو الشامل الذى منحه
لنصارى مصر ، وكلها صدرت قبيل اختفاء الحاكم بأمر الله فى شهر
شوال سنة ٤١١ هـ . كما ألقى المصدر الضوء ساطعا على كثير

من جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية لأهل الذمة .
وعلاقة الفاطميين بالثروم ، وأثر ذلك على المسيحيين .

٢ - كتاب « كنائس وأديرة مصر » المعروف « بتاريخ الشيخ
أبو صالح الأرمني » المتوفى سنة ٦٠٥ - ٦٠٦ هـ / ١٢٠٨ م .
وعندما زار أبو صالح الأرمني مصر بعد سقوط الدولة الفاطمية
وشاهد أديرتها وكنائسها ، كتب سجلا لهذه الكنائس والأديرة .
وألقى الضوء على سياسة الخلفاء الفاطميين الدينية إزاء أهل الذمة ،
وموقفهم من بناء وتعمير الكنائس والأديرة ، كما أمدنا ببعض
المعلومات عن النشاط الزراعي والصناعي والتجاري لأهل الذمة
وبخاصة رهبان الأديرة . علاوة على أنه تناول علاقة مصر الفاطمية
ببلاد النوبة المسيحية .

٣ - كتاب « تاريخ ابن الراهب » لأبي شاکر بطرس بن أبي
الكرم بن المهدي المعروف بابن الراهب . الذي رسم شماسا في دير
المعلقة بفسطاط مصر سنة ٦٦٩ هـ . وقد تناول المؤلف بأسهاب
سياسة المعز لدين الله إزاء النصارى ، وموقفه من رجال الكنيسة ،
ورؤساء اليهود ، وأمدنا بمعلومات وفيرة عن سياسة التسامح
الديني في عهد العزيز بالله ، كما تناول بالحديث بعض موظفي
الدولة من أهل الذمة ، وموقف الخليفة الحاكم بأمر الله من نصارى
مصر بوجه عام ، والقيود التي فرضها عليهم .

٤ - كتاب « تاريخ مختصر الدول » للأب غريغوريوس أبي
الفرج المعروف بابن العبري (ت ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م) الذي يتعرض
فيه لأحوال الدول ، بما فيها الدولة الفاطمية ، وقد استمد الباحث
منه كثيرا من الحقائق حول علاقة الخلفاء الفاطميين الأوائل بكبار
موظفي دولتهم من أهل الذمة ، ووقف على أبعاد نفوذهم ومكانتهم
في قصر الخلافة . كما تناول سياسة التسامح الديني إزاء أهل الذمة
في عهد العزيز بالله الفاطمي .

أما المصادر الإسلامية المطبوعة التي اعتمدت عليها في هذا
البحث فيأتي على رأسها :

١ - كتاب « ذيل تاريخ دمشق » لأبى يعلى حمزة بن القلانسي المتوفى في سنة ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م . وفيه قدم المؤلف عرضا شائقا وهاما لسياسة الخلفاء الفاطميين في بلاد الشام وعلاقتهم بالروم وأثر هذه السياسة على أهل الذمة في مصر ، كما أنه تناول دور كبار موظفي الدولة من أهل الذمة في تنفيذ سياسة الدولة داخليا وخارجيا وموقف الخلفاء من هؤلاء الموظفين ، علاوة على تناوله لسياسة الخلفاء الفاطميين الدينية ازاء أهل الذمة .

٢ - كتاب « أخبار مصر » لابن ميسر المتوفى سنة ٦٧٧ هـ / ١٢٧٨ م . ويعتبر واحدا من أغنى المصادر الاسلامية التي تناولت تاريخ الفاطميين في مصر ، ويحتوى على كثير من أخبار الوزراء والوسطاء وكبار موظفي دولتهم من أهل الذمة . ونظرة المسلمين الى هؤلاء الموظفين الذين سيطروا على دواوين الحكومة . كما تناول المصدر علاقات مصر ببيزنطة ، وأثر تلك العلاقات على أهل الذمة في الدولة الفاطمية .

٣ - وعندما نأتى الى مؤلفات المقرئى (٨٤٥ هـ / ١٤٤٢ م) ، فان الباحث يقف على مادة غزيرة عن مصر في عصر الفاطميين ، ربما لا يرد ذكرها في كثير من المصادر . ففي مؤلفه « اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء » أخبار نادرة عن أهل الذمة في مصر . ودورهم في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، والسياسة الدينية للفاطميين ازاءهم . كما يتعرض الكتاب لكثير من التفاصيل عن علاقة كبار رجال الدولة الذميين بقصور الخلافة ، والقيود التي فرضت عليهم من الناحيتين الاجتماعية والدينية ، وأمدنا أيضا بمعلومات وفيرة عن العلاقات بين الفاطميين وبلاد الروم والنوبة والحبشة ، وأثر هذه العلاقات على المسيحيين في مصر .

أما مؤلفه « المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار » فهو سجل شامل لجغرافية مصر وأحوالها الزراعية والصناعية والمالية

والادارية ، ومنها استقى الباحث دور أهل الذمة ونشاطهم فى كل مجالات الحياة فى المجتمع المصرى . كما تناول المقريزى فى هذا الكتاب ذكر طوائف أهل الذمة من اليهود والنصارى ، وأعيادهم ومواسمهم ، ومظاهر الاحتفال بها ، علاوة على التفاصيل الكثيرة عن كنائس وأديرة النصارى ، وكنائس اليهود ، وأحيائهم .

٤ - أما كتاب « صبح الأعشى فى صناعة الانشا » للقلقشندي المتوفى سنة ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م ، وكتاب « المختصر فى أخبار البشر » لأبى الفدا المتوفى سنة ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م ، وكتاب « تنمة المختصر فى أخبار البشر » لابن الوردي المتوفى سنة ٧٥٠ هـ / ١٣٥٨ م . فقد أفادتنا فى دراستنا لطوائف أهل الذمة وأعيادهم ومواسمهم .

وبالإضافة الى هذه المصادر الأصلية ، الخطية منها والمطبوعة ، والمسيحية منها والاسلامية ، فقد اعتمدت على كثير من المراجع الحديثة التى تناولت تاريخ مصر فى العصر الفاطمى ، ويجد القارىء ثبنا بهذه المراجع فى نهاية هذا البحث .

الباب الأول

أهل الذمة والوظائف العامة

سياسة الخلفاء الفاطميين

ازاء الموظفين من أهل الذمة

استخدم الفاطميون منذ مجيئهم الى مصر أهل الذمة فى ادارة شئون البلاد ، واكتظت دواوين الحكومة فى العصر الفاطمى الأول بالموظفين من اليهود والنصارى الذين شغلوا وظائف الدولة العليا ، فكان منهم الوزراء والوسطاء ورؤساء الدواوين ، والكتاب ، وتغلغل الموظفون من أهل الذمة - وبخاصة الأقباط فى كافة الدواوين المالية والادارية . وقد حرص الخلفاء الفاطميون على الاستعانة بهم لمهارتهم فى تلك الوظائف ، اذ كانوا أكثر معرفة وخبرة بجباية الخراج والجزية والضرائب وكل ما يتعلق بالأموال ، كما كان معظم أطباء قصور الخلافة من أهل الذمة لبراعتهم فى علوم الطب وتركيب الدواء لقد كان انتقال الخلافة فى مصر الى الفاطميين فى صالح أهل الذمة ، اذ أنعم الفاطميون على الموظفين من أهل الذمة وأغدقوا عليهم للحاجة الى خبرتهم فى ادارة الدواوين الحكومية كما هيا الخلفاء الفاطميون لأهل الذمة فترة من التسامح الدينى فاقت كل ما سبقها من عهود ، وكان تسامح الفاطميين مع أهل الذمة من أهم العوامل التى ساعدتهم على تبوء أرقى وظائف الدولة والسيطرة على الدواوين فى العصر الفاطمى الأول .

ولا يرجع هذا الموقف من جانب الخلفاء الفاطميين ازاء أهل الذمة الى سياسة التسامح الدينى ، أو الى صلة المصاهرة معهم فحسب - كما فى حالة العزيز بالله الفاطمى - ، أو الى حاجة الدولة الى خبرة أهل الذمة وعلمهم ، وانما يرجع ذلك فى المقام الأول الى أن الفاطميين وجدوا أنفسهم فى محيط عدائى من أهل السنة وهم الأغلبية الكبرى من المصريين ، ولذلك لم يكن هناك مناص من أن يعتمدوا على أهل الذمة الذين كانوا يشكلون أقلية نشيطة تقدر بحوالى ثلث الشعب المصرى • الا أنهم بوصفهم خلفاء للمسلمين كان عليهم أن يجاروا رأى العام الاسلامى وأن يعملوا - كما فعل الحاكم بأمر الله - على كبح جماح أهل الذمة كلما استفحل أمرهم وكلما أصبحوا يشكلون خطرا على مصالح الرعايا المسلمين ، هذا ومن جنة أخرى فقد تفانى البعض من أهل الذمة فى خدمة الخلفاء الفاطميين بصورة تدعو الى الاعجاب والتقدير •

وقد أصدر الخليفة المعز لدين الله الفاطمى بمجرد وصوله الى القاهرة فى رمضان سنة ٣٦٢ هـ / يونية سنة ٩٧٣ م واتخاذها مقرا لخلافته ، عفوا شاملا عن الذين كان قد اعتقلهم جوهر وخلى سبيلهم (١) • ويروى مؤلف « سير الآباء البطارقة » كثيرا من المواقف الحميدة التى تدل على تسامح المعز مع النصارى ، وحسن علاقته باليهود ، و صداقته لكبار رجال الدولة من أهل الذمة الذين كانوا يشكلون غالبية موظفى الدواوين (٢) ، فقد عهد المعز الى رجل الدولة البارز يعقوب بن كلس اليهودى الأصل ، وعسلوج بن الحسن فى رابع عشر المحرم سنة ٣٦٣ هـ بادارة كافة شئون مصر

(١) الأنطاكى : تاريخ ، أو صلة كتاب أوتيا ، المسمى : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، تحقيق شيخو ، بيروت ١٩٠٩ م ، ص ١٣٩ •
(٢) الأنبا ميخائيل : ذيل سير الآباء البطارقة ، الجزء الثالث ، مخطوط بدار الكتب برقم ٦٤٢٤ ح ، ورقة ٤١ •

المالية (٣) ، وهما اللذان وضعوا النظام المالى الجديد الذى يتفق وسياسة الفاطميين المذهبية (٤) ، كما اختص ابن كلس بديوان الخليفة المعز (٥) ، فأصبح وهو الرجل الحديث العهد بالاسلام أكثر المقرئين الى قصر الخلافة .

كما اتخذ المعز منهم أطباء الخاص وقربهم اليه ، فقد كان موسى بن العازار الاسرائيلى الطبيب ، وابنه اسحق بن موسى ، وأخوه اسماعيل بن موسى والابن يعقوب بن اسحق من أطباء الخاص بقصر المعز ، وعندما ألحقهم المعز بخدمته لم يشترط عليهم اعتناق الاسلام ، ويذكر ابن أبى أصيبعة أن المعز قد حزن حزنا شديدا لوفاة اسحق بن موسى الطبيب فى صفر سنة ٣٦٣ هـ لمنزلته وحسن كفايته (٦) .

وهكذا كان الموظفون من أهل الذمة فى خلافة المعز يلقون التقدير والتكريم كما شملهم برعايته وعطفه وتسامحه .

فاذا ما انتقلنا الى خلافة العزيز بالله ٣٦٥ هـ - ٣٨٦ هـ / ٩٧٥ - ٩٩٦ م نرى مبالغة العزيز فى اظهار عطفه على أهل الذمة وتسامحه معهم وبخاصة النصارى وفى استخدامهم فى وظائف الدولة العليا . فكان يعقوب بن كلس ، اليهودى الأصل ، أول وزراء الدولة الفاطمية فى مصر وأعظمهم شأنًا . تفانى فى خدمة الفاطميين ، وقام بعدة اصلاحات ادارية ومالية هامة وأسهم بدور كبير فى نشر

(٣) المقرئى : المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار ، طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ ، ج ٢ ، ص ٢٦٨

(٤) حسن إبراهيم : المعز لدين الله الفاطمى ، القاهرة ١٩٤٨ ، ص ١٧٣ .

(٥) المقرئى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤ .

(٦) ابن أبى أصيبعة : عيون الانباء فى طبقات الاطباء ، تحقيق د. نزار رضا بيروت ١٩٦٥ ، ص ٥٤٥ .

المذهب الشيعي وتنشيط الحركة العلمية. (٧) ، وكان له دوره البارز في رسم السياسة الخارجية للدولة الفاطمية ابان فترة وزارته ، فحظي عند العزيز بالمنزلة السامية والدرجة الرفيعة . وليس أدل على حسن علاقته بالخليفة العزيز بالله من هذا المشهد الرائع ، عندما مرض ابن كلس مرضه الأخير ، وزاره العزيز وقال له : « يا يعقوب . وددت لو تباع فأبتاعك بملكى ، أو تفتدى فأفتديك ، فهل من حاجة توصى بها ؟ » . فبكى الوزير وقبل يد الخليفة ووضعها على عينيه وقال له : « أما فيما يخصنى فلا ، فانك أرعى لحقى من أن أسترعيك ، وأرأف بمخلفى من أن أوصيك ولكنى أقول لك فيما يتعلق بدولتك : سالم الروم ما سالموك ، واقنع من الحمدانية بالدعوة والسكة ، ولا تبق على المفرج بن دغفل ابن الجراح متى أمكنت فيه الفرصة » (٨) .

وكان ابن كلس مخلصا لصاحبه على حد تعبير أبى شجاع « ولم يشغله ما كان فيه من فراق دنياه عن نصيح صاحبه » (٩) .

ومع أن العزيز بالله شمل أهل الذمة بالرعاية الكاملة فانه اضطر فى بعض الأحيان أن يفرض نوعا من الرقابة على كبار موظفى الدولة منهم ، وبخاصة فى الفترة التى تولى فيها الوساطة عيسى ابن نسطورس النصرانى ، الذى انحاز الى بنى ملته من نصارى مصر ، والتى تولى فيها منشأ بن ابراهيم اليهودى فى الشام ، اذ سلك مسلك عيسى بن نسطورس فى ظلم المسلمين والمبالغة فى فرض الضرائب عليهم .

(٧) المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٥ .

(٨) أبو شجاع : ذيل تجارب الأمم ، طبعة مصر ١٩١٦ م ، ص ١٨٦ .

(٩) أبو شجاع : نفس المصدر ونفس الصفحة .

وتحت تأثير الرأى العام الاسلامى ، والسخط الذى عم المسلمين واحتجاجهم على سياسة الموظفين من أهل الذمة ، وعلى ظاهرة تنصير الدواوين فى مصر وتهويدها فى الشام ، تدخل العزيز بالله لاعادة الأمور الى نصابها حفاظا على سلطان الخلافة وهيبتها أمام الجماهير ، فأصدر الأمر بعزلهما ، ومصادرة أموالهما وممتلكاتهما . ولما أعاد العزيز بالله عيسى بن نسطورس الى منصب الوساطة بناء على تدخل أخته ست الملك ، اشترط عليه أن يعين المسلمين فى دواوين الحكومة (١٠) .

وبلغ كثير من الأطباء الذميين منزلة كبيرة عند الخليفة العزيز بالله . وفى رسالته الى منصور بن مقشر طبيب قصر الخلافة ما يلقي الضوء على مكانة هؤلاء الأطباء الذميين عند الخلفاء . وفى سنة ٣٨٥ هـ / ٩٩٥ م مرض ابن مقشر ، وتأخر العزيز بالله عن زيارته لمرض أصابه ، فلما تماثل للشفاء كتب بخطه الى طبيبه هذه الرسالة « بسم الله الرحمن الرحيم . طيبينا : سلمه الله . سلم الله الطبيب ، وأتم النعمة عليه ، وصلت الينا البشارة بما وهبنا الله من عافية الطبيب وبرءه ، والله العظيم لقد عدل عندنا ما رزقناه من الصحة فى جسمنا ، قسم الله عليك النعمة ، وكمل لنا صحتك وعجل بها ، ولا أشمت بنا فيك عدوا ولا حاسدا ، ورد كيد من يريد الكيد فى نحرك ، وابتلاه بما لا طاقة له بعد الكفاية فيك ، واقالتك من العثرة ، ورجوعك الى أفضل ما عودتك من صحة الجسم وطيبة النفس ، وخفض العيش بحوله وقوته ، والسلام عليك وصلى الله على خيرته من خلقه محمد النبى وآله وسلم تسليما (١١) » .

-
- (١٠) ابن الفلانى : ذيل تاريخ دمشق ، طبعة بيروت ١٩٠٨ ، ص ٢٣ .
(-) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان ، مخطوط بدار الكتب الجزء الحادى عشر ، برقم ٥٥١ تاريخ ، ورقة ١٥٤ .
(١١) القفطى : تاريخ الحكماء ، طبعة ليبزج ١٩٠٣ م ، ص ٣٣٤ ، ٣٣٥ .

والحقيقة أن نفوذ النصارى واليهود بلغ الذروة فى مصر فى خلافة العزيز بالله . فقد استولى الوزراء والوسطاء ، ورؤساء الدواوين ، والكتاب الذميون على معظم وظائف الدولة وأعمالها ، واستأثروا بمعظم السلطة والنفوذ نتيجة لهذا التسامح المغدق (١٢) .

وهنا علينا أن نتساءل ، لماذا كان هذا التسامح المغدق ازاء أهل الذمة ؟

لقد اشتهر العزيز بالله بأنه كان جميل السيرة ، حسن السياسة ، شديد الاهتمام بمصالح الرعية (١٣) . وبشهادة مؤرخ نصرانى « كان العزيز يحب العفو ويستعمله » (١٤) . كما عرف بعطفه الشديد على أهل الذمة (١٥) .

وفضلا عن ذلك ، فقد كان للنصارى بوجه خاص لدى الخليفة العزيز بالله نصير كبير وسند قوى ، كان يسارع الى نجدتهم عندما تطالب الرعية بمحاسببتهم على مظالمهم ، أو عندما يتصدى الخليفة للحد من نفوذهم .

هذا النصير الكبير وهذا السند القوى كان يتمثل فى زوجة العزيز بالله النصرانية وابنته ست الملك ، ذلك أن العزيز بالله تزوج من جارية رومية نصرانية - على المذهب الملكانى - وقد صار لهذه الزوجة من السلطان والنفوذ بقصر الخلافة ما مكنها من الوقوف دائما الى جانب النصارى (١٦) ، واستطاعت هذه الزوجة أن تؤثر

(١٢) عنان : الحاكم بأمر الله ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٩ . ص ٨١ .

(١٣) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٤٤ .

(١٤) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، بيروت ١٨٩٠ م . ص ٣١٠ .

(١٥) بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ، بيروت ١٩٥٤ ، ج ٢ . ص ١٠٤ .

(١٦) الانبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٣ ، ورقة ٥١ .

- ابن العميد : تاريخ المسلمين ، لندن ١٦٢٥ م ، ص ٢٤٧ .

فى سىياسة الخليفة العزيز بالله نحوهم ، وأن ترفع أخويها وتقربهما من الخليفة . ففى شهر رمضان سنة ٣٧٥ هـ / ٩٨٥ م أصدر العزيز بالله قرارا بتعيين أخيها أريستس بطريركا على بيت المقدس ، وقد ظل فى منصبه هذا عشرين عاما وششارك فى المفاوضات الدبلوماسية بين الروم والقواطم ، بينما أمر بتعيين أخيه أرسانى (أرسانيوس) مطرانا على القاهرة ، ثم ما لبث أن أصبح بطريركا على الاسكندرية فى سنة ٣٩٠ هـ / ١٠٠٠ م (١٧) .

وكان لهذه المصاهرة تأثيرها الكبير فى سياسة العزيز بالله نحو النصارى ، ومبالغته فى التسامح معهم والعطف عليهم ، وبالتالى فى فتح باب الوظائف العليا فى الدولة أمام أهل الذمة .

• وواصلت هذا الدور ابنته ست الملك (ت ٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م) . وكان العزيز يحبها حبا شديدا ، « ولا يرد لها قولا » (١٨) ، فكان لها دورها البارز فى التأثير على سياسة أبيها نحو النصارى ، كما كان لها دورها الخطير فى الأحداث الهامة ومجريات الأمور فى البلاد . فقد وقفت الى جانب عيسى بن نسطورس تسانده وتدافع عنه بعد أن عزله العزيز بالله من منصبه وصادره ، وقبل العزيز بالله وساطتها وعفى عنه ، وأعادته الى الوساطة بعد أن تعهد عيسى بتنفيذ السياسة التى رسمها له (١٩) .

• وكيفما كان الأمر فقد كان للسياسة السمحة والرشييدة التى

(١٧) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ١٦٤ ، ص ١٩٧ .

— الانبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ورقة ٥١ .

(١٨) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٢٣ .

(١٩) أبو شجاع : المصدر السابق ، ص ١٨٧ .

— ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٢٣ .

انتيجيا العزيز بالله الفاطمي ، أثرها الطيب في اكتساب محبة
المصريين بوجه عام على اختلاف طبقاتهم ومذاهبهم (٢٠) .

أما في خلافة الحاكم بأمر الله ٣٨٦ - ٤١١ هـ / ٩٩٦ -
١٠٢٠ م فإن المصادر التاريخية تجمع على أن غالبية رجال الدواوين
وموظفي الحكومة ، كانوا من أهل الذمة . فبشهادة الأنطاكي
« كان سائر كتابه وأصحاب خدمته وأطباء مملكته نصارى
الانقريسير » (٢١) . كما اتسمت سياسة الحاكم بأمر الله مع جميع
موظفي الدولة بروح العدالة ، مع الصرامة في توقيع عقوبات بالغة
القسوة على المخالفين ، ويعطينا الأنطاكي صورة واضحة للعلاقة بين
الحاكم بأمر الله ورجال دولته بقوله أن الحاكم « أظهر من العدل
ما لم يسمع بمثله ، ولعمري أن أهل مملكته لم يزالوا في أيامه
آمنين على أموالهم . غير مطمئنين على نفوسهم ولم تمتد يده قط الى
أخذ مال أحد ، بل كان له جود عظيم وعطايا جزيلة ، وصلات
واسعة ، ولقد قتل من رؤساء دولته وأهل مملكته ممن لهم الأموال
العظيمة ، ما لا يقع عليه احصاء لكثرتة ، فلم يتعرض لأخذ مال
أحد منهم لنفسه » (٢٢) .

ومن الأمثلة على ذلك أن الحاكم بأمر الله أعطى ثقته لفهد
ابن ابراهيم النصراني ، وقدمه على سائر الكتاب ، وأمرهم بطاعته ،
وأكد لهم أثناء اجتماعه بهم أن فهد موضع ثقته وتقديره ، غير أنه
ما لبث أن قتله بسبب ميله الى النصارى ، واسناده مناصب الدولة
اليهم ، وازدياد نفوذهم ، وسيطرتهم على دواوين الحكومة ، وتعسفهم

(٢٠) حسن ابراهيم : المجلد في التاريخ المصري ، الطبعة الاولى ١٩٤٢ م ،
ص ١٦٢ .

(٢١) الأنطاكي : المصدر السابق ، ص ٢٠٣ .

(٢٢) الأنطاكي : نفس المصدر ، ص ٢٠٦ .

وظلمهم للمسلمين ، علاوة على سيرته السيئة ، واختلاسه لأموال الدولة ، واقتطاعه لنفسه ، فكان صنيذا سهلا أمام منافسيه ابن العداس ، وابن محمد النحوى ، اللذين دسا له عند الحاكم موضحين الأخطاء التى ارتكبها فهد ، مما دعى الحاكم بأمر الله الى عزله وقتله فى ثامن من جمادى الآخرة سنة ٣٩٣ هـ (٢٣) .

أما ابن عبدون الذى قلده الحاكم منصب الوساطة ثم صرفه عنها فى رابع المحرم سنة ٤٠١ هـ وقتله بعد مدة قصيرة ، فقد تعرض لنفس الظروف التى تعرض لها فهد بن ابراهيم ، وارتكب نفس الأخطاء ، فضلا عن الخلافات التى وقعت بينه وبين الحسين ابن جوهر الذى حرض الحاكم بأمر الله عليه (٢٤) .

وإذا كان الحاكم بأمر الله قد أخذ عليه اضطهاده للنصارى وقسوته على أهل الذمة بوجه عام ، وبصبورة لم يسبق لها مثيل (٢٥) ، فإن النظرة الفاحصة لموقفه من موظفيه تسمح لنا بإعادة النظر فى هذا الرأى .

ذلك أن الحاكم بأمر الله قد تفانى فى خدمة الدولة والرعية ، وأحكم رقابته على وسطائه وكبار رجال الدواوين ، كما حاسب - وهو رجل الدولة القوى - رجال دولته من مسلمين وذميين حسابا عسيرا .

من ذلك أنه فى سنة ٣٩٨ هـ / ١٠٠٧ م طالب منصور ابن عبدون النصرانى وكان يتولى ديوان الشام ، ومعه جماعة من كتاب الدواوين فى مصر من مسلمين وذميين على حد سواء ، بتقديم

(٢٣) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٥٩ .

- المقرئى : خطط ، ج ٢ ، ص ٣٥ .

(٢٤) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٦٢ .

(٢٥) عنان : المصدر السابق ، ص ٨٩ .

حساب ما كانوا يتولونه من أعمال ، ثم صادر أموال بعضهم وأودعهم السجون . غير أن ابن عبدون ما لبث أن نجح فى اقناعه بالافراج عن بعضهم . ولكن فى سنة ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م عادت الشناعات السيئة وكثرت حول الموظفين الذميين ، فأصابهم الحاكم بأمر الله واجتمعوا بعاصمة الخلافة ، وتوجهوا الى قصر الحاكم بأمر الله يلتمسون الأمان ، ويسألونه العفو والصفح ، فاستقبلهم رسول الحاكم بأمر الله ، ورد عليهم « ردا جميلا » ، أعاد الثقة والاطمئنان الى نفوسهم (٢٦) .

وهناك من الأدلة ما يؤكد أن الحاكم بأمر الله كان حازما فى سياسته الادارية ، ابتغاء تحقيق العدالة ، وحرصا على انتظام العمل بالدواوين ، وليس بدافع التعصب . فالحاكم لم يقتل فهد ابن ابراهيم لكونه نصرانيا ، ولكن قتله بسبب الأخطاء التى ارتكبها . كما أمر بقتل أبى غالب - أخ فهد - متولى ديوان النفقات لظلمه وسوء تصرفه ، ومع ذلك فان الحاكم بأمر الله أرسل فى طلب أولاد فهد وخلع عليهم ، وكتب لهم سجل أمان بحمايتهم وعدم التعرض لقصورهم وأموالهم (٢٧) .

واذا كان الحاكم بأمر الله قد قبض على كتاب الدواوين من النصارى واعتقلهم عقب مقتل فهد - فان أبا الفتح منصور بن مقشر الطبيب - وهو من المقربين الى الحاكم - قد توسط للافراج عنهم ، فأطلق سراحهم بعد اسبوع من القبض عليهم ، وعاد كل واحد منهم الى وظيفته (٢٨) .

(٢٦) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ١٩٤ ، ص ١٩٦ .

(٢٧) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٥٩ .

(٢٨) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ١٨٥ ، ص ١٨٦ .

- ابن ظافر : أخبار الدول المنقطعة . مخطوط بدار الكتب بالقاهرة
رقم ٨٩٠ تاريخ ، ورقة ٦٦ .

وهذا الحادث يدل على أن ما فعله الحاكم بأمر الله لا يعدو أن يكون اجراء وقائيا ، كثيرا ما كان يتخذ أثناء الأزمات من هذا القبيل ، خشية وقوع اضطرابات لا يحمد عقباها وحفاظا على أموال الدولة من الضياع أو النهب . ولقد اتخذ الحاكم بأمر الله مثل هذا الاجراء بعد مقتل أبى عبد الله الحسين بن طاهر ابن الوزان (ت جمادى الأخرى سنة ٤٠٥ هـ) ، اذ أحضر الكتاب ورؤساء الدواوين ، وسألهم عما يتولاه كل منهم ، ثم أمرهم بالعودة الى وظائفهم والتفانى فى عملهم (٢٩) .

ويعلق ستانلى لين بول على تعرض بعض كبار موظفى الدولة من أهل الذمة للرقابة الصارمة ، وقسوة الحاكم بأمر الله فى توقيع العقوبات عليهم بقوله : « ان المسلمين فى الوقت نفسه لم يكن حالهم بأحسن من حال هؤلاء ، فقد كان الوزراء سواء منهم المسلمون والمسيحيون يقتلون ويعدمون بلا تفرقة أو تمييز » (٣٠) .

وذكر ابن القلانسي أن أحد النصارى العاملين بخدمة ست الملك - وهو من المقربين اليها - كتب رسالة يستصرخها ، ويشكو لها ما نزل بالناس من ظلم ، وما شمل الشام وأهله من تعسف ابن النحوى متولى ديوان الشام . فما ان وصلتها الرسالة ، حتى دخلت على أخيها الحاكم بأمر الله ، وأخبرته بفحوى الرسالة ، وما أصاب رعاياه بالشام ، فما كان منه الا أن أصدر أمره بقتل ابن النحوى (٣١) .

واذا كان الحاكم بأمر الله قد اتبع سياسة التسامح مع أهل الذمة فى بداية عهده متتبعا سياسة أبيه - بسبب تأثير أخته ست

(٢٩) المقرئى : خطط ، ج ٢ ، ص ٤١٠ .

(٣٠) لين بول : سيرة القاهرة ، ترجمة د . حسن ابراهيم ، طبع بالقاهرة .

١٩٥٠ ، ص ١٣٥ .

(٣١) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٦٠ .

الملك التي كان يأخذ برأيها في بداية حكمه - ، فإن كبار موظفي الدولة من أهل الذمة انتهزوا هذه السياسة السمحة ، وجدوا في تعيين بنى ملتهم في الدواوين الحكومية ، لدرجة أن أصبح معظم موظفي الدولة من أهل الذمة ، وبذلك سيطروا على معظم الدواوين ، مما لفت نظر الحاكم بأمر الله ودعاه الى تسجيل أسماء سائر المسلمين المتعطلين من المتصرفين والكتاب الذين يصلحون للخدمة في دواوين الحكومة ليعينهم في وظائف الدولة ومرافقها ، وذلك حتى لا يستأثر الموظفون الذميون بوظائف الدولة (٣٢) .

ومع ما عرف عن الحاكم بأمر الله من ميله الى قتل المنحرفين من كبار موظفيه فإنه لم يسئ لمن تفانى في عمله أو خدم الدولة باخلاص وأمانة . فالشافى زرعة بن عيسى بن نسطورس النصراني كان واحدا من القلائل الذين افلتوا من غضبه لأنه « كان حسن السيرة ، محمود الطريقة ، محبوبا من سلطاناه وسائر جنده وكتابه » (٣٣) . أما أبوه عيسى بن نسطورس الذي قبض عليه في المحرم سنة ٣٨٧ هـ ثم قتل فقد كان ضحية ابن عمار (٣٤) .

كما كانت علاقة الحاكم بأمر الله بأطبائه من أهل الذمة علاقة ود وتقدير ، وتنطوى على التسامح ولا تعرف التعصب ، فكان لهم المنزل السامية ، والمكانة الرفيعة ، ومنحهم العطايا وخلع عليهم ، وقربهم اليه ، وأدناهم من مجلسه كما زار البعض منهم أثناء مرضه ، وشمل أولادهم برعايته ، وأطلق لهم الأموال وأجزل لهم البعيا (٣٥) .

(٣٢) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ٢٠٢ .

(٣٣) الانطاكي : نفس المصدر ، ص ٢٠٢ .

(٣٤) ماجد : الحاكم بأمر الله ، الخليفة المقتدى عليه ، القاهرة ١٩٥٩ م

ص ٥٦ .

(٣٥) القفطى : المصدر السابق ، ص ١٧٨ ، ٤٣٠ ، ٤٣٨ .

- ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، ص ٥٤٤ ، ٥٤٩ ، ٥٥٠ .

واذ كان البعض يقول ان الحاكم بأمر الله قبل اختفائه قد قضى على نفوذ النصارى في مصر ، وأنهم أصبحوا في ذلك الوقت مهملين في الدولة (٣٦) ، فانه يتضح من الأمثلة السابقة انه كان يتصرف من مبدأ واحد ومنطلق واحد هو : أن يرى رعاياه وقد شملهم العدل ، وحرصه على أن يكون حكامه وموظفيه أكفاء يخلصون في خدمة رعاياه فلم يعزل هذا أو يقتل ذاك ، أو يعتقل أو يصادر أو يعاقب أحدا تعصبا الى جنس أو دين . وهذا ما يؤكد مجموعة المراسيم والسجلات التي أصدرها قبيل اختفائه ، وكلها تفوح بروح التسامح والعطف على أهل الذمة وبخاصة نصارى مصر (٣٧) .

وما أن اختفى الحاكم بأمر الله سنة ٤١١ هـ / ١٠٢٠ م حتى بويع ولده الظاهر لاعزاز دين الله بالخلافة ، وكان صبيا في السابعة عشر من عمره ، ولذلك أخذ نفوذ عمته ست الملك سند النصارى القوى في مصر يظهر من جديد ويتزايد بصورة واضحة ، اذ كانت هي المدبرة لشئون الدولة وسياستها في تلك الفترة (٣٨) .

واستطاع الظاهر لاعزاز دين الله أن يكتسب عطف أهل الذمة ومحبتهم له ، فاقدر أصدر مرسوما يوضح حسن رأيه ورضاه وثقته في جميع موظفي الدولة ويطمئنهم على بقاء كل واحد منهم في وظيفته ، غير أنه في نفس الوقت ناشد رجال الدواوين وموظفي الدولة توخي العدل والسهر على خدمة الرعية ، والقضاء على الفساد . غير أنه جد في اصلاح الجهاز الادارى للدولة ، فأجرى عملية تطهير في كل فروع الادارة الحكومية ، وأقصى العناصر الانتهازية وأصحاب

(٣٦) جاك تاجر : أقباط ومسلمون منذ الفتح العربى الى سنة ١٩٢٢ م القاهرة سنة ١٩٥١ م ، ص ١٣٥ .

(٣٧) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ٢٢٨-٢٣٢ .

(٣٨) الانبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٣ ، ورقة ٦١ .

المصالح الشخصية ، وأبعد كل من شك في إخلاصه وولائه للخلافة (٣٩) .

كما كان كبار موظفي الدولة ووزرائه وبخاصة المسلمين منهم على علاقة حسنة بأهل الذمة . فقد كان الوزير علي بن أحمد محبا للنصارى ، متسامحا معهم ، وحسن العلاقة بأهل الذمة بوجه عام . وموجز القول فإن خلافة الظاهر لأعزاز دين الله اتسمت بالهدوء بسبب سياسة التسامح مع أهل الذمة ، وهذا ما عبر عنه مؤلف سير البيعة المقدسة بقوله : « وكان في أيامه هدوء وسلامة عظيمة ... وكان دين النصارى مستقيم وأهله مكرمين » (٤٠) .

وفي خلافة ابنه المستنصر بالله ازداد نفوذ أهل الذمة . فقد سيطر النصارى على دواوين الدولة ، وقد عبر عن ذلك المؤلف السابق ذكره بقوله ان « جميع مقدمى المملكة والناظرين في دواوينها وتدير أمورها كلهم نصارى ، وهم الملاك النافذ أمرهم » (٤١) . كما ازداد نفوذ اليهود في قصر الخلافة ، وقد تمثل ذلك في أبى سعيد التستري - متولى ديوان أم الخليفة المستنصر وفي الدور الخطير الذى قام به في عزل الوزير الأنبارى وتعيين الوزير الفلاحى . كما استبد التستري بأمور الدولة وسياستها في وزارة الفلاحى ، مما دعا الفلاحى الى تدبير مؤامرة لاغتياله سنة ٤٣٩ هـ / ١٠٤٧ م ، ولم ينجح الفلاحى من غضب أم المستنصر ، فأوعزت الى ابنها بعزله ، ثم بقتله بعد مدة قصيرة سنة

(٣٩) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ٢٣٥-٢٣٦ .

- ابن القلانسى : المصدر السابق ، ص ٨٣ .

(٤٠) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٣ ، ورقة ٦١ ، ٦٣ .

(٤١) الأنبا ميخائيل : نفس المصدر ، ورقة ٧٥ .

٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م . كما كان لأبى نصر هارون التستري - أخ
أبى سعيد - نفوذ كبير داخل قصر الخلافة ، فقد تدخل بصورة
سافرة فى شئون الدولة ، الأمر الذى أدى الى اتهامه بالانحياز الى
جانب أعداء الدولة من المرداسيين ، والى مصادرة أمواله ومعاقبته ،
ثم بموته سنة ٤٤١ هـ / ١٠٤٩ م (٤٢) .

ولم يكن هذا آخر عهد أهل الذمة بالوزارة وتولى المناصب
الكبرى ، فقد تولى أبو سعد ابراهيم بن سهل التستري الوزارة
سنة ٤٥٦ هـ / ١٠٦٣ م ، ولكن ما لبث أن صرفه المستنصر عنها
فى السنة التالية (٤٣) .

ولقد تعاطف بعض ولاة الأقاليم فى خلافة المستنصر مع أهل
الذمة ، فوالى القاهرة سنان بن كابر كان يحب النصارى ويعطف
عليهم ، كما كان الأمير المؤيد حصن الدولة الى الاسكندرية صديقا
لأقباط مصر ، محبا لهم ومهتما بأمورهم (٤٤) .

ومجمل القول أن أهل الذمة تمتعوا بنفوذ كبير فى خلافة
المستنصر ، واذا كان قد أصابهم مكروه أو تعرضوا لأذى ، فقد كان
ذلك فى فترة الاضطرابات التى عمت البلاد فى النصف الثانى من
عهده (٤٥) .

(٤٢) ابن ميسر : أخبار مصر ، تحقيق هنرى ماسيه - القاهرة ١٩١٩ م ،
الجزء الثانى ، ص ١-٣ .

(٤٣) ابن ميسر : نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ١٥ .

(٤٤) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٣ ، ورقة ٧٧ .

(٤٥) الأنبا ميخائيل : نفس المصدر ، ج ٣ ، ورقة ٧٩ .

- جاك تاجر : المرجع السابق ، ص ١٤٠ .

والسطور التالية تلقى الضوء ساطعا على بعض من تولى من
أهل الذمة المناصب الكبرى فى الدولة - وعلى رأسها منصبى الوزارة
والوساطة - كما توضح لنا أثر ذلك على سياسة الدولة ، ونتائجها
بالنسبة للمجتمع المصرى بوجه عام خلال تلك الفترة من تاريخ
مصر .

الوزراء والوسطاء من أهل الذمة

يعقوب بن كلس :

يعتبر ابن كلس أبرز الوزراء الذين تقلدوا منصب الوزارة في مصر في العصر الفاطمي الأول . وهو من أهل الذمة الذين أسلموا ، ومن أعظمهم شأنًا ، ولذلك اهتم بالحديث عنه والترجمة له كثير من المؤرخين .

فهو يعقوب بن يوسف بن إبراهيم بن هارون بن داود ابن كلس ، الوزير الكامل المكنى « بأبي الفرج » ، ولد ببغداد ونشأ بها ، وتعلم الكتابة ومبادئ الحساب ، ثم انتقل مع أبيه من بغداد إلى الشام ليعمل بالتجارة (٤٦) ، ولما نزل الرملة سنة ٣٣١ هـ / ٩٤٢ م عمل وكيلا للتجارة بها (٤٧) وعندما تراكمت عليه الديون وعجز عن سدادها هرب من الشام ، وسافر إلى مصر سنة ٣٣١ هـ / ٩٤٢ م وفي مصر اتصل بكافور الأخشيدي ، حيث كان يبيعه

(٤٦) العيني : عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، الجزء ١٩ مخطوطة مصورة بدار الكتب المصرية برقم ١٥٨٤ تاريخ ، ورقة ٤١٨ .
- ابن العماد : شذرات الذهب في أخبار من ذهب - طبعة القاهرة سنة ١٢٥٠ هـ ، الجزء الثالث ، ص ٩٧ .

Mann : The Jews in Egypt and Palestine Under Fatimid (٤٧) Caliphs, Vol. I. p. 17.

ما يطلبه من البضائع والأمتعة ، ويحال بثمنها على ضياع مصر (٤٨) .

ولكثرة تردد ابن كلس على الريف اكتسب معرفة وخبرة بكل ما يتصل بحياة أهله ، وساعده على ذلك ما اشتهر به من دهاء وذكاء مفرط ومهارة فى معرفة الضياع ، ولذلك اتسعت تجارتها وذاع صيته ، وما لبث أن التحق بخدمة كافور وأصبح من المقربين اليه ، فعينه فى ديوان الخاص ، ثم أسند اليه مهمة الاشراف على النواحي المالية فى دواوين الحكومة ومراجعة مستنداتها قبل عرضها عليه . وأظهر ابن كلس مقدرة فائقة فى الادارة ، فأعجب به كافور لمهارته وحسن سياسته وقال : « لو كان هذا مسلما لصلح أن يكون وزيرا » (٤٩) .

بلغ ابن كلس ما قاله كافور عنه وتقديره له ، والتصريح بصلاحيته للوزارة لو كان مسلما ، فأحضر من علمه شرائع الاسلام سرا ، وفى يوم الاثنين الثامن عشر من شعبان سنة ٣٥٦ هـ / ٩٦٦ م أشهر اسلامه ، ولزم الصلاة ، وواصل دراسته للدين الاسلامى والفقه والتشريع (٥٠) .

ويرى بعض المؤرخين أن ابن كلس أعلن اسلامه طمعا فى الوزارة وحبا فى المنصب واشتياقا الى الولاية (٥١) ، وهذا

(٤٨) النويرى : نهاية الارب فى فنون الادب ، مخطوطة مصورة بدار الكتب بالقاهرة برقم ٥٤٩ معارف عامة ، الجزء ٢٦ ، ورقة ٤٩ .

(٤٩) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٣٢ .

- النويرى : المصدر السابق ، ج ٢٦ ، ورقة ٤٩ .

(٥٠) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج ٢٦ ، ص ٦ ، ص ٢٦ .

- المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٤ .

(٥١) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٣٢ .

- سبط بن الجوزى : المصدر السابق ، ج ١١ ، ورقة ١٥٢ .

ما نرجحه على الرغم من كثرة أعمال ابن كلس الدالة على حسن اسلامه والتي سوف نلقى الضوء عليها فيما بعد . .

وفي عهد كافور أصبح ابن كلس منافسا خطيرا للوزير أبي الفضل جعفر بن الفرات وزير كافور - المعروف بابن حنزاية - ، وما أن توفي كافور سنة ٣٥٧ هـ / ٩٦٨ م حتى أصدر ابن حنزاية أوامره بعزل ابن كلس ومصادرة أمواله والقبض عليه . غير أن ابن كلس استطاع بالرشوة وبمساعدة أعوانه أن يحصل على أمر بالافراج عنه ، فخرج من مصر قاصدا بلاد المغرب (٥٢) .

وسواء دخل ابن كلس المغرب واتصل بالمعز لدين الله الفاطمي قبل غزو مصر عن طريق بعض اليهود المقربين اليه والذين يخدمون بالبلاط الفاطمي ، وعاونوه في تدبير فتح مصر ، ثم جاء معه عند قدومه الى مصر (٥٣) . أم أنه التقى بالقائد جوهر الصقلي أثناء سير الحملة من المغرب لفتح مصر فعاد معه (٥٤) ، فالحقيقة الثابتة أن ابن كلس منذ اتصاله بالمعز لدين الله كان على علاقة حسنة بدار الخلافة ، ويتمتع بثقته لكفاءته وللبالغته في طاعته (٥٥) .

ويرى بعض المؤرخين أن يعقوب بن كلس تقلد الوزارة في عهد المعز لدين الله (٥٦) ، بينما ترى الغالبية الكبرى منهم أن ابن كلس

(٥٢) ابن خلدون : العبر وديوان الميقات والخبر ، ج ٤ ، ص ٥٥ .

- العيني : المصدر السابق ، ج ١٩ ، ورقة ٤١٩ .

(٥٣) الانبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ورقة ٤١ .

(٥٤) النويري : المصدر السابق ، ج ٢٦ ، ورقة ٤٩ .

- العيني : المصدر السابق ، ورقة ٤٩ .

(٥٥) ابن ظافر : المصدر السابق ، ورقة ٤٩ .

(٥٦) نفس المصدر والصفحة .

- ابن خلدون : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٥٥ .

- القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الانشا ، ج ٣ ، ص ٣٥٧ .

قد تقلد الوزارة فى عهد العزيز بالله (٥٧) ، الا انهم اختلفوا فى تاريخ تقلده هذا المنصب وانقسموا الى فريقين :

فريق يرى انه تقلد الوزارة العزيز بالله سنة ٣٦٥ هـ / ٩٧٥ م (٥٨) ، وفريق آخر يرى انه تقلدها فى يوم الجمعة ثامن عشر رمضان سنة ٣٦٨ هـ (٥٩) .

هذا بينما يحدد المقرئى اليوم الأول من المحرم سنة ٣٦٧ هـ تاريخا لتقلده الوزارة (٦٠) .

والواقع ان ابن كلس منذ اتصاله بالخليفة المعز قد تفانى فى خدمته وطاعته ، وفى رابع عشر المحرم سنة ٣٦٣ هـ « قلده المعز الخراج ، ووجوه الأعمال جمعها ، والحسبة ، والسواحل ، والأعشار والجوالى ، والأحباش ، والموارث والشرطتين ، وجميع ما ينضاف الى ذلك ، وما يطرأ فى مصر وسائر الأعمال أبا الفرج يعقوب بن يوسف الوزير وعسلوج بن الحسن ، وكتب لهما بذلك سجلا قرئ يوم الجمعة على منبر جامع أحمد ابن طولون » (٦١) .

(٥٧) ابن القلانسي : (الذيل ، ص ٣٢) ، سبط بن الجوزي (مرآة الزمان ، ج ١١ ، ورقة ١٥٢) النويري (نهاية الارب ، ج ٢٦ ، ورقة ٤٩) ، المقرئى (الخطط ، ج ٢ ، ص ٥) ، العينى (عقد الجمان ، ج ١٩ ، ورقة ٤١٩) ، أبو المحاسن (النجوم ج ٤ ، ص ١٥٨) ، ابن أبيك (كنز الدرر ج ٦ ، ورقة ١١٤) ، وابن العماد (شذرات الذهب ج ٣ ، ص ٩٧) .

(٥٨) ابن القلانسي : (الذيل ، ص ٣٢) ، سبط بن الجوزي (مرآة الزمان ، ج ١١ ، ورقة ١٥٢) أبو المحاسن (النجوم ، ج ٤ ، ص ١٥٨) ، ابن أبيك كنز الدرر ، ج ٦ ، ورقة ١١٤ .

(٥٩) ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٢٧ .

— النويري : المصدر السابق ج ٢٦ ، ورقة ٤٩ .

— العينى : المصدر السابق ج ١٩ ، ورقة ٤١٩ .

(٦٠) المقرئى : خطط ، ج ٢ ، ص ٥ .

— المقرئى : نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٢٦٨ .

(٦١) المقرئى : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين خلفاء الجزء الأول ،

تحقيق جمال الدين الشيال ، ص ١٤٤ ، ١٤٥٠ .

ولكن سيطرة ابن كلس على ادارة الدواوين ، وعظم منزلته فى قصر الخلافة ، واقبال الناس عليه ، لم يترك مجالا للمؤرخين لابرار الدور الذى قام به عسلوج بن الحسن الذى شارك ابن كلس مسئولية الاشراف على الدواوين مدة خلافة المعز . كما أن استمرار ابن كلس على قمة الجهاز الحكومى فى الدولة بعد وفاة المعز كان من الأسباب التى جعلت بعض المؤرخين يعتقدون أن ابن كلس قد تقلد الوزارة فى عهد المعز .

ومن هنا يتضح لنا ان ابن كلس لم يتقلد الوزارة فى عهد المعز ، اذ لم يقلد المعز الوزارة لأحد مدة خلافته ، وبذلك يكون ابن كلس أول من وزر للعزیز بالله فى أول المحرم سنة ٣٦٧ هـ / تاسع عشر أغسطس ٩٧٧ م وأول من خطب بالوزارة فى عهد الفاطميين . ثم منحه العزیز بالله فى رمضان سنة ٣٦٨ هـ لقب « الوزير الأجل » ، وأمر ألا يخاطبه أحد ولا يكتبه الا به (٦٢) .

واشتهر ابن كلس بنجاح سياسته المالية ، اذ كان أول عمل قام به صبيحة تقلده الادارة المالية فى المحرم سنة ٣٦٣ هـ / أكتوبر ١٩٧٣ م ، هو اعلان المزاو عن الضياع والأراضى وسائر وجوه الأعمال التى تريد الحكومة الفاطمية أخذ خراجها عن طريق نظام التضمين أو الالتزام . وقد حررت العقود بالمبالغ المطلوبة على الأراضى التى شملها نظام التضمين وأسماء الضمان أو الملتزمين الذين رسا عليهم المزاو (٦٣) .

كما أخذ ابن كلس فى اعتباره عدة أمور فى وضع سياسته المالية ، وهذه الأمور هى :

أولا : العمل على زيادة إيرادات الدولة عن طريق المزاو لكل

(٦٢) المقرئى . الخطط ، ج ٢ ، ص ٥ .

(٦٣) النويرى : المصدر السابق ، ج ٢٦ ، ورقة ٤٩ .

ما تريد الحكومة تضمينه ، ليتمكن من الحصول على أعلى حصة للخارج متبعا نظام القبلات (٦٤) أو الالتزامات . وهو النظام المعمول به في أنحاء الدولة (٦٥) .

ثانيا : زيادة عدد الضباع المطروحة للالتزام والقبالات في الميزان العلني (٦٦) .

ثالثا : تحديد وتقدير الضرائب للمتقبلين والمتزمين والضمان ، وكذلك ما يصرف على الأراضي وتطهير وحفر الترع واصلاح الجسور حتى لا يتعرض أحد للتعسف والظلم ، وتأكيدا لذلك كان ينظر فيما يقدم من شكاوى (٦٧) .

رابعا : التشدد في مطالبة المالكين والمتقبلين والعمال لتسوية التزاماتهم وتحصيل ما لديهم من مبالغ متأخرة وهي ما تسمى بالبواقي (٦٨) ونتيجة لهذه السياسة المالية زادت إيرادات الدولة زيادة كبيرة ، وبلغ جملة خراجها في سنة ٣٦٣ هـ / ٩٧٣ م أربعة ملايين دينار (٦٩) وتحدثنا بعض المصادر أن ما تم تحصيله من أموال الخراج في يوم واحد من تنيس ودمياط والأشمونيين أكثر من مائتي ألف دينار وعشرين ألف دينار ، ورغم أن هذا المبلغ في تقديره ، إلا أن المقرئ سيستنكر هذه السياسة المتشددة في

(٦٤) خلاصة هذا النظام أن يتعهد شخص بجباية الضرائب في قرية عدة قري أو كور ، ويتم هذا العمل بطريق المزايدة وذلك لمدة أربع سنين ، البراوى حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين ، ٣٢ .

(٦٥) المقرئى : اتعاظ الحنفا ، ج ١ ، ص ١٤٦ .

(٦٦) المقرئى : نفس المصدر ، ونفس الصفحة ، ص ١٤٧ .

(٦٧) المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٨١-٨٢ ، ج ٢ ، ص ٥ .

(٦٨) المقرئى : اتعاظ الحنفا ، ج ١ ، ص ١٤٥ .

(٦٩) البراوى : حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين ، ص ٢٣٤ .

تحصيل الخراج بقوله « وهذا شيء لم يسمع قط بمثله في بلد » (٧٠)

على أن أهم إصلاحات ابن كلس المالية هو أنه اتخذ من الدينار المعزى العملة النقدية الجديدة - عملة رسمية بدلا من الدينار الراضى (٧١) ، وهو العملة التي كانت متداولة قبل مجيء الفاطميين الى مصر . اذ امتنع ابن كلس وعسلوج ابن الحسن أن يأخذا ضريبة الخراج بالدينار الراضى ، وارغما الناس على التعامل بالدينار المعزى ، فانحط الدينار الراضى ، ونقصت قيمته بمقدار الربع وأكثر (٧٢) .

وهنا لابد أن نلقى الضوء على أبعاد هذا الإصلاح المالى الجديد ومعزى هذا الإصلاح الذى يعد في الوقت نفسه أساسا لسياسة ابن كلس المالية .

ذلك أنه منذ استيلاء جوهر الصقلي على مصر سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٩ م حتى قدوم سيده المعز سنة ٣٦٢ هـ / ٩٧٣ م ، ظل الدينار الراضى هو العملة السائدة في مصر رغم أن جوهر سك الدنانير الذهبية التي تحمل اسم الخليفة المعز ولقبه (٧٣) ، اذ كان الدينار الراضى آنذاك أكثر وزنا وأشد نقاء من الدينار المعزى (٧٤) . وعندما تولى ابن كلس الاشراف على الادارة المالية امتنع عن أخذ الدينار الراضى ورفض الا أن تكون جباية الخراج بالدينار المعزى ، وقدرت قيمة الدينار الراضى بخمسة عشر درهما ، بينما صرف

(٧٠) المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٥ .

_____ : أتعاض الحنفا ، ج ١ ، ص ١٤٧ .

(٧١) نسبة الى الخليفة الراضى العباسى . (ماجد : ظهور دولة الفاطميين وسقوطهم فى مصر ، ص ٢٩٧) .

(٧٢) المقرئى : أتعاض الحنفا ، ج ١ ، ص ١٤٦ .

(٧٣) عبد الرحمن فهمى : موسوعة النقود العربية وعلم النميات ، الجزء الاول (فجر السكة العربية) ، ص ١٩٨ .

(٧٤) البراوى : المصدر السابق ، ص ٣٠٣ .

الدينار المعزى بخمسة عشر درهما ونصف ، فاضطر الناس الى بيع الدينار الراضى بأقل من قيمته (٧٥) ، كما دخلت الحكومة الفاطمية نفسها فى هذه المضاربة مشترية بالسعر الذى حددته (٧٦) .

وكان هذا الاصلاح المالى يرمى الى زيادة مالية الدولة عن طريق الربح الناتج من فرق الوزن بين الدينارين ، وذلك بسحب الدنانير الراضية - الأكثر وزنا والأشد نقاوة - واجبار الناس على بيعها واستبدالها بالدينار المعزى - الأقل وزنا - فخسر الناس من أموالهم الشيء الكثير (٧٧) .

واذا كان ابن كلس قد اتخذ من الدينار المعزى أساسا للتعامل النقدى ، فانه أراد بذلك التأكيد على أهم مظهر من مظاهر سيادة الدولة الفاطمية ، واستقلالها السياسى عن السيادة العباسية . وقد نجح ابن كلس فى سحب هذه العملة التى كان لها قيمتها فى نفوس الناس واجبارهم على التعامل بعملة جديدة تحمل صفة الدولة الفاطمية الشيعية المذهب (٧٨) .

ولقد هيا ابن كلس كل فرص النجاح لادارة الدولة ، فبمجرد توليه الوزارة ، أحكم سيطرته على الدواوين ، ونقل مقرها من قصر الخليفة ، واتخذ من داره مقرا لها ، ثم أنشأ ديوان « العزيزية » يختص بشئون الخليفة العزيز ، وعين بهذه الدواوين خيرة الكتاب والموظفين والجهابذة لادارتها وألحق بها خزانة للكسوة ، وخزانة للمال ، وخزانة للدفاتر ، وخزانة للأدوية وعين على رأس كل منها

(٧٥) المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٥ .

(٧٦) عبد الرحمن فهمى : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٠٢ .

(٧٧) المقرئى : اتعاظ الحنفا ، ج ١ ، ص ١٤٦ .

— البراوى : المرجع السابق ، ص ٣٠٤ .

(٧٨) عبد الرحمن فهمى : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٩٨ ، ٢٠٢ .

« ناظر » للاشراف عليها (٧٩) .

ورتب ابن كلس في داره الحجاب ، وحصن داره بالحرس الخاص ، وزودها بالكتاب والأطباء والصيادلة ، وأقرد لكل طائفة من العلماء ، والأدباء والشعراء ، والفقهاء ، والمتكلمين ، وأرباب الصنائع الأماكن الخاصة بهم ، وأجرى على كل واحد منهم الأرزاق والمرتبات - كما أنشأ مجلسا للنظر فيما يعرض عليه من شكاوى وتظلمات للفصل فيها ، وكان يبت فيها بنفسه ، ويعمل على فض المنازعات بين الخصوم (٨٠) .

وبذلك أصبح قصر ابن كلس مقرا لادارة أقاليم الدولة في مصر والشام والحرمين وبلاد المغرب (٨١) ، وأتاب عنه في تلك الأقاليم عمالا ، وعيونا له يكتبون اليه بأخبار الولاة (٨٢) ، ليكون على دراية تامة بكل ما يدور في هذه الأقاليم من أحداث ، كما استفاد من صداقته ومصاهرته للوزير ابن الفرات (ت ٣٩٠ هـ / ١٠٠٠ م) فعول عليه في محاسبة العمال (٨٣) .

وكان ابن كلس يجلس في داره - حيث دواوين الحكومة - يأمر وينهى ، وتعرض عليه كل أمور الدولة وسياستها للبت فيها (٨٤) ، فازداد نفوذه وعظمت مكانته .

(٧٩) المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٥ .

(٨٠) — : نفس المصدر ، ص ٦ .

(٨١) — : نفس المصدر والجزء ، ص ٥ .

(٨٢) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٢٩ .

(٨٣) على ابراهيم : تاريخ جوهر الصقل ، ص ٧٨ .

(٨٤) المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٥ .

لذا يرى بعض المؤرخين أن العزيز بالله فوض أمور الدولة الى ابن كلس (٨٥) ، وأنه كان « متمكنا من صاحبه (٨٦) » ، وأنه « غلب على العزيز » (٨٧) ، وأنه « لم يبق لأحد معه كلام » (٨٨) .

فما هي حقيقة الأمر ؟ ، هل كانت وزارة ابن كلس وزارة تفويض أم وزارة تنفيذ ؟

قبل الاجابة على هذا السؤال لابد من القاء مزيد من الضوء على مكانة ابن كلس في دولة الفاطميين .

لقد تقلد ابن كلس الوزارة - كما سبق الاشارة - في أول المحرم سنة ٣٦٧ هـ ، ولقبه العزيز في رمضان سنة ٣٦٨ هـ / ابريل ٩٧٨ م بلقب «الوزير الأجل» وخلع عليه ، ثم أصدر مرسوما في المحرم سنة ٣٧٣ هـ / يونية ٩٨٣ م أن يبدأ في مخاطبته ومكاتبته باسمه على المكاتبات النافذة عنه (٨٩) ، فكان يكتب عليها : « من يعقوب بن يوسف وزير أمير المؤمنين الى فلان » (٩٠) . بل ان العزيز بالله رفع الى وزيره رفعة سنة ٣٧٧ هـ / ٩٨٧ م يقول في أولها : « سلم الله الوزير وأبقى نعمته عليه » ولم يكن ذلك

(٨٥) أبو شجاع : المصدر السابق ، ص ١٨٥ ، ابن القلانسي (الذيل ، ص ٢٢) .

سبط بن الجوزي (مرآة الزمان ، ج ١١ ، ورقة ١٥٢) ، ابن ظافر (اخبار الدول المنقطعة ، ورقة ٥٤) ، النويري (نهاية الارب ، ج ٢٦ ، ورقة ٤٩) .

(٨٦) بيبرس الدودار : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ، الجزء السادس ، مخطوطة مصورة بمكتبة جامعة القاهرة برقم ٢٤٠٢٧ ، ورقة ٢٧٣ .

(٨٧) سبط بن الجوزي : المصدر السابق ، ج ١١ ، ورقة ١٥٢ .

(٨٨) العيني : المصدر السابق ، ج ١٩ ، ورقة ٤١٩ .

(٨٩) المقرئ : الخطط ، ج ٢ ، ص ٥ .

(٩٠) ابن ظافر : المصدر السابق ، ورقة ٥٤ .

الا تقديرًا للرجل ومكانته . وفضلاً عن ذلك فقد أقطعه الاقطاعات والضياغ بمصر والشام ، وأذن بكتابة اسمه على الطراز تكريماً له (٩١) . كما خطب وده الشعراء والأدباء ومنهم أبو الرقعمق (ت ٣٩٩ هـ) صاحب المجون والنوادر (٩٢) ، كما مدحه كبار رجال الدولة وقوادها ، فهذا جعفر بن صلاح - القائد المغربي - يكتب الى ابن كلس قائلاً :

ولي صديق ما مسنى عدم مذ نظرت عينه الى عامي
اعطى واقنى ولم يكلفنى تقبيل كف له ولا قدم (٩٣)

ومع تزايد نفوذه وعلو مكانته فقد اتخذ ابن كلس سنة ٣٧٠ هـ / ٩٨٠ م موقفاً عدائياً من الكتامين - وهم الدعاة التي قامت عليها دولة الفاطميين - وربما كان ذلك بسبب حقدهم عليه لاستثنائه بالسلطة والنفوذ ، كما أنه عزل جوهر القائد من منصبه ، مما أدى الى مواجهة عنيفة بينه وبين الكتامين الذين حاولوا اغتياله سنة ٣٧٣ هـ / ٩٨٣ م مما اضطره بعد ذلك بثلاث سنوات الى أن يسقط المغاربة ويستخدم الأتراك والأخشيدية (٩٤) .

ومع ما كان يتمتع به ابن كلس من قوة ونفوذ ومكانة سياسية ومهارة إدارية فإن الخليفة العزيز بالله كان يمتلك من القوة والارادة

(٩١) النويرى : المصدر السابق ، ج ٢٦ ، ورقة ٤٩ .

(٩٢) الثعالبي : يتيمة الدهر ، ج ١ ، ص ٣٢٦ ، ٤٢٧ .

- ابن العماد : المصدر السابق ، ج ٣ ، ١٥٥ .

(٩٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ج ٤ ،

ص ٥٩ .

(٩٤) بيبرس الدوادار : المصدر السابق ، ج ٦ ، ورقة ٢٥٦ .

- النويرى : المصدر السابق ، ج ٢٦ ، ورقة ٤٩ .

ما يستطيع به فى الوقت المناسب وفى اللحظة الحاسمة أن يكبح جماح وزيره ، ليصحح خطأ ارتكبه وليعيد الأمور الى نصابها ، بل ويجزده من جميع مناصبه وسلطاته وألقابه وثروته ويعتقله اذا لزم الأمر .

وقد ذكر لنا المؤرخون ان العزيز بالله اتخذ موقفا حازما من ابن كلس وهو فى أوج عظمته . ففى سنة ٣٧٣ هـ / ٩٨٣ م توفى القائد التركى أفتكين ، وكان مقربا من الخليفة العزيز بالله ، ومن أخص خدمه وحجابه ، مما دفعه الى الترفع على الوزير ابن كلس ومقاطعته ، فصارت بينهما العداوة والكراهية ، وثار شسكوك العزيز بالله حول ابن كلس ظنا منه أنه قد دس السم لأفتكين ، فاتهمه بذلك وأمر باعتقاله ، وعزله من منصبه فى شوال سنة ٣٧٣ هـ (٩٥) ، ونقل الدواوين من دار الوزير الى قصر الخلافة (٩٦) ، ورد النظر فى أمور الدولة الى خير بن القاسم (٩٧) . ولم يكتف العزيز بكل ذلك ، بل صادر أموال ابن كلس وجرده من ألقابه ومحا اسمه من الطراز (٩٨) .

ولبت ابن كلس فى الاعتقال عدة شهور ، فارتبكت أمور الدولة ، وساءت أحوالها ، مما اضطر العزيز بالله الى اطلاق سراحه سنة ٣٧٤ هـ / ٩٨٤ م . واعادته الى الوزارة والخلة عليه ، كما أصدر

(٩٥) بيبرس الدواidar : المصدر السابق ، ج ٦ ، ورقة ٢٢٨ .

— النويرى : المصدر السابق ، ج ٢٦ ، ورقة ٤٨ ، ٤٩ .

(٩٦) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ١٦٤ .

(٩٧) المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٥ .

(٩٨) المقرئى : إتعاظ الحنفا ، ج ١ ، ٢٦٢ .

— النويرى : المصدر السابق ، ج ١٩ ، ورقة ٤٨ ، ٤٩ .

مرسوماً بـرد ما أخذ من أمواله وزاد عليها ، وإعادة اسمه الى الطراز ،
وأن يتقدم الوزير موكب من عدة خيول تكريماً له (٩٩) .

ولا يعنى هذا الحادث الا التأكيد على أن الخلفاء الفاطميين
الأوائل كانوا يمسكون بالسلطة العليا في أيديهم ، وإن الوزراء مهما
كانت منزلتهم كانت لهم المكانة الثانية في الدولة ، كما يؤكد أيضاً
— رغم ما يذكره مؤرخو مصر الاسلامية من تعاظم نفوذ ابن كلس —
أن الوزير كان يأتمر بأمر الخليفة ، وينفذ سياسته وإن وزارة ابن
كلس كانت وزارة تنفيذ ، ولم تكن وزارة تفويض . ولقد حرص ابن
كلس على تنفيذ أوامر العزيز بالله وتقديم فروض الطاعة والولاء له ،
كما حرص دائماً على أن يثبت له أنه عند حسن الظن به عندما كان
يحاول أعداؤه الوشاية به والظعن فيه (١٠٠) .

ويعتبر ابن كلس أبرز رجال الدولة الفاطمية الذين قادوا
الحركة العلمية في العصر الفاطمي الأول ، ومن القلائل الذين نافسوا
أسرة النعمان — التي أخذ رجالها على عاتقهم نشر المذهب الشيعي —
في تدريس وارساء مبادئ الفقه الشيعي (١٠١) . فقد ألف ابن
كلس كانت وزارة تنفيذ ، ولم تكن وزارة تفويض . ولقد حرص ابن
صنف « الرسالة الوزيرية » ، وهي كتاب في الفقه الشيعي على
المذهب الاسماعيلي ، روى فيه عن الأئمة الفاطميين خاصة ما سمعه
من الخليفين المعز والعزيز ، وكان هذا الكتاب من المراجع التي
يعتمدها عليها العلماء فيما يصدرونه من الفتاوى والأحكام كما كان

(٩٩) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٦٤ .

— المقرئى : اتعاظ الحنفا ، ج ١ ، ص ٢٦٢ .

(١٠٠) المقرئى : الفسط ، ج ٢ ، ص ٦ .

(١٠١) ابن حجر العسقلاني : رفع الأمر عن قضاة مصر ، القسم الثاني ،

تحقيق د . حامد عبد المجيد (القاهرة ١٩٦١) ، ص ٤٠٩ .

هذا المؤلف من المؤلفات الهامة التي كان يدرسها الفقهاء (١٠٢) .

ولم يقتصر ابن كلس على مصنفه السابق الذكر ، اذ يذكر المقرئى أن من مؤلفاته كتاب فى القراءآت ، وكتاب فى الأديان ، وكتاب فى آداب الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكتاب فى علم الأبدان وصلاحها وهو مؤلف يقع فى ألف ورقة (١٠٣) .

كما عقد ابن كلس الندوات الخاصة فى كل يوم ثلاثاء ، وكان يحضرها بنفسه مع الفقهاء والعلماء وأهل الرأى ، يتناظرون بين يديه ، وكان اذا جلس يقرأ كتابه فى الفقه الذى سمعه من الخليفتين المعز والعزیز التفت حول مجلسه الخاصة والعامة يستمعون اليه (١٠٤) .

ويذكر ابن كلس قصارى جهده لنشر أفكاره ومؤلفاته . فكان يجلس فى يوم الجمعة ، ويقرأ بنفسه مصنفاته على الناس ليعطيها اهتماما خاصا ، وكان يحضر هذه المجالس القضاة والفقهاء والقراء وأصحاب الحديث والنحاة والشهود فاذا فرغ من قراءته قام الشعراء بمدحونه (١٠٥) .

وقد شجع العزيز بالله هذه المجالس العلمية ، فأجرى لجماعة الفقهاء الذين يحضرون مجالس الوزير أرزاقا فى كل شهر تكفيهم (١٠٦) .

(١٠٢) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ١٧٣ .

— المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٥ ، ٦ .

(١٠٣) المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص .

(١٠٤) — : نفس المصدر ، ج ٢ .

(١٠٥) — : نفس المصدر .

(١٠٦) — : نفس المصدر .

واتخذ ابن كلّس من الجوامع مراكز لنشر الدعوة الفاطمية ،
ولذلك امتدت اليها يد الإصلاح والتعمير ، وتحت اشرافه ادخل كثيرا
من التحسينات على جامع عمرو بالفسطاط ، الذي كان لا يزال الى
وقت مجيء الفاطميين من أهم مراكز الدراسة والتعليم والاشعاع
الفكري في العالم الاسلامي . وفي هذا الجامع تناول الفقهاء والعلماء
مؤلفات ابن كلّس في الفقه والقراءات بالدراسة والشرح (١٠٧) .
كما اتخذ من جامع الجواكيم ، وهو الجامع الذي وضع ابن كلّس
أساسه سنة ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م مركزا آخر لنشر تعاليم المذهب
الاسماعيلي ، واجتمع في ساحته الفقهاء للدراسة على غرار ما كان
يجري بالجامع الأزهر (١٠٨) .

وفي العصر الفاطمي الأول اشتهر الجامع الأزهر كأعظم جامعة
علمية اسلامية ، ويرجع الفضل في ذلك الى الوزير العالم يعقوب
ابن كلّس . ففي سنة ٣٧٨ هـ / ٩٨٨ م وافق العزيز بالله - بناء
على اقتراح ابن كلّس - على تحويل الجامع الأزهر الى جامعة علمية
ومركز للدراسات الفقهية لكل ما يتعلق بالمذهب الاسماعيلي ، وعين
بالأزهر خمسة وثلاثين من كبار الفقهاء ، وخصص لهم الرواتب
الشهرية المجزية ، وأنشأ لهم دارا ملحقة بالجامع الأزهر لسكنائهم ،
وكانوا يعقدون به ندوتهم العلمية الاسبوعية عقب انتهاء صلاة
الجمعة وحتى صلاة العصر . وبالفعل العزيز في تكريم هؤلاء العلماء ،
فبذل لهم العطايا ، ومنحهم الخلع وأمر أن يركبوا البغال تقديرا لهم ،
ومع كل ما ناله هؤلاء العلماء من تكريم لم ينس ابن كلّس أن يقدم
لهم الصلوات والمنح كل عام مكافأة وتشجيعا لهم (١٠٩) .

(١٠٧) المقرئ : الخطط ، ج ٢ ، ص ٦ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ .

- خطاب عطية : التعليم في العصر الفاطمي الاول (القاهرة ١٩٤٧ م)

ص ١٠٠ ، ١٠١ .

(١٠٨) المقرئ : المصدر السابق ، ص ٢٧٦ .

(١٠٩) — : نفس المصدر ، ص ٢٧١ .

وجالس ابن كلس أهل العلم والأدب ، وجمع بداره العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء والمتكلمين والنساخ والمشتغلين بتجليد الكتب والدفاتر ، وخصص لهم الرواتب الشهرية ، واهتم بزيادة أعداد الكتب والمؤلفات ، فعين كتابا لنسخ الكتب ومراجعين لمقابلتها وضبطها خشية التحريف وحفاظا على التراث (١١٠) . كما زود ابن كلس هؤلاء العلماء بكل ما يحتاجون إليه ، فأسس مسجدا بداره وعين له القراء والأئمة للصلاة ، وأنشأ عدة مطابخ لخدمتهم ، ودعا إلى مائدته أهل العلم ووجوه الكتاب ، وأقام مثل هذه المآدب في شهر رمضان للفقهاء ووجوه الناس فاذا فرغوا من تناول الطعام كان يطاف عليهم بالطيب (١١١) .

ونافس الوزير ابن كلس قاضي القضاة علي بن النعمان القيرواني في نشر عقائد الفاطميين وفرض القيود على تصرفات القاضي وأحكامه الفقهية بالدرجة التي جعلت القاضي ابن النعمان يبطل الجلوس بالجامع لمبالغة الوزير في التقليل من شأنه وأهميته (١١٢) . كما وقف ابن كلس بالمرصاد وتصدى للعلماء والمؤلفات التي لا تنحو نحو شيعيا ، وكان نصيب المؤلفين المعارضين لسياسته الموت أو الإعدام ، ونصيب مؤلفاتهم الحرق أو الإهمال (١١٣) .

وإذا كان هذا موقفا خاطئا بالنسبة للحركة العلمية وحرية الرأي والتعبير ، إلا أنه من وجهة نظر ابن كلس كان اجراء وقائيا

(١١٠) الانتاكي : المصدر السابق ، ص ١٦٤ .

— المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٥ .

(١١١) المقرئى : نفس المصدر والصفحة .

(١١٢) ابن حجر : المصدر السابق ، ص ٤٠٩ .

(١١٣) القفطى : المصدر السابق ، ص ٢٨٥ .

— خطاب عطية : المصدر السابق ، ص ٩٦ .

الهدف منه حماية الفقه الشيعي الاسماعيلي الذي لم يكن قد استقرت قواعده بعد من أعداء الفاطميين .

. وبوفاة ابن كلث سنة ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م فقدت الدولة الفاطمية واحدا من أخلص وزرائها البارزين الذين أسهموا بجهده وافر في رسم وتنفيذ سياستها الداخلية والخارجية .

عيسى بن نسطورس :

لم يستوزر العزيز بالله الفاطمي أحدا في الوزارة بعد ابن كلث ، وإنما أنشأ منصبا جديدا هو منصب « الوساطة » (١١٤) .

ويأتي عيسى بن نسطورس في مقدمة الذين تولوا منصب الوساطة في مصر في العصر الفاطمي الأول ، وعلى الرغم من أن المصادر التاريخية قد اختلفت في تاريخ تقليده الوساطة (١١٥) ، إلا أنه من المرجح أن العزيز بالله قسم أعمال الوزير ابن كلث المتوفى في سنة ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م بين كبار رجال دولته ، وعهد بإدارة الشئون المالية للبلاد الى عيسى بن نسطورس وهو نصراني من أقباط مصر (١١٦) ، ثم ما لبث أن رفعه الى منصب الوساطة سنة ٣٨٤ هـ / ٩٩٤ م ، فأشرف على كل دواوين الدولة وأحكم سيطرته عليها ، « وخاطب سائر الكتاب عن العزيز ، وخاطبه سائر الأولياء وكافة

(١١٤) المقرئى : الخط ، ج ١ ، ص ٤٢٨ .

— أبى السرور البكرى : عيون الأخبار ونزهة الأبصار ، مخطوط بدار الكتب بالقاهرة برقم ٧٢ ، تاريخ بمكتبة مصطفى باشا ، ورقة ١٤٧ .

(١١٥) القلقشندي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٩٠ .

— العيني : المصدر السابق ، ج ١٩ ، ورقة ٤٢١ .

(١١٦) ابن خلدون : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٥٥ .

الناس في مهماتهم وتوقيعاتهم » (١١٧) . كما عين العزيز بالله منشأ بن القزاز اليهودي نائبا له على الشام (١١٨) .

واشتهر عيسى بن نسطورس بسياسته الخازمة ، وكفاءته الادارية ، وقدرته على ضبط وتحصيل الخراج (١١٩) . ويؤي الانطاكي أن ابن نسطورس « رسم أيام نظره زسوما جائرة ، وأحدث مكوسا زائدة على ما جرى الرسم بأخذه » (١٢٠) بينما يقول Mann « وكان عيسى قاسي القلب مرايبا ، خص نفسه بكل الأعمال المربحة ، وزاد كثيرا من الضرائب » (١٢١) .

وقما زاد الطين بلة أن عيسى اتبع سياسة ادارية كانت على جانب كبير من الخطورة ، إذ تعصب لبنى ملته وغينهم في الإدارات والدواوين الحكومية ، وعزل الكتاب وجباة الضرائب من المسلمين (١٢٢) .

وفي الشام كانت فترة الأربع سنوات التي حكم فيها منشأ دمشق عصرا ذهبيا بالنسبة لليهود الشام (١٢٣) ، إذ فتحت أبواب المناصب العليا في دواوين الشام أمام اليهود ، وقدمهم على غيرهم ، وأبعد المسلمين العاملين بالدواوين من الاشتغال بها ، وأغلق باب

(١١٧) المقرئى : اتعاظ الحنفا ، ج ١ ، ص ٢٨٣ .

(١١٨) Lane-Poale : A History of Egypt in the Middle Ages, p. 119.

(١١٩) أبو شجاع : المصدر السابق ، ص ١٨٦ .

(١٢٠) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ٢٨٠ .

(١٢١) Mann : Op. cit., Vol. I, p. 19.

(١٢٢) توتون : أهل الذمة في الاسلام ، ترجمة د. حسن حبشي ، الطبعة

الثانية - القاهرة ١٩٦٧ ، ص ٢٣ .

- ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٣٣ .

(١٢٣) Mann : Op. cit., Vol. I, p. 19.

التوظيف والعمل أمامهم (١٢٤) .

ولقد تركت هذه السياسة المتحيزة آثارا سيئة سوف نوضحها فيما بعد .

فهد بن ابراهيم :

ويأتي أبو العلاء فهد بن ابراهيم النصراني - وهو من أبناء ريف مصر - كواحد من كبار موظفي الدولة الذين علا شأنهم كشخصية سياسية لها وزنها وتأثيرها في سياسة الدولة الفاطمية ابان الفترة التي تولى فيها أبو الفتوح برجوان منصب الوساطة سنة ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م (١٢٥) . اذ عول برجوان على كاتبه أبي العلاء فهد بن ابراهيم في النيابة عنه ولقبه بالرئيس ، فقام بتدبير أمور الدولة وأحكم سيطرته عليها (١٢٦) .

وأبدى فهد نشاطا كبيرا في خدمة برجوان ، فكان يجلس في الدملج الأول بقصر الخلافة في عهد الحاكم بأمر الله ينظر في الشكاوى والتظلمات للبت فيها (١٢٧) ، ثم يعرض على برجوان ما يحتاج الى العرض على الخليفة ، « فيخرج الأمر بما يكون العمل به » (١٢٨) .

-
- (١٢٤) ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الملوك والامم ، الطبعة الاولى .
مطبعة حيدر اباد ١٣٥٨ ، ١٣٥٩ هـ ، ج ٧ ، ص ١٩٠ .
- النويري : المصدر السابق ، ج ٤٩ ،
(١٢٥) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٥٠ .
(١٢٦) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ١٨١ .
(١٢٧) ابن خلدون : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٥٩ .
(١٢٨) المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢ .

وقد استقامت أمور الدولة بمصر والشام أثناء وساطة برجوان بفضل جهود كاتبه أبي العلاء فهد (١٢٩) . ولما ازداد نفوذ برجوان واستبد بمقاليد الأمور وأصبح خطرا على الخلافة ، قتله الحاكم فى السادس والعشرين من ربيع الآخر سنة ٣٩٠ هـ (١٣٠) .

وبعد قتل برجوان استدعى الحاكم بأمر الله أبا العلاء فهد ابن ابراهيم وأمنه ، وقال له : « أنت كاتبى ، وصاحبك عبدى ، وهو كان الواسطة بينى وبينك ، وجرت منه أشياء أنكرتها عليه ، فجازيته عليها بما استوجبه ، فكن أنت على رسمك فى كتابتك ، آمنا على نفسك ومالك (١٣١) . ثم عقد الحاكم بأمر الله اجتماعا لكبار رجال دولته وكتابه ومعهم فهد وقال لهم : « ان هذا فهدا ، كان أمس كاتب برجوان عبدى ، وهو اليوم وزيرى ، فاسمعوا له وأطيعوا ، ووفوه شروطه فى التقدم عليكم ، وتوفروا على مراعاة الأعمال ، وحراسة الأموال » ، فقبل فهد والحاضرون الأرض بين يدى الحاكم ، وأجابوا بالسمع والطاعة . ثم وجه الحاكم حديثه الى فهد قائلا له : « أنا حامد لك ، وراض عنك ، وهؤلاء الكتاب خدمى ، فاعرف حقوقهم ، وأجمل معاملتهم ، واحفظ حرمتهم ، وزد فى واجب من يستحق الزيادة بكفايته وأمانته ، وتقدم بأن يكتب الى سائر ولاة البلاد والأعمال بالسبب الواجب لقتل برجوان » (١٣٢) .

وعلى الرغم من أن قتل برجوان يعتبر بداية مرحلة جديدة فى

(١٢٩) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٥٤ .

(١٣٠) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٨٥ .

- المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٣ .

(١٣١) المقرئى : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفاء ، الجزء الثانى ، تحقيق

د. محمد حلمى أحمد ، القاهرة ١٩٧١ ، ص ٢٦ .

(١٣٢) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٥٦ .

خلافة الحاكم بأمر الله ، اذ بعد مقتله انتقلت اليه السلطة الفعلية في الدولة ، الا أن حديثه الذي وجهه الى كبار موظفي الدولة كان أمرا صريحا بالتزام الطاعة لفهد والتعاون معه في تنفيذ سياسته الجديدة ، كما أن خطابه الى فهد يوضح الخطوط العريضة للسياسة العامة التي يجب أن تسير عليها أجهزة الدولة في تلك المرحلة ، وحرصه على استمالة كبار رجال الدولة اليه ، وتكليفه فهد بشرح الأوضاع الداخلية في البلاد والسبب الذي استحق من أجله برجوان عقوبة الاعدام . وكان هذا التكليف بمثابة حملة اعلامية ضد رجل استقامت له الأمور في فترة توليه منصب الوساطة في الدولة ، اذ استمال المشاركة ، ورد من فصلهم ابن عمار من الكتاب الى وظائفهم وأبدى اهتماما خاصا بموظفي الدولة من الأقباط ، مما أدى الى استقرار العمل بالدواوين . كما لاقت سياسته الخارجية نجاحا كبيرا ، فقد عقد هدنة مع الروم سنة ٣٨٨ هـ / ٩٩٨ م لمدة عشر سنوات ، تبودلت على أثرها الهدايا بين الحاكم بأمر الله والامبراطور البيزنطي .

لكن الحاكم بأمر الله لم ينس أن ينصب مع فهد رجل الدولة البارز الحسين بن جوهر ، ولقبه بقائد القواد ، يتقاسم السلطة والنفوذ مع فهد حتى لا ينفرد بأمور الدولة وسياستها ، أو خشية ازدياد نفوذه فيصبح خطرا على الخلافة . فكان فهد وابن جوهر يجلسان بقصر الخلافة وينظران في الأمور ، ثم يدخلان وينهيان الحال الى الخليفة . غير أن فهد لقي حتفه في ثامن جمادى الآخر سنة ٣٩٣ هـ عندما أمر الحاكم بأمر الله بقتله (١٣٣) :

وتتضارب الروايات في أسباب مقتل فهد . فيرى مؤلف

(١٢٣) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٨٥ .

- المقرئ : الخط ج ٢ ، ص ١٣ ، ١٤ ، ٣٠ .

« سير البيعة المقدسة » أن الحاكم بأمر الله ضرب عنق فهد ، وحرق جسده لانه لم يجبه الى اعتناق الاسلام بعد أن وعده بالمنزلة السامية والمنصب الرفيع (١٣٤) . وبينما يرى ابن القلانسي أن الحاكم بأمر الله قتل فهد نتيجة مؤامرة أحكم تدبيرها ابن العداس (والى ديوان الخراج) بالاتفاق مع أبى طاهر النحوى (والى ديوان الحجاز) اللذان وشيا به عند الحاكم، وأشارا الى الثروة التى جمعها، وما اقتطعه لنفسه من اقطاعات عديدة . ووعده الرجلان الحاكم بأمر الله بالعمل بدلا منه ان تخلص منه ، على أن يقوم بتوفير مبلغ ستة آلاف دينار كان فهد يأخذها لنفسه (١٣٥) . هذا بينما يذكر المقرئى أن السبب فى مقتل فهد هو تعصبه للنصارى ، وتمكينه اياهم من السيطرة على دواوين الدولة وأعمالها ، بالدرجة التى أصبح فيها « آفة على المسلمين وعدة للنصارى » (١٣٦) .

ونرى الأخذ برواية المقرئى ، بجانب رواية ابن القلانسي ، خلافا لما ذهب اليه الرواية الكنسية . وحجتنا فى ذلك أن الحاكم بأمر الله عندما أسند منصب الوساطة الى فهد كان يعلم أنه على دين النصرانية ، وان الحاكم بأمر الله لم يدعه الى الاسلام أو يلزمه باعتناق الدين الاسلامى شريطة تقلده الوساطة ، كما هو واضح فى الخطاب الذى وجهه الى فهد أمام كبار رجال الدولة فى الاجتماع الذى سبق الإشارة اليه ، بل طالبه بحسن السياسة والتدبير ، وطالب الآخرين بالسمع والطاعة للرجل الذى أولاه ثقته . وإذا كان الحاكم بأمر الله قد تعرض باليسوء لمعاونى فهد ولأخيه ، فذلك لسيوء سياستهم (١٣٧) ، أما أولاد فهد ، فإنه أمر أن ترد أموال أبيهم اليهم،

(١٣٤) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٣ ، ورقة ٥٥ .

(١٣٥) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٥٩ .

(١٣٦) المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٠ .

(١٣٧) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٦١ .

وأن تعاد اليهم سروجهم المحلاة وأمروا بالركوب بها (١٣٨) ، ثم أحضرهم الى قصره وخلع عليهم ، وأعطاهم مرسوم أمان بخصايتهم وصيانة دورهم وممتلكاتهم مع عدم التعرض لهم (١٣٩) .

منصور بن عبدون :

هو واحد من كبار رجال أهل الذمة الذين تولوا أرقى وظائف الدولة . تولى ديوان الشام قبل توليه منصب الوساطة في مصر ، ووصف بأنه « كان رجلا نصرانيا خبيثا جلدًا » (١٤٠) . وقد اشتهر بمقدرته الادارية والمالية ، ولمع نجمه في دواوين الحكومة وأصبح مقربا من قصر الخلافة (١٤١) . وفي الحادى عشر من صفر سنة ٤٠٠ هـ ، عقد الحاكم بأمر الله مجلسا بدار الخلافة حضره كبار رجال الدولة وأصحاب الدواوين وقرر تعيين منصور بن عبدون النصراني في منصب الوساطة وقرئ سجله على الحاضرين (١٤٢) ثم منحه بعد فترة قصيرة من وساطته لقب « الكافى » (١٤٣) ، وكتب له سجلا بذلك وحمل على بغلتين تكريما له (١٤٤) . كما سمح له بالتوقيع عنه والنظر في أمور الدولة (١٤٥) فجد ابن عبدون في جمع أموال الدولة ومواردها مما جعل الحاكم بأمر الله يمتدحه بقوله :

-
- (١٣٨) المقرئى : اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ، ص ٤٤
 - (١٣٩) ابن القلانسى : المصدر السابق ، ص ٦١
 - (١٤٠) ——— : المصدر السابق ، نفس الصفحة
 - (١٤١) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ١٩٤
 - (١٤٢) النويرى : المصدر السابق ، ج ٢٦ ، ورقة ٥٥
 - المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٨٦
 - (١٤٣) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ١٦٩
 - (١٤٤) المقرئى : اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ، ص ٨١
 - (١٤٥) ——— : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٨٦

« ما خدمنى أحد ولا بلغ فى خدمته ما بلغه ابن عبدون ، ولقد جمع لى من الأموال ما هو خارج فى أموال الدواوين ثلثمائة ألف دينار (١٤٦) . وقد أنشأ ابن عبدون أثناء توليه الوساطة ديوانا سماه « ديوان المفرد » تودع فيه الأموال المصادرة لمن يغضب عليه الخليفة أو يقتله أو يقبض عليه من كبار رجال الدولة ، أو أية أملاك وأموال يرى الحاكم بأمر الله مصادرتها (١٤٧) .

غير أن الحاكم بأمر الله ما لبث أن عزل ابن عبدون فى رابع المحرم سنة ٤٠١ هـ / ثمان عشر أغسطس سنة ١٠١٠ م لسيئه أخلاقه وخبثه ، ولكيد أعدائه له بسبب ما كان بينه وبينهم من شحناء ، هذا بجانب نجاح الحسين بن جوهر فى تحريض الحاكم بأمر الله عليه ، بالدرجة التى جعلته لا يكتفى بعزله ، بل ويأمر باعتقاله ومراجعة أعماله وحساباته ، ثم اعدامه فى الشهر التالى ، ومصادرة أمواله (١٤٨) .

نوعة بن عيسى بن فسطوس :

بعد أن عزل الحاكم بأمر الله ابن عبدون ، عين أحمد بن محمد القشورى الكاتب فى منصب الوساطة . الا أنه فى اليوم الرابع عشر من المحرم من نفس السنة قرر عزله ، وعين مكانه الكاتب

(١٤٦) — : اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ، ص ٨٤ .

(١٤٧) المقرئى : اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ، ص ٨١ .

— البراوى : المرجع السابق ، ص ٣٥٢ .

(١٤٨) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ١٩٨ .

— ابن القلانسى : المصدر السابق ، ص ٦٢ .

— : اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ، ص ٨٤ ، ص ٨٥ .

النصراني زرعة بن عيسى بن نسطورس ، وأنعم عليه في سابع ربيع
الآخر من تلك السنة بلقب « الشافعي » (١٤٦) .

وظل زرعة في منصبه حتى وفاته في ثاني عشر ربيع الأول
سنة ٤٠٣ هـ . وكان قد استطاع بحسن إدارته ومهارته السياسية
أن يخوز على ثقة قصر الخلافة ، كما كانت علاقته وطيدة برجال
الجيش وكتاب الدولة (١٥٠) . فكان من القلائل الذين أفلتوا من
سيف الحاكم بأمر الله ، على الرغم من أن المقرئ يذكر أن الحاكم
بأمر الله تأسف لوفاة من غير قتل ، وقال : « ما أسفت على شيء »
قط ، أسفى على خلاص ابن نسطورس من سيفي ، وكنت أود أن
أضرب عنقه لأنه أفسد دولتي ، وخانني ، ونافق على » (١٥١) .

صاعده بن عيسى بن نسطورس :

يعتبر صاعده بن عيسى بن نسطورس ثالث فرد في هذه الأسرة
يلي الوساطة ، إذ سبق أن تولاهما أبوه عيسى ، ثم أخوه زرعة من
قبل . وقد تولي صاعده الوساطة في آخر شوال سنة ٤٠٩ هـ ، وظل
في منصبه حتى قتل في ربيع ذي الحجة من تلك السنة (١٥٢) .
وعندما أسندت إليه الوساطة لقب « بالأمير الظهير شرف الملك تاج
المعالي ذو اليمين » (١٥٣) .

(١٤٩) القلقشندي : المصدر السابق ، ص ٣ ، ص ٤٩٠ .

ب. المقرئ : تعاط الحنفا ، ج ٢ ، ص ٨٦ .

(١٥٠) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ٢٠٢ .

(١٥١) المقرئ : تعاط الحنفا ، ج ٢ ، ص ٩٣ .

(١٥٢) — : نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ١١٤ .

(١٥٣) المناوي : الوزارة والنزاهة في العصر الفاطمي ، القاهرة ١٩٧٠ .

أبو نصر (أبو منصور) صدقة بن يوسف الفلاحى :

تولى الوزارة فى عهد المستنصر بالله الفاطمى ، وكان يهوديا غير أنه اعتنق الاسلام وخلع عليه فى الحادى عشر من رمضان سنة ٤٣٦ هـ خلفا للوزير الحسين بن على الأنبارى . وقد ساعدته الأحداث الداخلية والظروف المحيطة بقصر الخلافة على أن يتبوأ هذا المنصب ، ذلك أنه فى أيام الحاكم بأمر الله كان يوجد اخوان من أصل يهودى أحدهما أبو نصر بن سهل التسترى وكان يحترف الصيرفة ، والثانى أبو سعيد (أبو سعد) إبراهيم وكان يشتغل بالتجارة ، وكانت أم المستنصر بالله تجارية سوداء ، اشتراها الخليفة الظاهر لأعزاز دين الله من أبى سعيد إبراهيم ، وأنجب منها ابنه المستنصر (١٥٤) ولما صارت الخلافة الى ولدها قدمت أبا سعيد ، وما لبث أن أصبح ناظرا لديوان أم الخليفة ومن المقربين الى المستنصر ، وعلى صلة وثيقة بأمه التى كانت ذا نفوذ عظيم فى أوائل حكم ابنها (١٥٥) .

وحدث أن تولى ابن الأنبارى الوزارة ، وساءت علاقته بأبى نصر وأخيه أبى سعيد التسترى الذى شكى الى أم الخليفة فحرضت ابنها المستنصر ضد ابن الأنبارى لعزله من الوزارة ، وتعيين أبى صدقة ابن يوسف الفلاحى مكانه (١٥٦) .

(١٥٤) ابن ميسر : المصدر السابق ، ج ٢ ص ١ .

— المقرئى : اتعاظ الخلفاء ، ج ٢ ، ص ١٩٠ - ١٩١ .

(١٥٥) ناصرى خسرو : سفرنامه د . يحيى الخشاب ، الطبعة الاولى ،

القاهرة ١٩٤٥ ، ص ٦٤ .

— ابن ميسر : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١ .

— المقرئى : اتعاظ الخلفاء ، ج ٢ ، ص ١٩٥ .

— على نعمان الخربوطلى : مصر الغربية الاسلامية ، ص ١٦٢ .

(١٥٦) المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٤٢٢ .

وما أن تولى الفلاحى الوزارة حتى ظهرت أطماع أبى سعيد التستري ونفوذه بصورة رهيبية ، إذ أشرف على الفلاحى الوزير ، ووقع تحت سيطرته بحيث لم يبق له معه أمر ولا نهى سوى الاسم وبعض التنفيذ (١٥٧) .

وبإيعاز من أبى سعيد التستري ، وبتحريض منه ، استطاع الفلاحى أن يكيد للأبصارى الوزير السابق ، ويطهمه بالاختلاسات المالية ، وينتقد سياسته السابقة ، حتى تمكن منه ، فقبض عليه وصودرت أمواله ، ثم قتل (١٥٨) .

غير أن الوزير صدقة بن يوسف الفلاحى استطاع أن يتخلص من أبى سعيد فحرض الجند الأكراد عليه ، فاتهموه بفساد السم لقائدهم ريجان ، وقتلوه ثم مثلوا بجثته ، وذلك فى الثالث من جمادى الأولى سنة ٤٣٩ هـ / السادس والعشرين من أكتوبر سنة ١٠٤٧ م ، وبهذا انفرد الفلاحى كلية بأمور الدولة . إلا أن المستنصر بالله لم يرض عن هذا التصرف ، فأمر بتعيين أبى نصر التستري - أخ أبى سعد - خزانة الخاصة ، وعين ولد أبى سعد فى أحد الدواوين (١٥٩) . كما أن أم المستنصر حقدت على الوزير الفلاحى وثار عليه ، لاعتقادها أنه هو الذى دبر مؤامرة قتل أبى سعد ، ولم تزل تدبر له الدسائس وتكيد له ، حتى قبض عليه ، واعتقل فى خزانة البهو ، وانتهى أمره بقتله فى الخامس من المحرم سنة ٤٤٠ هـ / العشرين من يونيو سنة ١٠٤٨ م (١٦٠) .

(١٥٧) ابن ميسر : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص

- السيوطى : حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ، القاهرة ١٢٢٧ هـ ،

ج ٢ ، ص ١١٦ .

(١٥٨) المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٥٤ ، ٤٢٢

(١٥٩) ابن ميسر : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢ .

(١٦٠) ابن القلائى : المصدر السابق ، ص ٨٤٠ .

وكان طبيعيا إبان الفترة التي ولى فيها الفلاحى الوزارة أن يقاسمه النفوذ أبو سعد التستري فى الأيام الأولى من الوزارة - وهما اليهوديان الأصل - وأن ينحاز الرجلان الى بنى جنسهما ، ويعملان على تعيين اليهود فى وظائف الدولة وإداراتها واضطهاد المسلمين (١٦١) .

وقد أعاد ذلك الى أذهان المعاصرين الصورة التى كانت عليها البلاد أيام وساطة عيسى بن نسطورس فى مصر ، ونائبه منشا بن القزاز فى الشام .

أبو على الحسن بن أبى سعد إبراهيم بن سهل التستري :

تولى الوزارة فى الرابع من ذى الحجة سنة ٤٥٦ هـ . وكان الرجل يهوديا ، ثم اعتنق الاسلام وحفظ القرآن (١٦٢) ، وأسند إليه الإشراف على بيت المال قبل أن يلى الوزارة . وعندما تقلد منصب الوزارة لقب « بعلم الكفاة » وقد ظل فى منصبه حتى منتصف المحرم سنة ٤٥٧ هـ (١٦٣) .

أبو سعد منصور بن أبى اليمن بن سورس بن مكرواه بن ذنبور :

كان أبو سعد منصور واحدا من كبار رجال الدولة الذين تقلدوا أرفع مناصب الدولة . وقد كان أبوه ناظر الزيف وهو على

(١٦١) حسين إبراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية فى المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٨ م ، ص ١٧٠ .
(١٦٢) ابن ميسرة : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٤ .
(١٦٣) السيوطى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١١٧ .
- مشرفة : المرجع السابق ، ص ١٤٤ .

دين النصرانية ، وظل ولده هذا على دينه ، فلما تقلد الوزارة اعتنق الاسلام ، وخلع عليه (١٦٤) ، غير أن النصارى ينكرون اسلامه (١٦٥) . وقد تولى الوزارة أياما قليلة ، ولقب بلقب « الأجل الأوحى المكين السيد الأفضل الأمين شرف لكنة عميد الخلافة محب أمير المؤمنين » . غير أن الجند ما لبثوا أن طالبوه برواتبهم فوعدهم وطمأنهم ، ثم ما لبث أن هرب سنة ٤٥٨ هـ / ١٠٦٦ م تاركا منصب الوزارة بعد أن عجز عن تدبير الأموال اللازمة لرواتب الجند (١٦٦) .

(١٦٤) المناوى : المرجع السابق ، ص ٢٦٦ .

(١٦٥) ابن ميسر ، ج ٢ ، ص ٢٣ .

(١٦٦) المناوى : المرجع السابق ، ص ٢٦٦ ، ٢٦٧ .

مشرقة : المرجع السابق ، ص ١٤٢ .

أهل الذمة والدواوين الحكومية

كانت الدولة فى عهد الفاطميين تدار بواسطة الدواوين أو ما يسمى بفروع الإدارة . وإذا كنا قد رأينا فيما سبق أن أهل الذمة قد تولوا أرفع مناصب الدولة مثل الوزارة والوساطة . فإن الخلفاء الفاطميين جعلوا الدواوين تحت إشرافهم المباشر . إلا أنهم أبقوها فى يد الموظفين المصريين وبخاصة أهل الذمة الذين تشير المصادر التاريخية إلى استخدامهم فى مختلف الدواوين ، وفى مناصب الدولة العليا ، وإلى زيادة عددهم عن ذى قبل (١٦٧) .

فقد وجد فى الدمين من تولوا رئاسة الدواوين وبخاصة ديوان الإنشاء والدواوين المالية ، كما تولوا ديوان الشام ، وكان الفاطميون يعلقون أهمية كبرى على ديوان الإنشاء الذى كان يعتبر من أهم دواوين الإدارة المركزية والذى كانت مهمته تنفيذ أوامر السلطة العليا ، وكانت رتبة متولييه تلى مباشرة رتبة الوزير (١٦٨) .

(١٦٧) ماجد : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر ، الاسكندرية ١٩٦٨ م ، من ٢٩٢ .
(١٦٨) ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر ، الجزء الثانى ، القاهرة ١٩٥٥ ، من ١٠٤ .

ولذلك كانوا لا يختارون لهذا المنصب الا بلغاء الكتاب سواء أكان مسلما أم ذميا ، فلم يكن للدين دخل فيمن يتولى هذا المنصب (١٦٩) .

فقد كتب للعزیز بالله وزيره ابن كلس ، وكذلك أبو المنصور ابن سوردين النصراني (ت صفر ٤٠٠ هـ) وهو من الذين كتبوا أيضا للحاكم بأمر الله (١٧٠) . وكان ابن سوردين محل ثقته ، وحامل سره ، ومؤتمن سجلاته السرية واليه ينسب إنشاء السجل الشهير الذي أصدره الحاكم بأمر الله بهدم كنيسة القدس (١٧١) . كما تولى هذا المنصب فهد بن ابراهيم النصراني ، في عهد الحاكم بأمر الله قبل توليه منصب الوساطة (١٧٢) . كما كان ابن أبي اليم اليهودي أحد كتاب الإنشاء في عهده (١٧٣) .

وعلى الرغم من أن معظم دواوين الحكومة قد سيطر عليها أهل الذمة وبخاصة النصارى (١٧٤) ، إلا أن المصادر التاريخية لم تمدنا إلا بأسماء قليلة للشخصيات التي تولت رئاسة بعض الدواوين :

ومن هذه الأسماء التي وصلت إلينا ، ابن كلس الذي أشرف على ديوان الخراج سنة ٣٦٣ هـ / ٩٧٣ م قبيل توليته الوزارة (١٧٥) ، وعيسى بن نسطورسي الذي أسند إليه العزيز بالله الفاطمي إدارة الدواوين بعد وفاة ابن كلس (١٧٦) .

(١٦٩) مشرفة : المرجع السابق ، ص ١٥٣ .

(١٧٠) السيوطي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٢١ .

(١٧١) المقرئ : اتعاظ الجفنا ، ج ٢ ، ص ٧٢ ، ص ٨١ .

(١٧٢) ابن القلائسي : المصدر السابق ، ص ٥٦ .

(١٧٣) المقرئ : الخطط ، ج ٢ ، ص ٧٩ .

(١٧٤) الانبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٣ ، ورقة ٧٥ .

(١٧٥) المقرئ : الخطط ، ج ٢ ، ص ٥ .

(١٧٦) ابن خلدون : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٥٥ .

أما أبو غالب - أخ فهد بن إبراهيم - فقد تولى ديوان النفقات في عهد الحاكم بأمر الله . « وكان شريفا مبعضا » (١٧٧) . كما تولى أبو علي الحسن بن أبي سعد التستري بيت المال قبل توليه الوزارة (١٧٨) . أما الشيخ أبو زكريا يحيى ابن مقار النصراني فقد تولى ديوان النفقات في عهد المستنصر (١٧٩)

وفضلا عن ذلك فقد سيطر أهل الذمة على وظائف الإدارة المحلية (١٨٠) .

وقد نشأ في العصر الفاطمي الأول بعض الدواوين ذات الطابع الخاص ، كديوان الخاص لليعز الذي تولىه ابن كلس والذي كان مشرفا على قصور الخليفة المعز وبلاطه . وديوان العزيزية في خلافة العزيز بالله (١٨١) .

ويعتبر أبو سعيد التستري متولى ديوان أم الخليفة المستنصر من رؤساء الدواوين الخاصة الذين طغى نفوذهم على نفوذ الوزراء ، وقد ارتفع شأنه بعد وفاة الخليفة الظاهر سنة ٤٢٧ هـ / ١٠٣٥ م ، وأصبح مقربا من الخليفة المستنصر ، ومؤثرا على أحداث الدولة كما سبق أن ذكرنا ، وبعد مقتل أبي سعيد في سنة ٤٣٩ هـ / ١٠٤٨ م ، قلده المستنصر أخاه أبو نصر التستري خزانة الخاص والحق ولدى أبي سعيد في أحد الدواوين (١٨٢) .

(١٧٧) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٥٩ .

(١٧٨) مشرفة : المرجع السابق ، ص ٢٦٢ .

- المناوي : المرجع السابق ، ص ٢٦٢ .

(١٧٩) الانبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٣ ، ورقة ٧٣ .

(١٨٠) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ٢٠٣ .

- الانبا ميخائيل : المصدر السابق ، ورقة ٧٥ .

(١٨١) المقرئ : الخطط ، ج ٢ ، ص ٥٥ .

(١٨٢) ابن خيثر : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٠ .

وعلى الرغم من اختفاء أبي سعيد التستري من المسرح السياسي بعد قتله على يد الجند الأتراك سنة ٤٣٩ هـ / ١٠٤٨ م فإن نفوذ أخيه أبي نصر هارون التستري كان له أثره في قصر الخلافة ، وظهر ذلك بوضوح عندما تدخل في النزاع القائم بين الفاطميين وثمان بن صالح بن مرداس حول حلب ، والتمس أبو نصر العفو لثمان ، مما أدى الى غضب الوزير الحسين بن محمد ، الذي اعتبر هذا تدخلا في شئون اختصاصه وسياسته ، فأغرى به الخليفة المستنصر وأقنعه أن أبسا نصر هارون يسعى فيما يضر الدولة ، فقبض المستنصر على أبي نصر سنة ٤٤١ هـ / ١٠٤٩ م وصادر أمواله وعوقب حتى مات (١٨٣) .

ولم يقتصر الأمر عند تعيين أهل الذمة لرئاسة الدواوين بالادارة المركزية ، بل عينوا ولاية بالأقاليم . ففي عهد المعز لدين الله نجد قزمان بن منا النصراني على أعمال فلسطين ، وقد بلغت ثروة قزمان هذا على حد تقدير مؤلف « سير البيعة المقدسة » تسعين ألف دينار (١٨٤) مما يجعلنا نفترض أنه جمع تلك الثروة الطائلة بطرق غير مشروعة .

وقد أسند ديوان الشام الى عيسى بن نسطورس قبيل توليه الوساطة كما تولى هذا الديوان أكثر من واحد من أهل الذمة ، فتذكر المصادر التاريخية أن منشأ ابن ابراهيم القزاز اليهودي كان نائبا على الشام في عهد العزيز بالله الفاطمي ابن وساطة عيسى بن نسطورس وأنه سلك اسلوبا لا يتفق وسياسة

(١٨٣) ابن ميسر : المصدر السابق ، ج ٢ ، ٢ .

— القرينى : اتعاط الجبل ، ج ٢ ، ص ٢٠٩ .

(١٨٤) الانبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ورقة ٤٤ .

الخليفة العزيز بالله نحو رعاياه مما أدى الى عزله والقبض عليه ومصادرته (١٨٥) .

أما منصور بن عبدون النصراني فقد تولى ديوان الشام قبل توليه الوساطة في خلافة الحاكم بأمر الله (١٨٦) . كما تولى هذا الديوان يحيى بن سلامة النصراني في خلافة الحاكم أيضا (١٨٧) . وكان يوسف بن علي الفلاحى اليهودى من كبار الكتاب البلغاء الذين تولوا ديوان دمشق (١٨٨) ، وصحب ولده صدقة بن يوسف بن علي الفلاحى بجيش الفاطميين ناظرا في الأموال ونفقة الجيش تحت قيادة منجب الدولة سنة ٤١٧ هـ / ١٠٢٦ م أثناء سيره لتأديب أمراء العرب من بنى الجراح والمرداسيين المناوئين للحكم الفاطمى في بلاد الشام (١٨٩) .

وكانت النتيجة المباشرة لتولى أهل الذمة منصبى الوزارة والوساطة ورئاستهم لمعظم الدواوين ، وانحياز هؤلاء الوزراء والوسطاء ورؤساء الدواوين من أهل الذمة لبنى ملتهم ، أن اكتظت الدواوين الحكومية بالكتاب وصغار الموظفين الذميين الذين سيطروا على ادارات الدولة بصورة ملفتة للنظر . ويذكر الانطاكى أنه فى عهد الحاكم بأمر الله « كان سائر كتابه وأصحاب خدمته وأطباء مملكته نصارى الا نفر يسير من الكتاب » (١٩٠) .

(١٨٥) أبو شجاع : المصدر السابق ، ص ١٨٦ .

(١٨٦) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ١٩٤ ، ١٩٦ .

— أبو هلال الأرمنى : تاريخ الشيخ أبو هلال الأرمنى ، طبعة أكسفورد سنة

١٨٩٤ م ، ص ٥١ .

(١٨٧) ابن القلانئ : المصدر السابق ، ص ٦٩ .

(١٨٨) ابن مسر : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢ .

المقريزى : اتعاظ الخلفاء ، ج ٢ ، ص ١٦٩ .

(١٨٩) ابن الخلدون : المصدر السابق ، ص ٧٣ .

(١٩٠) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ٢٠٢ .

ومع ذلك فإن بعض الكتاب المحدثين يذكر أن الحاكم بأمر الله . قبل أن يترك عرشه قضى على نفوذ النصارى في مصر .
وبنذ ذلك الحين أصبح الأقباط مهملين في الدولة (١٩١) .

والحقيقة أن صاحب هذا الرأى قد جانبه الصواب فيما ذهب إليه ، فقد استمر موظفو الدولة من أهل الذمة في ممارسة وظائفهم الإدارية والمالية في عهد الحاكم بأمر الله ومن جاء بعده . مع تشديد الرقابة عليهم وتوقيع العقوبات على المخالفين لأوامره ، وتحذيرهم من الرشوة والبراطيل (١٩٢) ، وهذا لا يعنى القضاء على نفوذهم أو إهمالهم . ولعل أبلغ رد مقدمه لدحض هذا الادعاء ، والتأكيد على استمرار أهل الذمة في وظائفهم وسيطرتهم على الإدارة ، ما كتبه مؤلف « سير البيعة المقدسة » في سياق حديثه عن عصر المستنصر بالله عندما يذكر أن « جميع مقدمات المملكة والناظرين في دواوينها وتدير أمورها كلهم نصارى ، وهم الملاك النافذ أمرهم » (١٩٣)

وإذا كان الأقباط - بوجه خاص - قد احتكروا الوظائف المالية في الدواوين وبخاصة ديوان الخراج ، لمعرفتهم بعلم الخراج والمأمهم بالأعمال المالية (١٩٤) فإن اليهود قد اشتهروا بأعمال الصيرفة واستغلوا ذلك لجمع الأموال لأنفسهم بطرق غير مشروعة ، مستندين الى الحماية التي توفرت لهم من قبل رؤسائهم الذين كانوا يتولون الوظائف الهامة بالدواوين ، فعلى سبيل المثال كانت الفترة

(١٩١) جاك ناچن : المرجع السابق ، ص ١٣٥

(١٩٢) المقرئى : انعاظ الخنقا ، ج ٢ ، ص ٥١

(١٩٣) الانبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ورقة ٧٥ .

(١٩٤) المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٨٥ ، ٢٣٦ ، ٤٤١ .

التي تولى فيها منشأ ابن مقراز نيابة الشام عصرا ذهبيا بالنسبة
ليهود دمشق (١٩٥) *

ولم يكن سلوك معظم هؤلاء الكتاب الذين عملوا بالدواوين
المالية سلوكا حسنا ، وليس من شك أن عددا غير قليل منهم
لم يمارسوا أعمالهم بأمانة ، فتعرضوا للرقابة الصارمة من قبل
الخلفاء أمثال العزيز بالله والحاكم بأمر الله ، بل ان الحاكم
بأمر الله أصدر سجلا بتحذير موظفيه من أخذ الرشوة ، وطالبهم
بتقديم كشف حساب لما في حوزتهم من أموال وممتلكات وصادر
أموال كل من يثبت ادانته وعدم أمانته ، كما طالب الخليفة
العزيز بالله - من قبل - عيسى بن نسطورس بأن يستعين بالموظفين
المسلمين في ادارة الدواوين *

ولم يتخذ الخلفاء الفاطميون تلك الاجراءات الا حماية
للعزية وتوفير أكبر قدر من الخدمة لها دون تفرقة بين ذمي ومسلم *

Mann : Op. Cit., Vol. 1, p. 20.

الأطباء من أهل الذمة

وإذا كان الكثير من اليهود والنصارى قد اشتغلوا في دواوين الدولة الفاطمية فإن الخلفاء الفاطميين استخدموا أطباء من أهل الذمة في قصورهم . ولا جدال في أن وظائف الأطباء كانت من أعظم الوظائف وأعلها في ذلك العصر . فكان للخليفة الفاطمي طبيب يعرف بطبيب الخاص ، يجلس على باب دار الخليفة كل يوم ويجلس على الدكك التي بالقاعة المعروفة بقاعة الذهب بالقصر دونه أربعة أطباء أو ثلاثة لمعالجة المرضى من الأقارب والخواص ، ويكتبون لهم تذكرة بما يلزمهم من أدوية الصيدليانة الملحقة بقصر الخلافة (١٩٦) .

وكان لهؤلاء الأطباء المنزلة السامية ، والمكانة الرفيعة في قصور الخلفاء ويلقون من مظاهر الاحترام والتكريم قدرا كبيرا (١٩٧) ، بجانب ما كانوا يتقاضونه من مرتبات عالية مجزية (١٩٨) .

(١٩٦) القلقشندي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٩٢ .

(١٩٧) ابن العبري : المصدر السابق . ص ٢١٦ .

(١٩٨) القلقشندي : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٤٩٢ .

واشتهر فى العصر الفاطمى الأول موسى بن العيزار (العازار) الاسرائيلى الطبيب العالم الذى خدم الخليفة المعز لدين الله عند قدومه من المغرب ، وكان موضع تقدير المعز وثقته (١٩٩) . كما التحق بخدمته ابنه اسحق بن موسى الطبيب ، وبعد أن وافاه أجله فى صفر سنة ٣٦٣ هـ ، عين المعز مكانه أخاه اسماعيل والابن يعقوب بن اسحق ، وكان ذلك فى حياة أبيهم وجدهم موسى بن العازار . وقد تفانى أفراد هذه الأسرة فى خدمة المعز ، فألف موسى بن العازار مؤلفات طبية على جانب كبير من الأهمية ، منها « الكتاب المعزى فى الطب » ألفه للخليفة المعز ، وكتاب « الأقرباديين » و « مقالة فى السعال » ، كما ركب الكثير من الأدوية (٢٠٠) .

ومن الذين عملوا فى خدمة العزيز بالله الطبيب أبو الحسن سهلان بن عثمان ابن كيسان . وكان من النصارى الملكانية من أهل مصر الذين ارتفع شأنهم أيام العزيز ولم يزل له مكانته حتى وفاته فى عام ٣٦٨ هـ / ٩٧٨ م . وكانت جنازته مهيبة ضخمة اذ شيعه كبار الدولة ورؤساؤها تكريما له (٢٠١) .

أما يوسف النصرانى الطبيب الذى كان عارفا بصناعة الطب ، ومن العلماء البارزين فى هذا الميدان ، فقد عينه الخليفة العزيز بالله بطريركا على بيت المقدس فى السنة الخامسة من خلافته (٢٠٢) .

(١٩٩) القفطى : المصدر السابق ، ص ٣٢٠ .

(٢٠٠) ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، ص ٥٤٥ .

(٢٠١) ——— : نفس المصدر ، ص ٥٤٩ .

(٢٠٢) ——— : نفس المصدر ، ص ٥٤٥ .

وكان أبو الفتح منصور بن سهلان بن مقشر النصراني من الأطباء المشهورين والعلماء المرموقين الذين تمتعوا بمكانة رفيعة في دولة الفاطميين ، ومن المقربين الى قصر الخلافة والبلاط الفاطمي وبخاصة في أيام العزيز بالله ، اذ كان الخليفة يستطبه ويعمـل بمشورته ويحترمه . وفي رسالة العزيز بالله الى ابن مقشر التي سبق الاشارة اليها - ما يلقي الضوء بوضوح على مكانة الأطباء من أهل الذمة في قصور الخلافة (٢٠٣) .

وبلغ ابن مقشر في عهد الحاكم بأمر الله أعلا المنازل وأسنائها . وكان من خواصه ومن المقربين اليه ، فكان عندما ينصرف مجلس الحاكم بأمر الله كان ابن مقشر الطبيب يلازمه ساعات طويلة (٢٠٤) . وقد أجزل الحاكم بأمر الله له العطايا وكافاه بعشرة آلاف دينار عندما نجح ذات مرة في علاجه من مرض ألم به (٢٠٥) .

ولما توفي ابن مقشر استطب الحاكم بأمر الله بعده أبا يعقوب اسحق ابن ابراهيم بن نسطاس النصراني . وخلع عليه في ربيع الأول سنة ٣٩٤ هـ ، وحمله على بغلتين ومعه ثياب كثيرة وأعطاه دارا بالقاهرة ، فرشت بأحسن الأثاث (٢٠٦) .

وأصبح ابن نسطاس من أطباء الخاص المقربين الى الحاكم بأمر الله ، واستطاع أن يقنعه بشرب النبيذ لما فيه من فوائد ، فاستدعى الحاكم المنخين وأصحاب الملاهي الى مجلسه ، وشرب على

(٢٠٣) انظر قبل ، ص ١٩ .

(٢٠٤) القرizzi : اتعاط ، ج ٢ ، ص ٣١ .

(٢٠٥) الانتلاكي : المصدر السابق ، ص ١٨٦ .

- ابن ابن السرور البكري : المصدر السابق ، ورقة ١٤٨ .

(٢٠٦) القرizzi : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٨ .

غنائهم ، وخلع عليهم ، وأحسن لهم ، ولكن بعد وفاة ابن نسطاس في سنة ٣٩٧ هـ / ١٠٠٦ م امتنع الحاكم بأمر الله عن كل هذا (٢٠٧) . ويذكر المؤرخون أن ابن نسطاس الطبيب ، كانت علاقته حسنة بكبار رجال الدولة الفاطمية ، وأنه حضر مجالسهم ، وزارهم في قصورهم ، وأكل على موائدهم ، ونادهم . غير أنه لقي مصرعه غرقاً في بركة ماء فاقد الوعي لكثرة ما شرب من الخمر ، وخاف خلانه ومن كانوا معه - أمثال الحسين بن جوهر وأبو الحسن الرسي ، والمسيحي ، أن يخبروا الحاكم بأمر الله ، لمعرفةهم بمنزلته عنده . وقد شق على الحاكم بأمر الله خبر وفاته ، وأظهر الحزن والأسى لمصرع أنبغ أطباء قصر الخلافة (٢٠٨) . وعندما التقطت جثته من الماء ، حملت الى الكنيسة في قابوت ، ثم شيعت جنازته في شوارع القاهرة ، وحول جثمانه سائر رجال الدولة في موكب جنازى رائع على أضواء الشموع وبخور المداخن ، ثم أعيد الى داره فدفن بها (٢٠٩) .

وكان لابن نسطاس يد طويلة في الموسيقى ، وانفرد بخدمة الحاكم بأمر الله في الطب فأثرى ، وترك ثروة طائلة تزيد على عشرين ألف دينار عينا ، سوى الثياب وغيرها من الممتلكات (٢١٠) .

وبوفاة ابن نسطاس جعل الحاكم بأمر الله الطبيب صقر اليهودى من أطباء الخاص عوضاً عنه وخلع عليه في سنة ٣٩٨ هـ / ١٠٠٧ م ، وأمر بحمله على بغلة تكريماً له ، وأهداه ثلاث بغلات

(٢٠٧) تاريخ الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٩٢ .

- ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص ٥٤٤ .

(٢٠٨) ابن حجر العسقلاني : المصدر السابق ، ص ٣٦٢ ، ٣٦٣ .

(٢٠٩) المقرئى : اتعاظ ، ج ٢ ، ص ٧٠ .

(٢١٠) — : نفس المصدر ونفس الصفحة .

بسرّج ولجم محلاه ، ومنحه أفخم الثياب ، وأعطاه دارا لسكناه ،
وزوده بكل ما يحتاج اليه ، وبلغت جملة هدايا الحاكم بأمر الله
اليه عشرة آلاف دينار (٢١١) .

أما الطبيب الذي ذكرته كتب التراجم في طبقات الأطباء ،
ولم تعطنا اسمه الحقيقي ، فهو الطبيب اليهودي المسمى
« الحقير النافع » الذي تمكن من تركيب دواء عالج به « جرح مزمن »
كان في رجل الحاكم بأمر الله ، وكان أطباء الخاص بما فيهم
ابن مقشر وغيره قد عجزوا عن علاجه ، فلما تماثل الحاكم بأمر الله
للشفاء ، أعطاه ألف دينار مكافأة له ، وخلع عليه ، ولقبه
« بالحقير النافع » وجعله من أطباء الخاص (٢١٢) .

(٢١١) — : نفس المصدر ، ص ٧٣ .

(٢١٢) القفطى : المصدر السابق ، ص ١٧٨ .

— ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، ص ٥٤٩ .

موقف المسلمين من سياسة الموظفين الذميين

وجد المسلمون أنفسهم في موقف لا يحسدون عليه ، فمعظم وظائف الادارة العليا في الدولة كالوزارة والوساطة ورئاسة الدواوين وولاية الأقاليم وأطباء الخاص في يد أهل الذمة ، الذين تعصبوا لبنى ملتهم من اليهود والنصارى ، وعينوهم في كثير من فروع الادارة ، ومنعوا المسلمين أصحاب الأغلبية العظمى في البلاد من تولى تلك المناصب . وقد ترتب على ازدياد نفوذ الموظفين الذميين واغراق الدواوين بهم ، وبخاصة في خلافة العزيز بالله ، أن تولد شعور بالكراهية بينهم وبين الموظفين المسلمين ، وترك ذلك صدى في نفوس الرعية ، مما حدا بالشاعر الحسن بن بشر الدمشقي أحد شعراء مصر ابان خلافة العزيز بالله أن يصور هذه الظاهرة بأسلوب ساخر ، فقال :

تنصر فالتنصر دين حق عليه زماننا هذا يدل
وقل بثلاثة عزوا وجلوا وعطل ما سواهم فهو عطل

فيعقوب الوزير أب وهذا العزيز ابن وروح القدس فضل (٢١٣)

وفي الفترة التي تقلد فيها عيسى بن نسطورس ، ومنشأ ابن ابراهيم ادارة الدواوين في مصر والشام ، أصبح أهل هاتين الملتين يحكمان الدولة (٢١٤) . ولحق بالرعية من جراء تنصير الدواوين في مصر وتهويدها في الشام الضرر البالغ ، مما دفع المسلمين الى التذمر والاحتجاج ازاء سياسة هذين الرجلين اللذين أساءوا الى الرعية (٢١٥) . ولعل فيما أورده الانطاكي عن عيسى بن نسطورس من أنه « قد رسم أيام نظره رسوما جائرة وأحدث مكوسا زائدة على ما جرى الرسم بأخذه » (٢١٦) ، ما يوضح النتائج السيئة التي عانت منها الرعية بسبب ازدياد نفوذ الرؤساء النصارى وسيطرتهم على ادارة الدولة في عهد الخليفة العزيز بالله .

بل تفاقم الخطر والأذى الذي حاق بالمسلمين في مصر والشام ، وذلك لأن معظم السلطة والنفوذ كانت في أيدي أبناء هاتين الطائفتين الذين جاهروا بروح العداء ازاء المسلمين (٢١٧) .

ويروى لنا النويري أن بعض رؤساء المصريين كتب ورقة يعاتب فيها عيسى على قبح فعله مع المسلمين ، وبألف فيها ، فأجابه عيسى عنها بقوله : « ان شريعتنا متقدمة ، والدولة كانت لنا ، ثم صارت

(٢١٣) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، الجزء السابع ، القاهرة ١٣٥٣ هـ ، ص ١٧٦ .

(٢١٤) Mann : Op. Cit., Vol. 1, p. 19.

(٢١٥) العيني : المصدر السابق ، ج ١٩ ، ورقة ٤٦٦ .

(٢١٦) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٨٠ .

(٢١٧) ابن اياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، بولاق ١٣١١ هـ ، الجزء الاول، ص ٤٨ .

اليكم ، فجرتم علينا بالجزية والذلة ، فمتى كان منكم اليينا احسان
حتى تطالبونا بمثله ، ان ما نعمناكم قاتلتمونا ، وان سألناكم
أهنتمونا ، فاذا وجدنا لكم فرصة فماذا تتوقعون أن نصنع بكم .
ثم تمثل في آخرها ببيتين :

بنت كرم غصبوها أمها - ثم داسوها هوانا بالقدم
ثم عادوا وأحكموها فيهم وأناهيك بخصم قد حكم (٢١٨)

ورغم أن النويرى قد انفرد بذكر هذه الرواية ، فإن معالم
السياسة التى سار عليها ابن نسطورس فى مصر وابن القزاز فى
الشام تؤكد روح التعصب السائدة بين بعض كبار الموظفين من
اليهود والنصارى فى تلك الفترة ، الذين عملوا على التمييز بين
أبناء الأمة الواحدة . وتفتيت الوحدة الوطنية بين أبناء الشعب
الواحد ، الأمر الذى دفع المسلمين الى التذمر والاحتجاج .

وتنقل لنا المصادر التاريخية رواية خلاصتها أن امرأة
اعترضت - ذات مرة - طريق العزيز بالله ودفعت الى مرافقيه
برقعة ، واختفت بين الناس . فأخذ العزيز بالله الرقعة ونظر فيها
فاذا هى ظلامه جاء فيها : « يا أمير المؤمنين : بالذى أعز النصارى
بابن نسطورس ، وأعز اليهود بمنشا بن ابراهيم ، وأذل المسلمين
بسك ، ألا نظرت فى أمرى وكشفت ظلامتى » (٢١٩) ولما طلب
العزيز بالله المرأة لم يجدها ، ولما رجع الى قصره استدعى فاضى
قضاته أبا عبد الله محمد بن النعمان ، وكان من خاصته ومن
المقربين اليه ، فأعطاه ظلامه المرأة ، وطلب منه ابداء الرأى . فقال

(٢١٨) النويرى : المصدر السابق ، ج ٢٦ ، ورقة ٥٠ .

(٢١٩) النويرى : المصدر السابق ، ج ٢٦ ، ورقة ٤٩ .

ابن النعمان : « مولانا أعرف بوجه الرأى والتدبير » ، وتحجرج
أن يذكر له ما آلت اليه ادارة البلاد من سوء بالغ من جانب كبار
الموظفين من أهل الذمة . فنظر اليه العزيز بالله وقال : « صدق
كاتبها ، ونبهنا الى ما كنا على غلط فيه وغفلة عنه » (٢٢٠) ، ثم أصدر
أوامره بالقبض على ابن نسطورس والكتاب النصارى ، كما آلتى
القبض على منشأ بن ابراهيم وجباة الضرائب اليهود فى الشام ،
وأمر باسناد وظائف الدولة وادارة أجهزتها الى الكتاب المسلمين ،
والا يعين أحد من أهل الذمة فى الدواوين (٢٢١) .

وتمضى بعض المصادر التاريخية فى سرد وقائع هذه الرواية ،
فتذكر أن ست الملك بنت الخليفة العزيز بالله تدخلت لدى أبيها ،
وعرضت عليه التماسا تقدم به عيسى بن نسطورس يعتذر فيه
عما بدر منه ، فأعاده الخليفة الى منصبه بعد أن دفع غرامة قدرها
ثلاثمائة ألف دينار الى خزانة الدولة وبعد أن شرط عليه استخدام
الموظفين المسلمين فى دواوين الدولة وأعمالها وألا يعين نصرانيا
ولا يهوديا بهذه الدواوين (٢٢٢) .

وتكاد تجمع المصادر الاسلامية (٢٢٣) على ذكر هذه الرواية
الخاصة بعيسى بن نسطورس بصورة أو بأخرى ، بينما أغفلت
المصادر النصرانية ذكرها ، وتفسير ذلك واضح لا يحتاج الى دليل .

(٢٢٠) ابن ظافر : المصدر السابق ، ورقة ٥٥ .

(٢٢١) أبو شجاع : المصدر السابق ، ص ١٨٦ .

- ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٣٣ .

(٢٢٢) سبط بن الجوزي : المصدر السابق ، ج ١١ ، ورقة ١٥٤ .

(٢٢٣) أبو شجاع : المصدر السابق ، ص ١٨٦ .

- ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٣٣ .

- ابن ظافر : المصدر السابق ، ورقة ٥٥ .

- النويري : المصدر السابق ، ج ٣٦ ، ورقة ٤٩ .

وإذا كان الحاكم بأمر الله قد قبض على فهد بن إبراهيم النصراني وقتله في جمادى الثاني سنة ٣٩٣ هـ ، فإن ذلك يرجع إلى أن أبا طاهر النحوى الكاتب استطاع أن يبلغه شكوى الرعية من تضافر النصارى وغلبتهم على الدولة ، وتعصيتهم وأن فهدا هو الذى يقوى شوكتهم ، ويسند اليهم أمر الأموال والدواوين ، وأنه « آفة على المسلمين وعدة النصارى » (٢٢٤) .

وفضلا عن ذلك فإن أبا تغلب - أخ فهد - متولى النفقات كان شريرا مكروها من الرعية لسوء سياسته ، مما أدى إلى مقتله هو الآخر بعد مقتل أخيه فهد بمدة قصيرة (٢٢٥) .

أما أبو سعيد التستري اليهودى (ت ٤٣٩ هـ / ١٠٤٧ م) الذى كان مدبر أمور الدولة فى الأيام الأولى بوزارة الفلاحى فى خلافة المستنصر بالله فقد استغل نفوذه وصلته بقصر الخلافة ، والحق بمناصب الدولة الكثير من اليهود ، وولاهم الوظائف الكبرى . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل نال المسلمون كثيرا من الظلم والأذى على يديه ، بحيث أنهم كانوا يحلفون « بحق النعمة على بنى اسرائيل » ، مما دفع الشاعر المعاصر الرضى بن البواب أن قال :

يهود هذا الزمان قد بلغوا غاية آمالهم وقد ملكوا
العز فيهم والمال عندهم ومنهم المستشار والملك
يا أهل مصر انى نصحت لكم تهودوا قد تهود الفلك (٢٢٦)

(٢٢٤) المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٠ .

(٢٢٥) ابن القلانسى : المصدر السابق ، ص ٦٠ .

(٢٢٦) ابن ميسر : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢ .

- المقرئى : اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ، ص ١٩٧ .

- السيوطى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١١٦ .

وقد شارك نصارى مصر اليهود فى تقلد أرفع المناصب فى
خلافة المستنصر بالله مستأثرين بمعظم السلطة والنفوذ ، فكانوا هم
« الملاك النافذ أمرهم » الذين انغمسوا فى حياة الترف والبذخ ،
وجمع الثروات (٢٢٧) .

ولم يؤد ذلك الى كراهية المسلمين للرؤساء من الموظفين
الذميين فحسب ، بل أدى الى وقوع البغضاء والحسد بينهم وبين
مجتمعتهم (٢٢٨) .

(٢٢٧) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ورقة ٧٥ .

(٢٢٨) — : نفس المصدر ونفس الصفحة .

الباب الثامن

أهل الذمة والحياة الاقتصادية
النشاط الزراعي لأهل الذمة

أهل الذمة والحياة الاقتصادية

النشاط الزراعى لأهل الذمة

عندما فتح العرب مصر سنة ٢١ هـ / ٦٤٢ م أبقوا على أراضي مصر على حالها (١) ، اذ كتب عمرو بن العاص لأهل مصر عهدا بأنهم آمنون على أموالهم ودمائهم ونسائهم وأولادهم (٢) ، والثابت أن عمرا لم يقسم أراضي المصريين بل تركها في أيديهم وأمنهم عليها (٣) . وأجريت مجرى البلاد المفتوحة صلحا (٤) كما نعم المصريون كغيرهم من أهل الذمة منذ تأسيس الدولة الإسلامية بأكبر قدر من التسامح ، فكانوا يتصرفون في الأراضي التي تحت أيديهم بالبيع والشراء والوقف ، كما كانوا يملكون الأراضي بالشروط التي كان المسلمون يملكونها (٥) .

(١) سيدة كاشف : مصر في فجر الاسلام ، ص ١٩ .

(٢) البراوى : المرجع السابق ، ص ١٨ .

(٣) — : نفس المرجع ، ص ١٩ .

(٤) سيدة كاشف : المرجع السابق ، ص ٤٠ .

(٥) سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب ، ص ٢٨١ .

فاذا انتقلنا الى عهد الأمان الذي أعلنه جوهر الصقلي على الشعب المصرى فى شعبان سنة ٣٥٨ هـ ، فإننا لا نجد فيه ما يشير الى حدوث أى تغيير يذكر فى موقف الحكومة الفاطمية من الملكية الخاصة للمصريين بوجه عام (٦) .

وبموجب عهد جوهر الصقلي احتفظ قائد الجيش الفاطمى لمولاه الخليفة المعز لدين الله بالأوضاع السائدة وقتذاك . وأقر باحترام مبدأ الملكية الخاصة للمصريين فى أموالهم المنقولة والثابتة نظير الطاعة ودفع الضرائب (٧) .

والأرجح أن كل ما حدث هو أن الفاطميين قد استولوا على كثير من أملاك الأسرة الحاكمة قبل عهدهم وكذلك على أراضى الدولة وهذا أمر طبيعى مع توزيع جزء من الأراضى العامة بالأنعام على غيرهم من الأتباع والمغاربة أما على هيئة التملك أو الانتفاع بإيرادها حتى يستمدوا ولاءهم ويحتفظوا باخلاصهم (٨) .

لكن أهم ما يخصنا فى عهد جوهر للمصريين تلك العبارة التى تعهد جوهر بموجبها بتوفير الأمان للجميع ، « واجراء أهل الذمة على ما كانوا عليه » (٩) ، فللمصريين « أمان الله التام العام الدائم المتصل الشامل الكامل المتجدد المتأكد على الأيسام وكرور الأعوام » (١٠) .

(٦) البراوى : المرجع السابق ، ص ٥٢ .

(٧) هشرقة : المرجع السابق ، ص ١٩٣ .

(٨) البراوى : المرجع السابق ، ص ٥٢ .

(٩) المقرئى : اتعاظ الحنفا ، ج ١ ، ص ١٠٥ .

(١٠) — : نفس المرجع ، ص ١٠٦ .

والثابت أن جوهر لم يتعرض لأهل الذمة بسوء ، ولم يتعرض
لأموالهم وأموالهم ، ولم يقع عليهم أى ضرر يذكر ، وتمتعوا برعاية
الدولة وحمايتها كغيرهم من المصريين ، كما أنه لا يوجد فى المصادر
التاريخية التى تناولت تلك الفترة ما يشير الى أن جوهر قد تعرض
للأراضي الزراعية والبساتين والحدائق التى امتلكوها فى أنحاء
البلاد أو التى كانت فى حوزة الكنائس والأديرة أو الموقوفة عليها
كما أن زراع هذه الأراضي لم تصبهم أية أضرار ، وعندما طالبه
المصريون بتجديد الأمان ، جرده لهم ، كما كتب لأهل الريف
والصعيد أمانا ثالثا ونص فيه على إجراء أهل الذمة على ما كانوا
عليه (١١) .

وبصفة عامة فانه يتضح من عقود البيع التى أوردها جروهمان
والتي يرجع تاريخها الى العصر الفاطمى ، أن الأملاك العقارية انتمى
امتلكها أهل الذمة قد امتلكوها رقبة ومنفعة وأنهم تصرفوا فيها
بالبيع والشراء وفق مصالحهم وبحرية تامة (١٢) .

وعلى الرغم من أن العرب نزلوا الى ريف مصر وسكنوه مع
سكانه الأصليين ، إلا أنه كان هناك كثير من القرى فى أنحاء مصر
أهلها نصارى ، والعديد من القرى التى غلب على سكانها
الأقباط (١٣) ، والواقع أن معظم قرى مصر لم تخل من السكان
الأقباط مهما كانت نسبتهم الى عدد السكان .

(١١) ماجد : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر ، ص ١٠٧ .

(١٢) جروهمان : أوراق البردى العربية ، ج ١ ، ص ١٢٢ ، ١٢٣ عقد بيع أملاك
عقارية رقم ٥٤ .

(١٣) ابن جوقل : صورة الأرض ، ص ١٥٠ .

— الحفدى : تاريخ اليوم وبلاده ، ص ١٣ .

وفي المدن الكبيرة - كاسيوط مثلاً - التي يغلب على سكانها الفلاحون من الأقباط - تنتشر الأراضي الزراعية الواسعة الجيدة الخصوبة ، اذ يذكر ياقوت ان بأسيوط « ثلاثون ألف فدان في استواء الأرض ، لو وقفت فيها قطرة ماء لانتشرت في جميعها ولا يظماً فيها شبر (١٤) ، وهذه اشارة الى صلاحية هذه المساحات الواسعة للزراعة وسهولة ريها .

وقد اقطع الخلفاء الفاطميون كبار رجال دولتهم من أهل الذمة انعاماً وتقديراً - الاقطاعات الواسعة . فالثابت ان الخليفة العزيز بالله اقطع وزيره الكف يعقوب بن كلثاق اقطاعات كبيرة في مصر والشام مبلغها ثلاثمائة ألف دينار ، وعندما مات ابن كلثاق ترك من الأموال والأموال والأموال والضرائب والرباع الشيء الكثير ضمن ثروة تقدر بأربعة ملايين دينار (١٥) .

كما أن فهد بن ابراهيم الذي تولى منصب الوساطة في عهد الحاكم بأمر الله اقتطع لنفسه اقطاعات عديدة ضمن ثروة طائلة كانت سبباً لأن يتخذها خصومه - ضمن أسباب أخرى - ذريعة للفتك به (١٦) .

وتحدثنا كتب الرحالة والجغرافيين والمؤرخين عن كثرة الأراضي الزراعية والبساتين التي حول الأديرة ، وكذلك تلك التي في حوزة الكنائس ، فأشاروا الى كثرة المزارع والبساتين التي

(١٤) ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٢٥١ .

(١٥) المقرئزي : الخطط ، ج ١ ، ص ٥ .

- المناوي : المرجع السابق ، ص ٨٣ ، ٨٦ .

(١٦) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٥٩ .

حول دير طور سيناء (دير سانت كاترين) (١٧) ، وعن كثرة
 الأملاك الموقوفة على دير أنبا أندونة بشرقي أطفيح حيث كان له
 « بمصر وقوفات وأملاك عدة » ، كما كانت له بأطفيح أملاك
 وبساتين (١٨) ، كذلك كان لدير سملوط بالأشمونين وقف من
 الخلفاء مساحته عشرون فدانا بالإضافة الى بستان كبير مملوء
 بأشجار الفاكهة وأنواع الأشجار الأخرى (١٩) أما الدير المعروف
 بشهران فكان له بستان مساحته ستة أفدنة وأراضي زراعية ،
 ويذكر الشيخ أبو صالح في مؤلفه أن الحاكم بأمر الله كان كثير
 التردد عليه والنزهة فيه (٢٠) .

وحقيقة الأمر أنه كان هناك الكثير من الأراضي الزراعية
 والبساتين الموقوفة على الأديرة - والثابتة في حساب الدواوين -
 للصرف منها على الرهبان ومتطلبات هذه الأديرة (٢١) ، كتلك
 الأراضي الزراعية الموقوفة على دير طور سيناء في اقليمي مصر
 والشبام (٢٢) .

وبوجه عام فإن معظم كنائس وأديرة مصر كانت في حوزتها
 أراضي زراعية بمساحات شاسعة لدرجة أن أحد التجار الأقباط
 بمدينة قفط أوقف على أحد الأديرة بها أربعين زوجا من البقر
 لتدور في السواقي الملحقة بأراضي الدير لريها (٢٣) .

(١٧) المقدسى : المصدر السابق ، ص ٢١٩ .

(١٨) أبو صالح الأرضي : المصدر السابق ، ص ٦٩ .

(١٩) _____ : نفس المصدر ، ص ١١١ ، ١١٢ .

(٢٠) _____ : نفس المصدر ، ص ٦٠ .

(٢١) ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ،

ص ٣٨٤ .

(٢٢) عبد اللطيف إبراهيم : في مكتبة دير سانت كاترين ، مستخرج من

« مجلة جامعة أم درمان الإسلامية العدد الأول ، ص ٢١٤ ، ٢١٥ .

(٢٣) أبو صالح الأرضي : المصدر السابق ، ص ١٣٠ ، ١٣١ .

واطمأن الذميون على ما بيدهم من أملاك نظرا لسياسة التسامح التي اتبعها الخلفاء الفاطميون في هذا العصر ازاء أهل الذمة - باستثناء فترة من عصر الحاكم بأمر الله - وكيف لا ينعم الفلاحون والملاك من أهل الذمة - خاصة الأقباط - بالمعاملة الطيبة والاطمئنان على أملاكهم في ظل حكومة تولى رئاسة دواوينها وسيطر على ادارتها لفترات طويلة وعديدة كبار رجال الدولة من أهل الذمة ، مع انحياز هؤلاء الموظفين الى بنى ملتهم بصورة لفتت أنظار خاصة وعامة المسلمين (٢٤) .

على أن أملاك الكنائس والأديرة وأوقافها وأحباسها تعرضت للمصادرات العديدة إبان الفترة التي تشدد فيها الحاكم بأمر الله مع أهل الذمة ، وقد يكون سبب هذه المصادرات توتر العلاقات السياسية بين الدولة الفاطمية وبين الدول المسيحية التي لها علاقات سياسية واقتصادية ودينية مع مصر (٢٥) ، وقد يكون سبب ذلك غضب الحاكم بأمر الله على أهل الذمة من موظفي الدواوين الذين أساءوا استخدام السلطة (٢٦) ، كما صودرت بعض المحاصيل كمزارع الكروم الذي كثرت زراعته في أراضي الأديرة والكنائس خوفا من أن تصنع خمرا أو نبيذا (٢٧) .

ففي سنة ٣٩٧ هـ / ١٠٠٦ م صادر الحاكم بأمر الله جميع ما هو محبس على الكنائس وجعله في الديوان (٢٨) ، بينما أصدر أوامره في شهر رجب سنة ٣٩٨ هـ بوضع اليد على أوقاف الكنائس والأديرة الحديثة والعتيقة بمصر وجعلها باسمه ، ثم أنفذ في

(٢٤) ماجد : الحاكم بأمر الله ، ص ٥٨ .

(٢٥) — : نفس المرجع ، ص ٩٦ .

(٢٦) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٩٤ .

(٢٧) النويري : المصدر السابق ، ج ٢٦ ، ورقة ٥٧ .

(٢٨) المقرئ : الخط ، ج ٢ ، ص ٢٨٥ .

شهر رمضان سنة ٤٠٠ هـ الى مدينة دمياط من وضع يده على
أوقاف الكنيسة المعروفة بكنيسة العجوز ، وفي سنة ٤٠٢ هـ /
١٠١١ م أقطع أملاك الكنائس والأديرة لعساكر جيشه ووهبها
لهم ، كما صادر أملاك كنائس القلزم ودير راية ودير طور سيناء
وأعطاهما لبعض خواصه (٢٩) ، ثم وهب في ربيع الآخر سنة
٤٠٣ هـ ربايع الكنائس وأملاكها ومالها من حاصلات لجماعة من
الصقالبة والفراشين والسعيدية (٣٠) ومرة أخيرة في سنة
٤٠٨ هـ / ١٠١٧ م يأمر بمصادرة أملاك الكنائس والأديرة
وأوقافها وأحباسهما وتوزيعها على المسلمين (٣١) .

غير أن الحاكم بأمر الله تراجع في أواخر أيامه عن هذه
السياسة المتشددة وأصدر عدة مراسيم كانت لها أهميتها بالنسبة
لأملاك الكنائس والأديرة .

ففي ربيع الآخر سنة ٤١١ هـ أصدر مرسوماً برد الأوقاف
والأملاك التي كانت محبسة على دير القصير من ضيعة ومزرعة
ومنية وأرض ونخيل وبستان وأشجار وحدائق في سائر أنحاء
الدولة ، وأمر بالمسامحة بما يجب لبيت مال المسلمين على هذه
الأوقاف من خراج وعشر ومقارم « وفاء بالذمة » (٣٢) .

كما رد ما أخذ من أوقاف كنائس وأديرة بيت المقدس
وكنيسة لد وفقاً لمرسوم أصدره في جمادى الآخرة سنة ٤١١ هـ
بناء على التماس تقدم به البطريرك نقفور بطريرك بيت المقدس ،
وأمر بنشر هذا المرسوم في جميع أنحاء الدولة ، وأعطى صورة من
هذا المرسوم لكل من طلب منه من الرعايا الدمين في جميع أقاليم

(٢٩) الانطاكي : المصدر السابق ، من ١٩٤ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ .

(٣٠) النويري : المصدر السابق ، ج ٢٦ ، ورقة ٥٦ ، ٥٧ .

(٣١) القضاعي : المصدر السابق ، ورقة ٩٨٠ .

(٣٢) الانطاكي : المصدر السابق ، من ٢٢٩ ، ٢٣٠ .

الدولة ، الا ما كان قد بيع ابان فترة مصادرتها خاصة في دمشق وجميع بلاد الساحل وصرف ثمنه في نفقات دار الخلافة للاحتياج لثمنه ، أو ما كان منها قد حصل لمن يتوقون شره من المسلمين (٣٣) .

أما بالنسبة لأملاك الموظفين الذميين من كبار رجال الدولة ، فإن الحاكم بأمر الله كان يصادرها عندما يتعرض هؤلاء للمراجعة والحساب وتشير أصابع الاتهام الى أثرائهم بطرق غير مشروعة أو تشير الى سوء استغلال السلطة والنفوذ .

ومثالا لذلك نجد أن العزيز بالله الفاطمي صادر إقطاعات وأملاك وزيره ابن كلثوم عندما غضب عليه (٣٤) وعلى يد الحاكم بأمر الله لقي نفس العقاب ابن عبدون سنة ٣٩٨ هـ / ١٠٠٧ م ، ومعه عدد من كتاب الدواوين - وغالبيتهم من الأقباط - ثم أخلى سبيلهم بعد ذلك (٣٥) كما صادر الحاكم بأمر الله أملاك بعض موظفيه من النصاري سنة ٤٠٢ هـ / ١٠١١ م ابان فترة تشدده في معاملته لأهل الذمة (٣٦) .

غير أن الحاكم بأمر الله وفقا لمرسومه الصادر في صفر سنة ٤٠٤ هـ عاد فسمح لأهل الذمة المهاجرين الى بلاد النوبة أو الحبشة أو بلاد الروم بأن يأخذوا معهم أموالهم ، وصرح لهم بالتصرف فيها حسب اختيارهم آمنين مطمئنين والسماح لهم ببيع أملاكهم وأمتعتهم التي ثقل عليهم حملها ، وأمر بعدم التعرض لهم بالأذى أو التفتيش « احسانا اليهم ، ورفقا بهم » (٣٧) .

(٣٣) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ٢٢٠ ، ٢٢١ .

(٣٤) المقرئ : الخط ، ج ٢ ، ص ٢٦٢ .

(٣٥) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٩٤ .

(٣٦) — : نفس المصدر ، ص ٢٠٤ .

(٣٧) — : نفس المصدر ، ص ٢٠٧ .

ثم ما لبث الحاكم بأمر الله أن أصدر في سنة ٤١١ هـ / ١٠٢٠ م مرسوماً بالعفو العام شمل جميع النصارى بمصر يطمئنهم فيه على أملاكهم وأموالهم وما تحويه أيديهم ، فكان ذلك ضماناً بعدم الاعتداء عليهم وحماية لكافتهم في جميع أرجاء الدولة (٣٨) .

ولم تتعرض ممتلكات أهل الذمة لأية مضايقات أو مصادرات في عهد الخليفة الظاهر لأعزاز دين الله ، بل أن الظاهر لأعزاز دين الله أطلق ما بقي من أوقاف وأملاك الكنائس والأديرة التي لم تكن قد ردت اليهسا إبان خلافة الحاكم بأمر الله (٣٩) . كما أصدر سجلاً في شهر المحرم سنة ٤١٥ هـ بأن يحفظ للرهبان اليعاقبة في مصر ما لهم من « زرع وغلة وعوامل في سائر النواحي » وأن تصان الأراضي الموقوفة على أديرتهم ، وذلك تأكيداً لسياسة التسامح الديني التي نعموا بهيسا في عهد الخلفاء الفاطميين الأوائل في مصر (٤٠) .

وإذا كانت بعض المصادر تتحدث عن تعرض أملاك ومزارع وأوقاف الكنائس والأديرة وكذلك بعض أملاك الأقباط للمصادرة في خلافة المستنصر بالله الفاطمي وبخاصة في وزارة اليازوري . فالواقع أن حالة البلاد كانت سيئة بوجه عام خلال تلك الفترة . فقد شملت الاضطرابات أحوال أهل الذمة والمسلمين على السواء ، نتيجة لاضطراب الأحوال السياسية والاقتصادية التي عمت البلاد في أواخر النصف الأول من القرن الخامس الهجري (٤١) .

(٣٨) الانطالق : المصدر السابق ، ص ٢٣٢ .

(٣٩) — : نفس المصدر ، ص ٢٣٥ .

Stern : Op. cit., p. 16.

(٤٠)

(٤١) جاك تاجر : المرجع السابق ، ص ١٤٠ .

ورغم أن الكنيسة قد تناقصت أملاكها رويدا رويدا عبر القرون ، إلا أن الكنيسة في مصر كانت تملك في القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى حوالى أحد عشر ألف ومائتين وخمسين فدانا من الأطيان ، على الرغم من المصادرات العديدة التى تعرضت لها (٤٢) .

وانتشر السكان من أهل الذمة فى ريف مصر وقراها ، فقد كان الكثير من قرى الريف فى مصر سكانها نصارى أو يغلب على سكانها الفلاحون من الأقباط (٤٣) ، وهؤلاء امتلكوا الأراضى الزراعية والضيايع والاقطاعات ، بجانب أراضى الكنائس والأديرة وما حولها من بساتين وحدائق وأراضى زراعية يستغلها رهبان الدير (٤٤) .

وساهم الفلاحون من أهل الذمة بقسدر كبير فى الانتاج الزراعى ، وأثروا وتأثروا بالسياسة الزراعية لمصر فى عصر الفاطميين .

فقد زرعت أملاكهم بالكثير من المحاصيل الزراعية كالقمح ، والكتان ، وقصب السكر ، والزيتون ، والخضروات ، والبقول ، بجانب بساتين الفواكه مثل الكروم والرمان ، والتفاح ، والكمثرى ، والتين ، فضلا عن أشجار النخيل ، وزراعة عجائب

(٤٢) بارتولد : تاريخ الحضارة الاسلامية ، الطبعة الثانية ، ص ٢٢ .

(٤٣) المقدسى : المصدر السابق ، ص ٢٠٢ .

- ابن حوقل : المصدر السابق ، ص ١٥٠ .

(٤٤) ابن حوقل : نفس المصدر ، ص ١٤٥ .

- أبو صالح : المصدر السابق ، ص ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ .

الزهور والورود وغرس الأشجار (٤٥) ، هذا بجانب المراعى
الواسعة حيث اشتغل البعض من أهل الذمة برعى الأغنام (٤٦) .
ورويت هذه الأراضى إما بمياه النيل ، أو من العيون والآبار ،
كما وجدت السواقى الملحقة بأراضى الأديرة وأوقف على بعضها
أعداد كبيرة من البقر لتدور فى تلك السواقى (٤٧) .

لكن هناك بعض المحاصيل التى تأثر إنتاجها بسبب الظروف
الاجتماعية والاقتصادية فى مصر الفاطمية ومنها محصول الكتان
الذى انتشرت زراعته فى الأراضى الزراعية المنخفضة والتى تغمرها
المياه أطول مدة (٤٨) .

فزرع الكتان فى مناطق الفيوم وأسيوط والمنيا والدلتا حيث
تكثر مصانع النسيج ويكثر عمال النسيج من الأقباط ، وكان لابد
من الاهتمام بهذا المحصول نظرا للاقبال الشديد على المنسوجات
الكتانية التى زاد الاقبال عليها فى ذلك العصر (٤٩) . واستتبع
هذا العناية بزراعة النيلة التى انتشرت زراعتها فى الصعيد

(٤٥) أبو صالح : المصدر السابق ، ص ٥١ ، ١١٢ ، ١٢٠ ، ١٢١ .
- الصمدى : المصدر السابق ، ص ١٢ ، ٣٦ ، ٦٣ ، ٦٩ ، ٧١ ، ١٠٧ ،
١١٦

= ابن فضل الله العنقى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٠٩ .

(٤٦) المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٥٠٥ .

(٤٧) أبو صالح : المصدر السابق ، ص ١٢١ .

(٤٨) البراوى : المرجع السابق ، ص ٦٨ .

(٤٩) ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة فى نحاس مصر والقاهرة تحقيق
مصطفى السقا ، القاهرة سنة ١٩٦٩ م ، ص ٦٥ .

الأعلى (٥٠) وكان هذا المحصول لا يقدر على زراعته إلا أغنياء
الفلاحين في الريف (٥١) .

أما قصب السكر فقد توسع المصريون في زراعته وخاصة
في مناطق زراعته في الصعيد والفيوم حيث يكثر الفلاحون من
الأقباط وحيث تكثر معاصر القصب (٥٢) ، وذلك لشدة الطلب
على إنتاج السكر والخلوى بسبب سياسة الحكومة الفاطمية التي
كانت ترمي إلى الاهتمام بالأعياد الدينية والمناسبات العديدة التي
أدخلها الفاطميون أو بسبب التوسع في الاحتفال بهذه الأعياد مع
إقامة الحفلات الفخمة في قصور الخلفاء والوزراء وكبار رجال
الدولة ولعدد حاجات أفراد الشعب الذي أقبل بشغف على
الاشتراك في هذه الأعياد وتلك المناسبات (٥٣) .

على أنه في خلافة الحاكم بأمر الله صيشرت عدة مراسيم
تتعلق بمنع بيع العسل الأسود وكسر جرار العسل ورميها في
النيل خوفا من أن تصنع مسكرات (٥٤) ، فقل وجود العسل
واختفى من الأسواق وارتفع سعره لندرة وجوده (٥٥) .

(٥٠) سيده كاشف وحسن محمود : مصر في عصر الطولونيين والاختيبيين ،
ص ٢٢٩ .

(٥١) البراوي : المرجع السابق ، ص ٧٠ .

(٥٢) الصقدي : المصدر السابق ، ص ٢٢ ، ٢٩ ، ٦٢ ، ٧٢ .

- البراوي : المرجع السابق ، ص ٧٠ .

(٥٣) البراوي : المرجع السابق ، ص ٧٠ .

(٥٤) القاضي : المصدر السابق ، ورقة ١٨٠ .

سيط بن الجوزي : المصدر السابق ، ج ١١ ، ورقة ٤٠٢ .

(٥٥) ابن أبيك : المصدر السابق ، ج ٦ ، ورقة ١٧٢ .

ونعتقد أن مثل هذه الاجراءات قد أدت الى نقص المساحات المزروعة قصباً ، على أنه بانتهاء عصر الحاكم بأمر الله ازداد الاهتمام بزراعة هذا المحصول الهام ، وليس أدل على ذلك من قول ناصري خسرو الذى زار مصر فى خلافة المستنصر بالله قوله : « وتنتج مصر عسلاً كثيراً وسكراً » (٥٦) .

واشتهر الريف المصرى بكثرة مزارع الكروم (٥٧) ، واهتم الفلاحون الأقباط بزراعة الكروم فى أراضيهم ، كما اشتهرت أديرة النصارى بزراعة مساحات واسعة منه سواء داخل بساتين الأديرة أو بالأراضي التى فى حوزة هذه الأديرة لسد احتياجات الرهبان سواء للأكل أو صناعة الزيت والخمور (٥٨) .

لكن هذا المحصول تعرض للإبادة فى عهد الحاكم بأمر الله وفقاً للقرارات الصارمة التى أصدرها ، فكثيراً ما قطعت أشجار العنب حتى لا يتخذ منه الناس خمراً (٥٩) ، وفى سنة ٤٠١ هـ عندما نضج محصول العنب وأخذ الناس فى إبتياعه واعتصامه سرا ، أمر الحاكم برمى المحصول فى النيل ومنع الناس من بيعه وأكله (٦٠) ، وفى العام التالى أمر بقطع أشجار العنب وحرث جميع مزارع الكروم بالأراضي المصرية ، ويبالغ النويرى فى ذلك بقوله أنه فى سنة ٤٠٣ هـ « قطعت كروم العنب بأسرها ورميت فى الأرض وديست بالبقر ، وجمع ما كان من الخمسر بالمخازن

(٥٦) ناصري خسرو : المصدر السابق ، ص ٦٠ .

(٥٧) المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٦٧ .

(٥٨) أبو صالح : المصدر السابق ، ص ٥١ .

— المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ١٢٩ ، ٥٠٣ .

— زكى محمد حسن : كتوز الفاطميين ، ص ٤٤ .

(٥٩) ابن كثير : المصدر السابق ، ج ١٢ ، ص ٩ .

(٦٠) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ٢٠٢ .

وأهرقوا في البحر » (٦١) ، وقد استتبع ذلك الغاء مكوس دار
الفاكهة (٦٢) . وكان معنى صدور قرار خاص بالكروم ومنتجاته
أن قيودا قد فرضت على زراعة الكروم .

وبانتهاء عهد الحاكم بأمر الله ، رخص ابنه الخليفة الظاهر
للناس بعصر العنب وشرب الخمر (٦٣) ، بل ان الظاهر نفسه
أقبل على شرب المسكرات وإباحتها (٦٤) .

ولم تصدر الخلافة في عهد المستنصر ما يقيد زراعة الكروم ،
بل عاد الاهتمام بزراعة هذا المحصول ، نظرا للتوسع في إنتاج
الخمر مع عودة الاهتمام بالأعياد والمناسبات المختلفة ، وأقبل
الناس على شرب المسكرات (٦٥) .

(٦١) النويري : المصدر السابق ، ج ٢٦ ، ورقة ٥٧ .
(٦٢) العيني : المصدر السابق ، ج ١٩ ، ورقة ٥٩٧ .
(٦٣) مبط بن الجوزي : المصدر السابق ، ج ١١ ، ورقة .
(٦٤) المقرئ : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٥٣ ، ٣٥٤ .
(٦٥) المقرئ : الخطط ، ج ٢ ، ص ١٦٢ .

النشاط الصناعي لأهل الذمة

شهدت مصر في العصر الفاطمي الأول نهضة صناعية كبرى لم تشهدها البلاد قبل مجيء الفاطميين الى مصر ، فقد تنوعت الصناعات وزاد الانتاج ، واستحدثت الكثير من الصناعات ، كما اهتم الصناع المصريون باتقان الصنعة وجمال الفن (٦٦) .

فقد توافر في هذا العصر من الأسباب والظروف ما أدى الى قيام نهضة صناعية كبرى ، اذ نعمت مصر في ظل الخلافة الفاطمية بالاستقلال السياسي التام مما عجل بدفع عجلة التطور والتقدم بخطى ثابتة وسريعة لبناء صرح اقتصاد مصرى شامخ فى ظل خلافة قوية (٦٧) عملت على استتباب الأمن ونشر العدالة التى شملت جميع فئات الشعب (٦٨) .

(٦٦) سرور : مصر فى عصر الدولة الفاطمية ، ص ١٩٨ ، ١٩٩ .

— مرزوق : الزخرفة المنسوجة فى الأقمشة الفاطمية ، ص ١١٨ .

(٦٧) البراوى : المرجع السابق ، ص ١٢٠ ، ١٢١ .

(٦٨) المقدسى : المصدر السابق ، ص ٢١٢ .

وكان معظم الصناع من المصريين سواء أكانوا ممن بقى على دينه من الأقباط أو ممن اعتنق الاسلام (٦٩) .

على أن سياسة التسامح الدينى التى عاش تحت مظلتها أهل الذمة فى مصر كانت من أهم العوامل التى أدت الى تقدم الصناعات وازدهارها ، اذ انصرف العمال الى أعمالهم فى أمن واطمئنان مما جعلهم يتفانون باخلاص فى خدمة الدولة فى شتى مجالات الانتاج الصناعى ، وخاصة أن الفاطميين حرصوا على توظيف مهرة الصناع الأقباط وغيرهم فى دفع عجلة الانتاج الصناعى الى الأمام لبناء صرح اقتصادى مصرى قوى يدعم سياسة الفاطميين ومركزهم فى مصر (٧٠) .

ومن خلال نظرة فاحصة نجد أن أهل الذمة فى مصر كانت فى أيديهم معظم الصناعات المصرية ، وأن الصناع الأقباط كانوا هم المهيمنين على تلك الصناعات ولهم كانت اليد الطولى فى كثير من فنون ذلك العصر (٧١) .

(١) صناعة النسيج :

من الصناعات التى ازدهرت فى مصر الفاطمية صناعة النسيج ، تلك الصناعة القوية التى حمل لواءها أقباط مصر لمدة طويلة (٧٢) .

(٦٩) سيدة كاشف : مصر فى مجر الاسلام ، ص ٢٤٢ .

(٧٠) زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ، ص ٨٠ .

— البراوى : المرجع السابق ، ص ١٢٠ ، ١٢١ .

(٧١) مرزوق : الزخرفة المنسوجة فى الاقمشة الفاطمية ، ص ١١٨ ، ١١٩ .

(٧٢) حتى : تاريخ العرب ، ج ٢ ، ص ٧٤٧ .

وكانت صناعة النسيج تتمركز في المدن التي كان الأقباط يشكلون فيها غالبية كبرى ، ومن هذه المدن : تنيس ، والاسكندرية ، ودمياط ، وشطا ودبيق ، ودميرة ، وتونة ، والفرما ، والأشمونين ، والبهنسا ، وأخميم وأسيوط ، وغيرها من مراكز صناعة النسيج في مصر الفاطمية (٧٣) .

وكانت المنسوجات الكتانية تنسج في عديد من المدن المصرية لإسيما تنيس ، ودمياط ، وشطا ، ودبيق ، ودميرة ، وتونة ، والبهنسا (٧٤) وبلغت أخميم درجة كبيرة في صناعة المنسوجات خاصة الصوفية منها والحريرية (٧٥) ، أما أسيوط فكانت شهرتها صناعة المنسوجات الصوفية من الصوف المصري الذي اشتهر به الصعيد الأعلى ، وكانت منسوجات أسيوط الصوفية ذات ملمس ناعم حتى أن الانسان ليظن أن تلك المنسوجات من الحرير (٧٦) ، أما الثياب المنسوجة في الاسكندرية فقد اكتسبت شهرة واسعة وكانت تصنع في أغلبها من الكتان (٧٧) .

واتخذ الفاطميون من المنسوجات الفاخرة التي اشتهرت بها مصر وسيلة لتحقيق مكاسب سياسية ودينية ، وذلك بنسج عبارات خاصة على الملابس تشيد بمركزهم الديني والسياسي ، وكان الاكثار من توزيع الكسوات على رعايا الدولة وغيرهم يساعد الى حد كبير على

(٧٣) المقدسي : المصدر السابق ، ص ٢١٣ .

- المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ١٧٦ .

- زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ، ص ١١٦ ، ١١٧ .

(٧٤) ابن حوقل : المصدر السابق ، ص ١٤٣ .

(٧٥) ابن ظهيرة : المصدر ، ص ٦٣ .

(٧٦) ناصري خسرو : المصدر السابق ، ص ٧٠ ، ٧١ ، ١١٧ .

(٧٧) المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٦٢ .

تحقيق هذه الأهداف ، فلقد كانت الخلافة الفاطمية تسعى من وراء ذلك الى مكاسب أدبية ومادية باستمالة الناس واجتذاب قلوبهم واكتساب الرأى العام اليهم عن طريق الانعام والتكريم لرجالها (٧٨) .

ومما ساعد على تقدم صناعة النسيج تلك العلاقات التجارية النشطة بين مصر والبلاد الأجنبية ، وكثرة الطلب على مختلف أنواع النسيج المصرى (٧٩) ، هذا فضلا عن اهتمام الدولة بالاشراف البقيع على هذه المصانع (٨٠) ، واهتمامها بتوفير الخبرة المدربة ، وتوفير الظروف الملائمة للصناع الأجانب الذين كانوا يعملون بها (٨١) ، كما كان الخلفاء الفاطميون يشجعون عمال النسيج المهرة بمنحهم المكافآت التشجيعية . ويذكر ناصرى خسرو على سبيل المثال : « أن عاملا نسج عمامة السلطان فأمر له بخمسمائة دينار ذهب مغربى » ، مكافأة له لدقة صنعته وجمال منظرها (٨٢) ، كما اهتم كبار رجال الدولة بتشجيع هؤلاء الصناع مما أدى فى النهاية الى زيادة الانتاج وحسن الصنعة (٨٣) .

ولقد اهتمت الدولة بهذه الصناعة نظرا لأهميتها للاقتصاد المصرى ولبيت مال الدولة نظرا لما يجبى عليها من ضرائب (٨٤) .

(٧٨) البراوى : المرجع السابق ، ص ١٢٦ ، ١٢٧ .

— زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ، ص ١١٧ ، ١١٨ .

(٧٩) ناصرى خسرو : المصدر السابق ، ص ٢٨ ، ٢٩ ، ٤٠ .

(٨٠) البراوى : المرجع السابق ، ص ١٢١ .

— سبيكة : دليل المتحف القبطى ، ج ١ ، ص ١١٨ .

(٨١) المقرئى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٤٤٢ .

(٨٢) ناصرى خسرو : المصدر السابق ، ص ٢٨ .

(٨٣) زكى محمد حسن : المصدر السابق ، ص ٨٠ .

(٨٤) ناصرى خسرو : المصدر السابق ، ص ٤٠ .

وقد ساعد توفر خامات النسيج في مصر على ازدهار هذه الصناعة ، فالكثان تتوفر زراعته في ريف مصر ، والصوف المصرى يتوفر في مناطق الفيوم وأخميم ، وأسيوط لكثرة تربية الأغنام على أيدي القبائل العربية التي نزلت وسكنت في تلك المناطق (٨٥) .

لكل هذه العوامل ازدهرت صناعة النسيج ، وأنتج النساجون الأقباط أنواع المنسوجات الكتانية والصوفية والحريرية والقطنية التي ليس في « جميع الأرض ما يدانيها في القيمة والحسن والنعمة والثرف والرقعة والدقة » (٨٦) ، وبلغت تلك المنسوجات درجة من الرقي أذهلت المؤرخين والرحالة الذين زاروا مصر في هذه الفترة (٨٧) ، وقد حملت هذه المنسوجات الكثير من أسماء المدن المصرية التي صنعت بها ، فهناك الثياب التنيسية ، والشطوية ، والدمياطى ، والدبيقى (٨٨) والشرب الاسكندري (٨٩) ، والقماش القيسى والبهنساوى (٩٠) .

فقد اكتسبت مدينة تنيس على سبيل المثال شهرة عالمية بفضل مهارة عمال النسيج الأقباط الذين عرفوا « بحسن زيهم ولطافة صناعتهم (٩١) ، فقد أضفوا على مدينتهم مكانة مرموقة بين المدن

(٨٥) ناصري خسرو : المصدر السابق ، ص ٧٠ .

- البراوى : المرجع السابق ، ص ١٣٥ .

(٨٦) ابن حوقل : المصدر السابق ، ص ١٤٣ .

(٨٧) المقدسى : المصدر السابق ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ .

- ناصري خسرو : المصدر السابق ، ص ٧٠ ، ٧١ .

(٨٨) ابن دقماق : الانتصار بواسطة عقد الأمصار ، ج ٥ ، ص ٧٩ .

(٨٩) المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ١٦٢ .

(٩٠) البراوى : المرجع السابق ، ص ١٣٣ ، ١٣٤ .

(٩١) ابن دقماق : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٧٨ .

الصناعية الكبرى فى ذلك العصر . ولا يزال ناصرى خسرو عندما يذكر « أن سلطان الروم كان أوفد رسولا ليعرض على سلطان مصر أن يعطيه مائة مدينة على أن يأخذ تنيس فلم يقبل السلطان ، وكان عقده من هذه المدينة القصب والبوقلمون » (٩٢) ، وهما من أهم وأفخر منسوجات تنيس .

وإذا كانت هذه مكانة مدينة تنيس التى كانت تضم حوالى الخمسين ألف نسمة من السكان (٩٣) وآلاف المناسج ، فماذا عن دمياط التى كانت « أحذق صناعا وأرفع بزا ، وأنظف عملا » (٩٤) .

وأما أسيوط فكان يصنع بها « عمائم من صوف الخراف لا مثيل لها فى العالم » (٩٥) ، هذا بينما كانت تصدر منسوجات أخميم الى أقصى البلاد ، (٩٦) .

ولا يسعنا أمام مهارة هؤلاء النساجين وجودة صناعتهم إلا أن نذكر أهم أنواع تلك المنسوجات التى أنتجتها آلاف المصانع التى عمل بها الصناع الأقباط ومنها :

الديبقي :

وهو ذلك النسيج الحريرى الذى ينسب الى قرية دبيق ، التى اشتهرت بالثياب المثقلة والعمائم الشرب الملونة التى كان يبلغ طول العمامة منها ذراع وتبلغ قيمتها خمسمائة دينار سوى الحرير

(٩٢) ناصرى خسرو : المصدر السابق ، ص ٢٨ .

(٩٣) ناصرى خسرو : المصدر السابق ، ص ٣٨ .

(٩٤) المقسى : المصدر السابق ، ص ٢٠٢ .

(٩٥) ناصرى خسرو : المصدر السابق ، ص ٧٠ .

(٩٦) ابن ظهيرة : المصدر السابق ، ص ٦٣ .

والغزل (٩٧) ، كما كانت الثياب الديبقية من أهم منسوجات مدينة
أسيوط التي غلب على سكانها الأقباط (٩٨) .

ولشهرة الثياب الديبقية (الديبقي) أطلق هذا الاسم على
منسوجات أخرى مثل الدمقس والنسيج الحرير المشجر والثياب
الكتانية ، ولجودة الثياب الديبقية أطلق هذا الاسم على إحدى قرى
بغداد اسم ديبقية ، وكانت منسوجاتها تباع على أنها من إنتاج
مصانع ديبق المصرية ليقتل الناس على شرائها (٩٩) .

القصب :

وهو نسيج من الكتان يمتاز بالنعومة الفائقة ، وكان ينسج
بتنيس القصب الملون من عمامات ودوايات ومما يلبس النساء ،
ولا ينسج مثل هذا القصب في جهة ما غير تنيس (١٠٠) ، أما القصب
الأبيض فقد اشتهرت بصناعته مدينة دمياط ، ويبلغ قيمة الثوب
الأبيض وليس فيه ذهباً ثلاثمائة دينار (١٠١) .

الشرب :

ويطلق على هذا النسيج اسم الشرابي ، وهو نوع من الحرير
أو الكتان النقي الفاخر ، واشتهرت مدينتا دمياط وتنيس بصناعة
أجود أنواع الشراب الفاخرة (١٠٢) .

-
- (٩٧) المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٢٥ .
 - (٩٨) ياقوت : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٥١ .
 - (٩٩) المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٢٥ .
 - - البراوى : المرجع السابق ، ص ١٣٢ .
 - (١٠٠) المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٢٥ .
 - (١٠١) ابن ظهيرة : المصدر السابق ، ص ٥٣ ، ٥٤ .
 - (١٠٢) ابن حوقل : المصدر السابق ، ص ١٤٣ .
 - - كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار ، تحقيق د. سعد زغلول ، ص ٨٧ .

كما كان الصناع الأقباط يصنعون بدييق العمائم الشرب المذهبة وفيها رقعات منسوجة بالذهب . وقد استحدثت هذه العمائم لأول مرة في خلافة العزيز بالله الفاطمي سنة ٣٦٥هـ / ٩٧٥ م (١٠٣) ، وكان في « ثياب الاسكندرية ما يباع الكتان منه اذا عمل ثيابا يقال لها الشرب ، كل زنة درهم فضة ، وما يدخل في الطرز فيباع بنظير وزنه مرات عديدة » (١٠٤) .

البدنة :

وهو اسم ذلك الثوب الثمين الذي كان يصنع للخلفاء ، ويقوم بصناعته نساج مهرة تخصصوا في صنع ملابس الخلفاء ، ولا يدخل في هذا الثوب من الغزل - سداء ولحمة - غير أوقيتين ، وفيه من الذهب أربعمائة دينار ، قد أحكمه صانعه باتقان بالغ بدون حاجة الى تفصيل أو خياطة غير الجيب والنبائق ، ويبلغ قيمة الثوب الألف دينار (١٠٥) .

وكان ثياب البدنة ينسج في مصانع الحكومة ، ولا يصرح ببيعه ، ولقد حاول أحد ملوك فارس أن يشتري بدنة فأرسل أعوانه الى تنيس بعشرين ألف دينار لكي يحصل على ثوب من البدنة ، فمكثوا بتنيس عدة سنوات ، ولكنهم فشلوا في الحصول على بدنة واحدة من كسوة الخلفاء (١٠٦) .

(١٠٣) المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٢٦ .

(١٠٤) — : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ١٦٢ .

(١٠٥) كتاب الاستبصار : ص ٨٧ .

(١٠٦) ناصرى خسرو : المصدر السابق ، ص ٢٨ .

القباطى :

وهو نسيج من الكتان أو التيل ، وكان العرب يطلقون على المنسوجات اسم القباطى ، ويرى بعض المؤرخين أن هذه التسمية نسبة الى قبط مصر الذين اشتهروا بمهارتهم فى صناعة النسيج (١٠٧) ، ومن القباطى البيض كان ينسج أجزاء من كسوة الكعبة (١٠٨) .

البوقلمون :

أحد أنواع المنسوجات التى اشتهرت بها مصر وبخاصة مصانع النسيج فى تنيس ، ويذكر ناصرى خسرو أن البوقلمون لم يكن ينسج فى مكان آخر فى ذلك العصر الا فى مدينة تنيس . وهذا القماش يمتاز بألوانه البراقة ، ويظهر فى ألوان مختلفة حسب تعرضه لضوء الشمس والوضع الذى يكون فيه واختلاف ساعات النهار ، وكان يصدر الى جميع بلدان الشرق والغرب لشدة الطلب عليه (١٠٩) .

العتابى :

وهو أحد أنواع المنسوجات الحريرية ، وكان هذا النوع ينسج بمدينة بغداد حيث كانت تنسج العتابية ، ثم استحدث هذا النسيج فى مصر وصنع فى عصر الفاطميين (١١٠) .

(١٠٧) سيده كاشف : مصر فى فجر الإسلام ، ص ٢٤٩ .

(١٠٨) بيبيرس الدوادار : المصدر السابق ، ج ٦ ، ورقة ٢٩٠ .

(١٠٩) ناصرى خسرو : المصدر السابق ، ص ٢٨ .

وسمى البوقلمون أيضا باسم القلقون ، وسميها بعض المؤرخين ابو قلمون وكتبها آخرون قليمون وهى لغة يونانية الاصل ، وهذا القصيع صنع فى بلاد اليونان ثم انتقلت صناعته الى مصر (نقولا يوسف - المرجع السابق ، ص ٢٢٤) .

(١١٠) البراوى : المرجع السابق ، ص ١٣٣ ، ١٣٤ .

وكان للاتصال التجارى مع البلاد المجاورة وسفر بعض المصريين الى تلك الدول ، ومجيء التجار الأجانب الى مصر أثره الكبير فى تشجيع الصناع على اقتباس أنواع ممتازة وتقليد أجود أنواع الأقمشة التى كانت ترد الى البلاد المصرية مما يتفق وميول الفاطميين والشعب المصرى . ولذلك عرفت مصر فى العصر الفاطمى أنواعا جديدة من المنسوجات ، مثل الخسروانى ، والطميم ، والأرمنى ، والكردوانى والسندسى ، والتى تدل بعض أسمائها على أصلها الأجنبى (١١١) .

وقد اشتهرت تنيس بعمل قماش الخيام (١١٢) ، كما اشتهرت الفيوم بصناعة الخيش ، وسمالوط بعمل المنسوجات من شعر الماعز ، والاسكندرية بالحرير السكندرى (١١٣) .

وكان الرهبان بالأديرة ينسجون الأقمشة ويحكونها وفقا لاحتياجاتهم من أنواع الصوف والكتان اللازمين لعمل الملابس الخاصة بهم ، كما أن الراهبات اشتغلن بتطريز الملابس الكهنوتية ، وكذلك أفخر الملابس اللازمة لدفن الموتى كما جرت به عادة الأقباط عند دفن موتاهم (١١٤) .

وإذا كان الخلفاء الفاطميون قد أنشأوا دور الطراز - مصانع النسيج - فى كثير من المدن المصرية ، وأنهم استخدموا الصناع الأقباط فى هذه الدور ، فقد قامت الى جانب دور الطراز الحكومية مصانع أخرى خاصة لنسج الأقمشة التى يستعملها القبط (١١٥) .

(١١١) البراوى : المرجع السابق ، ص ١٢٤ .

(١١٢) المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٤١٨ .

(١١٣) البراوى : المرجع السابق ، ص ١٣٦ .

(١١٤) مينيكة : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١١٨ .

(١١٥) ديماند : الفنون الاسلامية ، ص ٢٨ .

واهتم الصناع الأقباط بالزخرفة المنسوجة على الأقمشة في العصر الفاطمي الأول ، وكانت أهم الألوان المستعملة وبالذات على الأقمشة الحريرية الأزرق والأسود والأحمر والأصفر والبني والأخضر . وكانت الوحدات الزخرفية هي بعينها تلك الوحدات التي كان يستعملها النسيج قبل العصر الفاطمي ، وكل ما هنالك من فرق هي أنها صارت ترسم بدقة ومهارة تدل على رقي الذوق وتقدم الفن (١١٦) .

واشتملت هذه الوحدات الزخرفية على رسوم حيوانات أو طيور أو أشكال آدمية (١١٧) ، على نساجي هذا العصر كانوا أميل إلى استخدام صور الحمامة في زخرفة المنسوجات فأكثروا من رسمها وتفننوا في وضعها ، وترجع أسباب تفضيل هذا الطائر على غيره إلى أن معظم عمال النسيج كانوا من الأقباط ، وأن هذا الطائر كان محبوبا اليهم ، ويرمزون به إلى الروح القدس ، أو إلى أنه ربما تكون هناك ثمة علاقة وطيدة بين الاكثار من استعماله في الزخرفة وبين سياسة التسامح الديني التي عاش تحت مظلتها جموع أهل الذمة في ذلك العصر (١١٨) .

وكان الاتجاه العام في زخرفة المنسوجات في بداية العصر الفاطمي الأول يرمى إلى العناية بالزخارف الخطية التي كانت تمتاز بجمالها وتنوعها ، بحيث يكون للزخرفة الخطية مكان الصدارة على الأقمشة ، ثم تأتي زخرفة الرسوم في المحل الثاني ، إلا أنه في خلافة الحاكم بأمر الله وزعت العناية بين الخط والزخرفة فكانا متساويين تقريبا في الاتساع ، على أن ذلك الحال لم يستمر طويلا .

(١١٦) مرزوق : المرجع السابق ، ص ١١٦ .

(١١٧) البراوي : المرجع السابق ، ص ١٢٨ .

(١١٨) مرزوق : المرجع السابق ، ص ١١٨ .

فقد زاد الاهتمام مرة أخرى بالزخرفة ، فرسمت الزخارف أكبر في الحجم من الكتابة ، موضع النسجاج الكتابة أسفل الزخرفة ولم يجعلها تمتد امتدادها كما كان الحال عليه من قبل (١١٩) .

واستمر التأثير القبطي على الفن الاسلامي في الزخرفة على المنسوجات قائما ، وظل أثره واضحا حتى القرنين الخامس والسادس الهجري / الحادي عشر والثاني عشر الميلادي والى أن كانت السيادة للخط النسج ، وفقدت رسوم الحيوانات والطيور خواصها ، وصارت أشكالا تقليدية لا تمت الى الطبيعة بصلة كبيرة (١٢٠) .

وكانت أسماء الخلفاء تنسج في الأقمشة الثمينة بخيوط الذهب والفضة أو الخيوط المتعددة الألوان تمجيذا لهم ودليلا على أنها صنعت في عهدهم ، وشارة من شارات الملك ، ووثيقة لمن خلعت عليه للدلالة على درجته ووظيفته واششارة الى رضا الخليفة عنه (١٢١) .

كما كان الخليفة يسمح بكتابة اسم وزيره في الطراز تكريما له (١٢٢) ، وأحيانا كانوا يكتبون اسم المشرف على العمل في دار الطراز ، ولكن قلما كانوا يذكرون اسم الصانع نفسه (١٢٣) .

(ب) الصناعات الخشبية :

بلغت الدقة في الحفر على الخشب والصناعات الخشبية

(١١٩) — : نلس المرجع ، ص ١٢٢ .

(١٢٠) ديماندا : المرجع السابق ، ص ٢٨ .

(١٢١) زكي محمد حسن : كنوز الفاطميين ، ص ١١٧ : ١١٨ .

(١٢٢) المقرئ : الخط ، ج ٢ ، ص ٢٨٤ .

(١٢٣) البراوي : المرجع السابق ، ص ٢٢٩ .

مرحلة ممتازة على يد الصناع الأقباط في عصر الفاطميين ، اذ كانت الريادة في هذا الميدان لأهل البلاد من القبط (١٢٤) .

وشجع الخلفاء الفاطميون هؤلاء الصناع على الارتقاء بمستوى صناعاتهم نظرا للحاجة الشديدة الى تلك الصناعة وهذا الفن ، وساعد على تقديم الصناعات الخشبية وازدهارها في عصر الفاطميين ما عرف عنهم من تسامح ديني عظيم (١٢٥) .

ونظرا لعدم صلابة الأخشاب المحلية كالجميز والسنت والنبق والسرو فقد استوردت مصر الأخشاب الصالحة لهذه الصناعة من أوربا (١٢٦) ، وذلك عن طريق تجار أمالقي وجنوة والبندقية (١٢٧) ، كما استوردت خشب الأرز والصنوبر من الشام وآسيا الصغرى ، أما خشب الأبنوس فكان مصدره السودان ، كما استوردت مصر خشب التيك من الهند وشبه جزيرة الملايو (١٢٨) .

وبرع الصناع المصريون في استخدام الأخشاب وبخاصة في عمل السقوف والأبواب والنوافذ والمحاريب والقباب وما بها من

(١٢٤) سبيكة : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٤٥ .

— على حسنى الخربوطلى : مصر العربية الاسلامية ، ص ٢٢٩ .

(١٢٥) زكى محمد حسن : فنون الاسلام ، ص ٤٥١ — ٤٥٢ .

— : كنوز الفاطميين ، ص ٢٠٦ .

(١٢٦) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ، ج ٤ ، ص ٣٩٤ .

(١٢٧) عطية القوصى : تجارة مصر في البحر الأحمر منذ فجر الاسلام حتى سقوط الدولة العباسية سنة ٦٥٩ هـ ، رسالة دكتوراة من جامعة القاهرة سنة ١٩٧٣ م ، غير مطبوعة ، ص ١١٠ .

(١٢٨) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ، ج ٤ ، ص ٣٩٤ .

حشوات جميلة (١٢٩) ، بجانب تصنيع كافة الأثاث الفاخرة
والتحف الخشبية الرائعة .

ونقش الصناعات الأقباط في الكنائس القبطية نفس الزخارف
التي نراها على خشب الجوامع والأثاث الاسلامي . ففي المتحف
القبطي قبة مذهب أصلها من كنيسة المعلقة ، وعلى جزئها السفلي
عقود وصلبان في فروع نباتية محفورة حفرا دقيقة تذكر بالزخارف
الجصية في الجامع الأزهر ، مما يدل على ازدهار صناعة الخفر
على الخشب إبان عصر الفاطميين على يد الصناع والفنانين من
الأقباط والمسلمين على حد سواء . (١٣٠) .

وازدهر هذا الفن ازدهارا يثير الإعجاب في عصرى الظاهر
والمستنصر وانتجت أيدي الصناع المصريين نماذج لصناعة النقش
على الخشب تدل على أن هذا الفن بلغ أقصى درجات الفن والرقي
في عصر الفاطميين (١٣١) .

وكان للصناع والفنانين الأقباط أربع طرق لزخرفة الأخشاب
منها : النقوش البارزة ، والنقوش بطريقة التفريغ ، وثالثة بتعشيق
الخشب وتطعيمه بالعاج ، ورابعة بالخرط ، كما كانوا أيضا مهرة
في التطعيم بالعاج والصدف ، وطريقتهم في ذلك أن ينقشوا قطعة
العاج أولا على انفراد ، ثم يشبثونها في إطار من الخشب قبل تركيبها
في الموضع المعد لها (١٣٢) .

(١٢٩) البراوى : المرجع السابق ، ص ١٧٠ .

(١٣٠) زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ، ص ٢٠٤ .

(١٣١) — : نفس المصدر ، ص ٢١٧ .

(١٣٢) سميكة : المرجع السابق ، ص ١ ، ص ١٤٥ .

ومن أبداع الأمثلة الباقية للمتحف الخشبية - الحفر على الخشب - في بداية العصر الفاطمي حجاب الهيكل في كنيسة الست بربرة بمصر القديمة - وهو معروض الآن بالمتحف القبطي بالقاهرة - ومع أنه لا مجال للشك في أنه من صناعة الفنانين الأقباط . إلا أننا نرى في زخارفه خصائص الأسلوب الفاطمي ، فالحجاب يتألف من خمس وأربعين حشوة خلاف دائرة القبة العليا ، والزخارف المحفورة متنوعة الموضوعات لطيور وحيوانات مفترسة وغزلان وأشخاص ومناظر للصيد والقنص ، يتخلل تلك الزخارف صلبان ، بجانب تفريعات نباتية تشكل مع غيرها من الرسوم وحدات زخرفية كاملة ، وتعتبر حشوات هذا الحجاب أجمل ما بقي من صناعة خشبية في العصر الفاطمي ، وأصدق مثال على ازدهار صناعة الحفر في الخشب على يد الصناع من القبط في عصر الفاطميين (١٣٣) :

ولقد بقيت الرسوم الحيوانية والموضوعات الآدمية التي شاعت في الحفر على الخشب في بداية العصر الفاطمي مستمرة خلال القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، وفي مجموعة الألواح الخشبية والأبواب التي عثر عليها في مارستان وقبة قلاوون وابنه الناصر محمد والتي يرجع تاريخ تصنيعها إلى العصر الفاطمي الأول ، نرى زخرفة حافلة بالرسوم المختلفة ، لكن الحفر والرسوم في تلك المجموعة أقرب إلى الطبيعة ، وأكثر اتقاناً من مثيله في أوائل العصر الفاطمي وأقرب إلى الواقعية ، ونرى تأثير الأسلوب القبطي في الفن واضحاً كما هو في استخدام الرسوم الآدمية والحيوانات والطيور (١٣٤) .

(١٣٣) — : نفس المرجع ، ص ١٤٧ .

— ديماندا : المرجع السابق ، ص ١١٩ .

— زكي محمد حسن : فنون الإسلام ، ص ٤٥٢ .

— : كنوز الفاطميين ، ص ٢٢٤ .

(١٣٤) ديماندا : المرجع السابق ، ص

وإذا كان الكثير من الصناع الأقباط برعوا فى الصناعات الخشبية ، فإنه مما يجدر ذكره أن الرهبان بالأديرة قد اشتغلوا بالنجارة لسد احتياجات الدير من الصناعات الخشبية (١٣٥) .

فإذا ما انتقلنا الى الريف فأننا نجد ان المهيمنين على الصناعات الخشبية بالقرى هم النجارون من القبط ، فقد ورث هؤلاء الأقباط عن أجدادهم سر هذه الصناعة واحتكروها مدة طويلة تصل الى القرن الثامن عشر الميلادى / الثانى عشر الهجرى (١٣٦) ، وكانوا يستخدمون أخشاب الأشجار المحلية فى صناعة ما يلزم أهالى الريف من أثاث البيوت وعمل السواقي والطواحين والمحارث والنوارج والمعاصر والأنوال والمغازل وغيرها من الآلات الريفية (١٣٧) ، وإلى عهد قريب كاد أن يكون كل نجارى القرى المصرية من الأقباط (١٣٨) .

(ح) صناعة المعادن والحاج :

برع المصريون فى صناعة المعادن وسبكها وزخرفتها اذ كانت هذه الصناعة من الصناعات التى عرف دقائقها وأسرارها قبط مصر منذ عهد الفراغة ، وغنهم أخذ المسلمون فى وادى النيل سر هذه الصناعة التى بلغت أرقى درجات الفن والجمال فى القرنين الرابع والخامس الهجريين ، فقد عثر على كثير من التحف والأدوات المعدنية ذات الأغراض المختلفة والتى ترجع الى عصر الفاطميين ، وسواء أكانت من عمل الفنانين المسلمين أو الأقباط فإنها دليل لا يقبل الشك على

(١٣٥) سيده كاشف : مصر فى فجر الاسلام : ص ٢٥٩ .

(١٣٦) سمكة : المرجع السابق ، ج ٥١ ، ص ١٤٥ .

(١٣٧) البراوى : المرجع السابق ، ص ١٧٤ .

(١٣٨) سمكة : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٤٥ .

ازدهار هذه الصناعة في مصر الفاطمية (١٣٩) ، وتفوقها عما كانت عليه في عصر الولاة (١٤٠) .

وعرف عن الصناع من المصريين وبخاصة الأقباط مهارتهم الفائقة في استخدام الذهب والفضة في صنع أدوات الترف والحلى والسروج والسيوف والمصاحف المذهبة والملابس الموشاة وكثير من التحف التي رصعت بالأحجار الكريمة ونقشت عليها زخارف جميلة ، وكلها تنم عن دقة الصناعة وجمال الفن ، ورواج صناعة الذهب والفضة وتقدمها ورقيا في ذلك العصر (١٤١) ، والدليل على ذلك ما وجد بخزائن القصور الفاطمية ، وخزائن كبار رجال الدولة من تحف وذخائر من الذهب والفضة .

وكثر استخدام النحاس في صناعة الأواني والأدوات المنزلية ، فقد اكتشفت مجموعة من المصنوعات النحاسية في خرائب الفيوم ترجع الى القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي تشتمل على أدوات نحاسية للمائدة من صينية وأطباق نحاسية ووعاء للفاكهة (عليها رسوم أسماك ونصوص قبطية نقش عليها اسم صاحبها وتاريخ صنعائها) ، كما عثر على دست من النحاس (عليه رسوم طيور بارزة وعلى غطاءه صورة السيد المسيح مصلوبا) ، وعلى ابريقين من نحاس نقش على واحد منهما رسم صليب ، وعلى الآخر أشكال نباتية وعلى الغطاء رسمت حروف قبطية ، هذا بجانب قدرتين من النحاس أيضا على واحدة منها نصوص قبطية وعلى الأخرى نصوص قبطية وتركية ، وكذلك وجدت عدة مسابح نحاسية .

(١٣٩) زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ، ص ٢٤٢ .

(١٤٠) البراوى : المرجع السابق ، ص ١٧٢ .

(١٤١) سميكة : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ .

— حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ، ج ٤ ، ص ٢٩٥ .

ومن بين هذه المجموعة قبة مذبح من نحاس ترتكز على أربعة أعمدة على كل منها صليب مفرغ ، وعلى القبة والصلبان نصوص قبطية باسم الصانع والتاريخ ، كما وجدت بعض الأبواب وقد استخدم الصانع معدن النحاس في عمل النقوش عليها ، وكل هذه الأدوات النحاسية والنقوش التي عليها تعطينا دلالة واضحة على مهارة الصانع من الأقباط الذين برعوا في هذه الصناعة (١٤٢) .

كما استخدم هؤلاء الصانع البرونز في صناعة المباخر وصنابير الألوان وغير ذلك من الأشياء الدقيقة التي عملت بعضها على هيئة الحيوان أو الطير (١٤٣) .

وفي خرائب الفيوم عشر على عدة أبواب من الخشب صنعت إطاراتها من البرونز وعلى بعضها رسوم بارزة من البرونز لصور الملائكة والقديسين ، ورسوم صلبان وعليها نقوش بارزة باللغة القبطية واليونانية ، وعليها اسم الصانع ، ومعظمها يرجع الى القرنين الرابع والخامس الهجريين ، ويرى علماء الآثار الاسلامية أن التحف القبطية العادية لا تختلف عن التحف الاسلامية الا في اضافة صليب أو نص قبطي الى زخرفتها (١٤٤) .

وعرف عن الصانع المصريين دقتهم ومهارتهم في التكفيت ، اذ وجدت في القاهرة عدة حوانيت لعمل الكفت وهو ما تطعم أو تطلي

(١٤٢) سيكة : المرجع السابق ج ١ ، ص ٩٠ ، ٩٣ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ١٠٣ ،

• ١١١

(١٤٣) زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ، ص ٢٣٤

— البراقع : المرجع السابق ، ص ١٧٣ .

(١٤٤) زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ، ص ٢٤٢ .

به أواني النحاس من الذهب والفضة نظرا لاقبال الناس في مصر على هذا الصنف من المصنوعات (١٤٥) .

واستخدم الحديد فيما يلزم صناعة البناء وبعض الصناعات والآلات البسيطة (١٤٦) ، واشتهرت بعض المدن الصناعية الكبرى في ذلك الوقت بصناعة الآلات الحديدية ، ففي مدينة القسطنطينية عرفت صناعة الحديد المستورد من أوروبا وصقلية وبلاد المغرب (١٤٧) ، ويتحدث المقرئ عن « المناخ السعيد » وهو الحي الذي سكنته جالية كبيرة من الأجانب ، والذي كان مركزا لصناعة الحديد وآلات الأساطيل من الأسلحة « المعمولة بيد الفرنج القاطنين فيه » (١٤٨) ، ويذكر ناصري خسرو أن الصناع في مدينة تنيس كانوا « يصنعون بها آلات الحديد كالمقراض والسكين » وأنه رأى مقراضا صنع بتنيس بلغ خمسة دنانير مغربية (١٤٩) ولا ننسى أن أغلب سكان تلك المدينة كانوا من الأقباط ، كما استخدم الحديد في صنع بعض الأشياء البسيطة ، فقد وجد في كنيسة أبي سيفين كرسى من الحديد يرجع إلى القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي (١٥٠) .

وقد استخدم العاج في صناعة أشياء كثيرة كقطع الشطرنج والنرد والعلب الصغيرة الثمينة المطعمة بالعاج (١٥١) .

-
- (١٤٥) حسن إبراهيم : تاريخ الاسلام ، ج ٤ ، ص ٣٩٥ .
 - (١٤٦) البراوي : المرجع السابق ، ص ١٧٢ .
 - (١٤٧) حسن إبراهيم : تاريخ الاسلام ، ج ٤ ، ص ٣٩٤ .
 - (١٤٨) المقرئ : الخطط ، ج ١ ، ص ٤٤٣ .
 - (١٤٩) ناصري خسرو : المصدر السابق ، ص ٤٠ .
 - (١٥٠) سمكة : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٠٠ .
 - (١٥١) البراوي : المرجع السابق ، ص ١٧٤ .

وفي القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى يتحدث
ناصرى خسرو عن « ألياب الفيل » المستورد من زنجبار والتي
شاهدها فى أسواق مدينة القسطنطينية ، كما رأى الأمشاط ومقابض
السكاكين والتي عدّها ناصرى خسرو من طرائف ما شاهده بأسواق
مصر (١٥٢) .

وكان التطعيم أكثر المجالات التي استخدم فيها العاج على يد
الصناع من القبط ، وكان طبيعيا أن يتأثر الصناع المسلمون بأساليب
الفن القبطي فى عمل حشوات العاج الكاملة ، إذ أن صناعة النقش
على العاج التي برع فيها الصناع الأقباط تركزت فى الأقاليم التي
يكثر فيها السكان الأقباط (١٥٣) .

(د) صناعة الورق والتجليد :

اشتهرت مصر بصناعة ورق البردى وظلت تحتكر هذه الصناعة
طوال عصر الولاة ، وكان معظم الصناع المشتغلين بصناعة ورق
البردى من القبط ، غير أن صناعة أعداد ورق البردى للكتابة انتهت
فى مصر حوالى القرن الرابع الهجرى ، وحل الكافد الذي كان يصنع
فى سمرقند والصين محل البردى فى الكتابة (١٥٤) .

ومع مجيء الفاطميين الى مصر اهتمت الدولة بالحركة العلمية ،
وجمعت نوادر الكتب والمخطوطات لتضم الى خزانة الكتب الفاطمية

(١٥٢) ناصرى خسرو : المصدر السابق ، ص ٥٩ .

(١٥٣) زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ، ص ٢٢٥ .

(١٥٤) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ، ج ٣ ، ص ٣٢٥ .

- متز : الحضارة الإسلامية فى ق ٤ ، ج ٢ ، ص ٢٠٨ ، ٢١٩ .

لتصبح منافسا عملاقا لمكتبات بغداد وقرطبة ، كما شجع الخلفاء الباحثين والدارسين وطلاب العلم ، وكان الجامع الأزهر أعظم جامعة اسلامية في ذلك العصر (١٥٥) ، وأصبحت « دار الحكمة » مفخرة العصر بما ضمته من كتب ومؤلفات وكل ما يمت الى الحركة العلمية بصلة (١٥٦) .

وكان لكبار رجال الدولة من أهل الذمة سواء من اعتنق منهم الاسلام حديثا أو ظل على دينه دور بارز في هذا المجال ، فكان للوزير ابن كلس دوره الهام في خلق نواة الجامعة الأزهرية التي كانت مركز اشعاع في مصر الفاطمية (١٥٧) ، كما أنشأ ابن كلس في قصره خزانة للدفاتر ، وجعل على رأسها ناظرا للإشراف عليها ، ووفر لها جماعة من النساخ والمشتغلين بتجليد الكتب والدفاتر (١٥٨) .

وقد ضمت المكتبات الخاصة بأهل الذمة وبخاصة الأطباء منهم الكثير من الكتب العلمية والمخطوطات النادرة ، أو الكتب العلمية التي قاموا بتأليفها بتكليف من الخلفاء أو تقربا اليهم (١٥٩) . كذلك امتلأت كنائس وأديرة الأقباط بنقائس الكتب والمصنفات الدينية والمؤلفات والكتب المترجمة الى العربية ، هذا بجانب اقتناء البعض من القبط العديد من الكتب . وعلى الرغم من أن الكثير من الكتب والمخطوطات التي كانت في حوزة الكنائس والأديرة والأفراد قد أهملت أو تبدد الكثير منها ، الا أنه قد بقيت بعض الكتب والمجلدات كاملة ، فقد عثر على بقايا كتب وقطع من

(١٥٥) البراوي : المرجع السابق ، ص ١٦٠ ، ١٦١ .

- ماجد : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر ، ص ٢٣٢ .

- سرور : مصر في عصر الدولة الفاطمية ، ص ٢١٨ ، ٢١٩ .

(١٥٦) عنان : تاريخ الجامع الأزهر ، ص ٥٠ .

- ماجد : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر ، ص ٢٣٢ .

(١٥٧) زكي محمد حسن : كنوز الفاطميين ، ص ٣١ ، ٣٢ .

(١٥٨) المقرئ : الخطط ، ج ٢ ، ص ٥٥ .

(١٥٩) ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص ٥٤٥ ، ٥٤٨ ، ٥٤٩ .

البردى والرقوق محفوظة الآن بمتاحف أوروبا وأمريكا والمتحف القبطي بالقاهرة ودار البطركية القبطية بمصر (١٦٠) .

وقد استعمل الأقباط البردى فى الكتابة حتى القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى ، ثم استبدل الأقباط البردى بالرقوق التى استمر استعمالها الى القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى ، ويوجد من هذه الرقوق عدة مجلدات كاملة • ومن أحدث الكتب المخطوطة على الرق كتاب تكريز الكنائس الجدد بمكتبة دير السريان ، وتاريخه يرجع الى سنة ١١٨١ م ، ثم استعملوا أخيرا الورق الكتان (١٦١) ، وهو نوع من الورق المطبوع من الكتان والقطن • وكانت القسطاط من أعظم مراكز انتاج الورق (١٦٢) .

وكانت عملية التجليد تشمل الجلد والبطانة والحريز ، كما استعمل الورق فى البطانة ، بعد أن حل البردى فى الكتابة ، واستعمل الصنائع جلود العجول واستخدموا الحريز والديساج والأطلس فى التجليد وبخاصة تجليد المصاحف (١٦٣) .

وقد عثر على بعض الجلود التى ترجع الى القرن الرابع الهجرى ، وهى عظيمة الشأن ، لأن تأثير الصناعة والفن القبطى ظاهر فيها ، وفى بعض الجلود زخارف مجدولة ووريقات شجر مهندبة تقليدية تتخذ أحيانا شكل القلب وفى بطانة جلدة منها نرى آثار رسم رسوم هندسية ونباتات ورسم طائر صغير ووريدات جميلة • ويرى علماء

(١٦٠) سميكة : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٣٨ ، ٣٩ .

(١٦١) — : نفس المرجع السابق ، ص ٣٩ .

(١٦٢) البراوى : المرجع السابق ، ص ١٦٢ .

(١٦٣) — : نفس المرجع والصفحة •

الآثار الإسلامية أنه من الصعب التمييز بين جلود العصر الفاطمي والجلود التي صنعت في القرن الذي سبق قدوم الفاطميين إلى مصر، لأن التطور كان بطيئاً ، غير أن أساليب الصناعة قد استقرت في هذا العصر ، وازدهر الفن طبقاً لناموس العرض والطلب (١٦٤) .

(هـ) صناعة الزجاج والبلور الصخرى والخزف :

بلغت صناعة الزجاج أرقى درجات الفن في عصر الفاطميين . وكثر الطلب عليها نظراً لضخامة النهضة العمرانية التي عمت البلاد ، وتعدد الأغراض التي استخدم فيها الزجاج ، فقد اشتهرت بعض المدن بصناعة الزجاج ومن أهمها الفسطاط ، والقيوم ، والأشمونيين ، والشيخ عبادة (بكورة البهنسا ، المنيا الآن) ، والاسكندرية (١٦٥) ، كما راجت تجارة الصناعات الزجاجية ، فقد عثر على بقايا تحف ونماذج زجاجية في كثير من المدن مثل مدينة حابو ، وكوم بلال ، وقوص ، وأبيدوس ، وأخميم ، وأسيوط ، والمنيا ، والبهنسا ، واهناسيا المدينة ، وهوارة ، وأطفيح ، وسقارة وميت رهينة ، وكوم الأتريب (١٦٦) .

وكانت أرقى المصنوعات الزجاجية هي الزجاج المذهب المزين بزخارف نها بريق معدني ، التي حاول فيه الصناع تقليد البلور الصخرى (١٦٧) .

(١٦٤) زكي محمد حسن : كنوز الفاطميين ، ص ١٠٧ ، ١٠٨ .

(١٦٥) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ، ج ٤ ، ص ٣٩٧ .

(١٦٦) البراوي : المرجع السابق ، ص ١٥٦ ، وكذلك الحاشية رقم ٢ بنفس الصفحة .

(١٦٧) — : المرجع السابق ، ص ١٦٩ .

أما عن صناعة البلور الصخرى ، فقد تحدث عن تلك الصناعة ناصرى خسرو أثناء جولته « بسوق القناديل » بالفسطاط ، فقد رأى معلمين مهرة ينحتون بلورا غاية في الجمال « وكان يستورد من بلاد المغرب كما كان يستخرج بالقرب من ساحل البحر الأحمر (١٦٨) ، وكان وجود البلور الصخرى في مصر سببا في انخفاض ثمنه ووفرة انتاج التحف البلورية ، وفي خزائن القصور الفاطمية شاهد أحد المستخدمين في بيت المال صندوقا من الصناديق التي نهبت من قصور المستنصر ذات رسوم ، وهو مملوء بأباريق من البلور النفيس بعضها منقوش بزخارف ورسومات جميلة وبعضها غير منقوش ويبدو أنها كانت لشراب الفقاع (١٦٩) .

وتركت الرسوم والزخارف القبطية أثرها على الخزف ذي البريق المعدني الذي كان فخر صناعة الفخار في مصر الفاطمية ، وقد تفوقت صناعة الخزف ذي البريق المعدني على أيدي الصناع المصريين ، فصنعوا منه الأزيار الكبار والأواني المستعملة في حفظ العطور والبخور وكثيرا من الأشياء التي يستخدمها الناس ، كما امتلأت الخزائن في قصور الخلفاء الفاطميين وكبار رجال الدولة بروائع التحف الخزفية (١٧٠) .

وكان لتوفر الطين الأصفر بمصر الذي يصنع منه الخزف (١٧١) ، أن توافر انتاج الأواني الخزفية الممتازة ، وقد شاهد ناصرى خسرو في أسواق الفسطاط الأقداح والصحاف التي

(١٦٨) ناصرى خسرو : المصدر السابق ، ص ٥٩ .

(١٦٩) زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ، ص ٤٤ .

(١٧٠) — : نفس المرجع ، ص ١٥٧ .

— ديماند : المرجع السابق ، ص ٢١٦ .

(١٧١) أبو صالح الأرمني : المصدر السابق : ص ٥٣ .

بلغ من جودتها أنه رأى يده بوضوح يظهر الاناء ، وكان التجار يضعون ما يبيعونه فى أوانى من الخزف بدلا من الورق (١٧٢) .

وكان أشهر صانعى الخزف فى مصر الفاطمية مسلم وسعد ، وقد اشتهرت مدرسة مسلم وتلاميذه بالزخارف الحيوانية والآدمية والنباتية فى زخرفة الأوانى الخزفية فضلا عن الحروف الكوفية (١٧٣) .

وتبدو الصلة بين ما أنتجه سعد ومدرسته وبين الخزف ذى البريق المعدنى قبل العصر الفاطمى ، ولاسيما فى رسوم الحيوانات (١٧٤) .

ولا غرو فقد كانت رسوم الحيوان والرسوم الآدمية العنصر الأساسى فى زخارف العصر الفاطمى ، بجانب رسوم الطيور والفروع النباتية والأوراق ، ذلك أن الفن القبطى ترك أثرا واضحا فى زخرفة الخزف ، وهناك قطعة من الخزف ذى البريق المعدنى عليها رسم السيد المسيح ، وحولها اكليل النور المعروف ، كما ظهر فى الرسوم الأسلوب البيزنطى واضحا ، وهذه القطعة من إنتاج مدرسة سعد ، وظن ذلك لوجود صورة السيد المسيح على أنه من المحتمل أن سعدا كان من سلالة الأقباط (١٧٥) .

أما عن صناعة الفخار الذى كان يصنع من الطين ، فكانت صناعته واسعة الانتشار فى بلاد الصعيد الأعلى حيث يوجد أجود أنواع الطمى ، ومنه كانوا يصنعون الأزيار والقلل وأوعية الخل

(١٧٢) البراوى : المرجع السابق ، ص ١٦٧ .

(١٧٣) زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ، ص ١٥٧ .

(١٧٤) ديمانند : المرجع السابق ، ص ٢١٦ .

(١٧٥) زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ، ص ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٦١ .

١٦٢ ، ١٦٣ .

والنبيذ والسمن وجرار العسل وكثيرا من الأشياء التي كان يستخدمها العامة (١٧٦) .

على أن الكثير من أواني الخل والفقاع والنبيذ وجرار العسل والمزر والنيدة قد تعرضت للكسر والابادة ابان خلافة الحاكم بأمر الله تنفيذا لما جاء بالسجلات التي أصدرها الحاكم بشأن المسكرات (١٧٧) ، وقد أثر ذلك على صناعة الفخار (١٧٨) .

(و) صناعة الخمر :

ان ما ساد الحياة الاجتماعية والاقتصادية في العصر الفاطمي الأول من ازدهار وانتعاش ، ومن انتشار روح اللهو والمرح وبخاصة في الاحتفالات والمواسم والأعياد المختلفة التي كثرت في ذلك العصر ، وما شاب هذه الاحتفالات من المجون والفساد قد أدى الى انتشار عادة شرب المسكرات بمختلف أنواعها بين كثير من الناس .

لذلك انتشرت صناعة الخمر انتشارا كبيرا لكثرة الطلب عليها ، وازدهرت تلك الصناعة في المراكز الصناعية والتجارية الكبرى في مصر ، فكانت الفسطاط والقاهرة من مراكز صناعة الخمر ، وكانت الاسكندرية بوجه خاص من أهم مراكز تلك الصناعة (١٧٩) .

-
- (١٧٦) البراوى : المرجع السابق : ص ١٦٧ .
 - (١٧٧) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ٢٠٠ .
 - - الخويرى : المصدر السابق ، ج ٢٦ ، ورقة ٥٦ .
 - (١٧٨) زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ، ص ٤٤ .
 - (١٧٩) البراوى : المرجع السابق ، ص ١٨٣ ، ١٨٤ .

كما وجدت معاصر الخمور في المدن الصناعية الكبرى
كتنيس حيث تكثر حولها مزارع الكروم ويغلب على سكانها الصناعات
من القبط (١٨٠) .

وفي ريف مصر كانت الخمور تعصر بكثرة وبخاصة في
موسم نضج محصول العنب ، « ففي شهر مسرى يكون وفاء النيل ،
وفيه يعصر قبط مصر الخمر » (١٨١) وكان معظم الانتاج من
النبيذ في الريف يستهلك محليا ولا يصل منه المدن الكبرى
الا كميات قليلة ، ولذلك ارتفعت أسعار النبيذ في المدن لكثرة
الاقبال عليها (١٨٢) .

واشتهرت منطقة شبرا ونواحيها التي يغلب على سكانها
الاقباط من أهل البلاد بأنها كانت واحدة من أكبر مراكز عصر
الخمور في مصر ، وكان فلاحو شبرا يعتمدون دائما في وفاء
الخروج على ما ينتجونه من الخمر وما يبيعونه منه في عيد
الشهيد (١٨٣) .

وفي الأديرة كانت تزرع الأعناب ومنها يعصر الرهبان
النبيذ ، ويصنعون الزبيب لاستعمالهم داخل الدير (١٨٤) ،
كما أن بعض هذه الأديرة كان مقصدا للناس للنزهة
والتسلية (١٨٥) .

١٨٠) ابن خلدون ، المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٧٨ .

(١٨١) المقرئ : الخط ، ج ١ ، ص ٢٧٢ .

(١٨٢) — : نفس المصدر ، ص ١٢٩ ، ٣٦٧ .

(١٨٣) — : نفس المصدر ، ص ٦٧ ، ٦٨ .

(١٨٤) أبو صالح الأرمي : المصدر السابق ، ص ٩٦ .

— ابن فضل الله العمري : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٣٧ .

(١٨٥) — : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٣٧٣ .

ويعتبر النبيذ المستخرج من الكروم من أجود أنواع الخمر، وكان استعماله يكاد يكون قاصرا على الأثرياء وأفراد الطبقة العليا في المجتمع لارتفاع ثمنه (١٨٦)، أما الغالبية العظمى من المستهلكين للمسكرات فكانوا يحتسون الفقاع، وهو نوع من البيرة كان شائعا في القاهرة ابان عصر الفاطميين (١٨٧)، كما كانوا يشربون المزر والنيدة، وكانا يصنعان من القمح والشعير (١٨٨)، هذا بجانب أنهم كانوا يتخذون من العسل شرابا مسكرا (١٨٩). والواقع أن صناعة عصر الخمر كانت منتشرة في أنحاء مصر وكان الانتاج وفيرا، وليس أدل على كثرة الخمر وانتشارها في البلاد من تلك الكميات التي كانت تباع في ناحية شبرا وحدها والتي بلغت قيمة ما بيع منها في أحد أيام عيد الشهيد بما ينيف على مائة ألف درهم فضة عنها خمسة آلاف دينار ذهباً (١٩٠).

وعلى الرغم من انتعاش صناعة عصر الخمر في بداية العصر الفاطمي، فإن صناعة المسكرات لم تتعرض للحد من انتاجها والتضييق عليها الا في القليل النادر أيام خلافة المعز لدين الله وابنه العزيز بالله الفاطمي، عندما كانت تصدر الأوامر بالغناء بعض الأعياد أو تقييدها، ثم العودة اليها مرة ثانية.

وكان لكثرة ما ارتكب في بعض احتفالات الأعياد والمواسم من المعاصي والفجور، وما اقترن بها من كثرة شرب المسكرات وانتشار الفساد بصورة فاضحة وعلى نطاق واسع (١٩١)،

(١٨٦) البراوى : المرجع السابق ، ص ١٨٤ .

(١٨٧) ناصري خسرو : المصدر السابق ، ص ٤٩ .

(١٨٨) البراوى : المرجع السابق ، ص ١٨٤ .

(١٨٩) سبط بن الجوزي : المصدر السابق ، ج ١١ ، ورقة ٤٠٢ .

(١٩٠) المقرئ : الخطط ، ج ١ ، ص ٦٧ ، ٦٨ .

(١٩١) — : نفس المصدر ، ص ٢٢٤ .

أن أخذ الحاكم بأمر الله يطارد صناعة المسكرات وعصر الخمر بصورة لا تعرف الكلل ، وأصدر عدة سجلات فرضت القيود على تلك الصناعة ، وأخذ يصادر الكروم ومخازن النبيذ والفقاع والمزر والنيدة والزبيب والعسل ويشدد من تعليماته في هذا الشأن بهدف إبادتها ، وكان الباعث على إصدار هذه التعليمات ما أملته روح الإصلاح الحقبة ، فقد كان الحاكم يهدف إلى رفع المستوى الخلقي بين أفراد رعيته (١٩٢) .

ومن هنا صدرت سلسلة من المراسيم والسجلات بين الحين والآخر تطارد هذه الصناعة وتضيق الخناق على المشتغلين بها . ففي ربيع الآخر سنة ٣٩٠ هـ منع الحاكم من أكل الزبيب وأحرق كميات منه في جيزة مصر (١٩٣) ، كما صدر الأمر بمنع بيع النبيذ وألا يظهر شيء منه وكسر ما كان للخمارين وأصحاب المواخير منه ، وأمر بإزالة الأماكن التي كان أهل الفساد والفجور يأوون إليها ويجتمعون بها وفرق جموعهم (١٩٤) وفي ربيع الأول من سنة ٣٩٢ هـ قرئ سجل الحاكم بمنع المسكرات ، كما صادر عدة أماكن وأراق ما بها من مسكرات (١٩٥) .

وتخوفا من عصر الخمر أمر الحاكم بأمر الله في السنة التالية بقطع الكروم في أنحاء مصر وبخاصة في الفسطاط والقاهرة والصعيد والاسكندرية ودمياط وأباد معظمها (١٩٦) ، وفي المحرم سنة ٣٩٥ هـ أصدر الحاكم بأمر الله مرسوماً بمنع عمل الفقاع والترسس العهن ، وأمر بالتشديد في تنفيذ أوامره والمبالغ في تأديب

(١٩٢) لين بول : المرجع السابق ، ص ١٣٤ ، ١٣٥ .

(١٩٣) ابن ظافر : المصدر السابق ، ورقة ٥٦ .

(١٩٤) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٨٦ .

(١٩٥) المقرئ : اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ، ص ٤٤ .

(١٩٦) سبط بن الجوزي : المصدر السابق ، ج ١١ ، ورقة ٢٧٦ .

المخالفين ، وتعقب في كل مكان المشتغلين بصناعة الفقاع وبيعه ، وعاقبهم بالضرب والشهر ، وقل من نجا منهم من القتل (١٩٧) ، وكسر كل ما عثر عليه من أواني الخمور وأريق ما بها من مسكرات (١٩٨) .

غير أن الناس وجدوا الفرصة سانحة في العودة الى شرب الفقاع أثناء انشغال الحاكم بأمر الله بمطاردة أبي ركة الذي كان قد خرج على طاعته ، ثم ان الحاكم بأمر الله نفسه أقبل على شرب النبيذ بعد أن جنح الى مشورة طبيبه يعقوب بن نسطاس لما للنبيذ من منافع ، فاطمأن الناس وزاد اقبالهم على احتساء الخمور وخاصة أنه لم يبال بما سبق أن أصدره من مراسيم وسجلات في هذا الشأن ، بل انه استدعى الى مجلسه جماعة المغنين وأصحاب الملاهي ، وشرب على أنغامهم وخلع عليهم وقربهم اليه ، على أنه بوفاة يعقوب بن نسطاس الطبيب امتنع الحاكم عن شرب النبيذ ، وعاد مرة أخرى الى سابق عهده يطارد المسكرات وصناعتها وتجارتها وكسر الأواني والجرار التي كانت تعبأ فيها (١٩٩)

وفي سنة ٣٩٧ هـ / ١٠٠٦ م منع الحاكم بأمر الله من التظاهر بالغناء ومن ركوب البحر (لانخفاض النيل) ، وبيع المسكرات ومنع الفقاع ، وفي شهر صفر من العام نفسه قبض على بعض المستطيل للفلق وضربهم وشهر بهم لمخالفتهم أوامره (٢٠٠) .

(١٩٧) النويري : المصدر السابق ، ج ٢٦ ، ورقة ٥٦ .

- العيني : المصدر السابق ، ج ١٩ ، ورقة ٦٧٨ .

(١٩٨) المقرئ : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٨٥ .

(١٩٩) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٨٨ .

(٢٠٠) المقرئ : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٨٦ .

وفى سجل أصدره فى ربيع الآخر سنة ٣٩٩ هـ أمر بآلا يحمل شىء من النبيذ والمزر ولا يتظاهر بشىء منه ولا بشىء من الفقاع والترمس العفن ، وأمر بقتل من يضبط سكرانا (٢٠١) ، وفى صفر من العام التالى شهر بجماعة بعدما ضربوا بسبب الفقاع والترمس (٢٠٢) .

ولقد وصلت إلينا صورة من سجل أصدره الحاكم فى شهر ذى القعدة سنة ٤٠٠ هـ ، نهى فيه الكافة عن الإلمام بالمسكر ، أو شربه ، على اختلاف أصنافه وأسمائه وألوانه وطعومه ، قليلة وكثيرة ، كما نهى عن اقتنائه أو عمله واعتصاره ، وطالب رجال دولته المسئولين بتعقب المخالفين لأوامره (٢٠٣) .

وفى شهر رمضان سنة ٤٠١ هـ أصدر الحاكم بأمر الله منشورا عاما فى سائر أنحاء دولته بشأن المسكرات ، جدد فيه التحذير من عمل النبيذ ومن شربه سرا وجهرا ، وحذر مشددا من اخفائه أو استبقاء شىء منه ، كما أمر بكسر ما عند الناس من الجرار والظروف الفرغ والدنان وأراق ما بها من نبيذ وعسل وزبيب ، وتعقب دور الملاحى فأغلقها وكسرها بها من أواني للخمر ، وأمر بنفى المغنين وأصحاب الملاحى ، ولما استغاثوا به عفا عنهم شريطة عدم العودة الى ما كانوا عليه ، وحظر على النصارى تقديم شراب النبيذ أثناء اقامتهم للشعائر الدينية فى الأعياد ، على أن الناس لم يلتزموا بذلك ، ففى موسم العنب من هذا العام أخذ الناس فى اعتصاره سرا مما دعا الحاكم بأمر الله الى تغريق العنب فى النيل (٢٠٤) .

(٢٠١) ابن أبيك : المصدر السابق ، ج ٦ ، ورقة ١٧٠ .

(٢٠٢) المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٤١ .

(٢٠٣) رسائل الدعاة : مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٣٧ عقائد ونحل ،

ورقة ١٠ ، ١١ .

(٢٠٤) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ٢٠٠ - ٢٠٢ .

وفي المحرم سنة ٤٠٢ هـ قلدت الشرطتان ، لمحمد بن نزال ،
وصدرت اليه الأوامر بمضاعفة الحزم والرقابة في تتبع المسكرات
ومنعها. (٢٠٥) . كما جاء في سجل تعيين عين أحد حكام القاهرة
في عهد الحاكم بأمر الله والصادر في تاسع ربيع الآخر سنة
٤٠٢ هـ تعقب صناعة النبيذ وجميع أنواع المسكرات (٢٠٦) ، وفي
شهر شعبان من نفس العام ، أصدر سجلا شاملا بتعقب تلك
الصناعة ومصادر صناعتها في سائر أنحاء الدولة ، وإباد كميات
كبيرة من الزبيب ، وبلغ جملة ما أحرقه من زبيب في خمسة عشر
يوما حوالى ألفين وثمانمائة وأربعين قطعة زبيب ، وبلغت تكاليف ما
أنفق في أحراقها خمسمائة دينار (٢٠٧) .

وواصل الحاكم بأمر الله حملته على المسكرات أينما وجدت ،
ففي سنة ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م أراق كثيرا من الخمر وأحرق
كميات ضخمة من الزبيب ، وكسر جسر العسل ، وكان
جملة ما أحصى ما بين ظرف وزير وخابية عدته إحدى عشرة ألف
قطعة (٢٠٨) .

وإذا كانت أنواع المسكرات كالنبيذ والفقاع والمزر والنيذة
والزبيب والعسل - حيث يصنع من الأخيرين المسكر - قد تدهورت
صناعتها في خلافة الحاكم بأمر الله الذي أصدر القوانين الصارمة
بمنعها وتعقبها وانزال أقصى العقوبات بالمشتغلين في مجالها ،
فان هذه الصناعة قد انتعشت من جديد في خلافة الظاهر لأعزاز

(٢٠٥) عنان : الحاكم بأمر الله ، ص ١٣٠ .

(٢٠٦) المقرئ : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٩٦ .

(٢٠٧) — : نفس المصدر ، ص ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٨٦ .

(٢٠٨) النويري : المصدر السابق ، ج ٢٦ ، ورقة ٥٦ .

— ابن أبيك : المصدر السابق ، ج ٦ ، ورقة ١٧٢ .

دين الله عندما أغفل ما سبق صدوره من القوانين المحرمة لشرب
المسكرات ، فأقبل الناس على احتسائها وارتياح الملاحى ، بل ان
الخليفة الظاهر نفسه أقبل على شرب الخمر ، ومجالس الطرب
والغناء ، فازداد حب الناس لحياة اللهو والمقاني وشرب
المسكرات (٢٠٩) .

وشهد عصر المستنصر بالله الفاطمى مزيدا من اقبال الناس
على شرب الخمر ، وبالتالي ازداد الطلب عليها وراجت صناعتها .

فكان الخليفة المستنصر بالله يشرب الخمر ، ويسقيها
الناس ، وكان يخرج فى كل سنة مع النساء والحشم الى جب
عميرة بهيئة أنه خارج للحج على سبيل الهزؤ والمجانة ومعه الخمر
فى الروايا عوضا عن الماء ويسقيه الناس (٢١٠) .

هذا مع ما صاحب عصر المستنصر بالله فى أيام الرخاء من
اقبال الناس على الحفلات والأعياد والمناسبات والمتنزهات ، وطلب
الناس شرب المسكرات مما أدى الى ازدهار وانتعاش صناعة
النبيذ والزبيب والفقاع والمزر والنيدة وكل ما يتخذ منه مسكرا .

(ز) صناعة السكر والعسل :

شهدت مصر فى العصر الفاطمى الأول انطلاقة كبيرة فى
صناعة السكر والعسل ، فقد عرفت البلاد فى هذا العصر العديد
من الأعياد والمناسبات والمواسم والاحتفالات التى شددت اهتمام
الناس على اختلاف طبقاتهم ، بجانب ما أدخله الفاطميون من

(٢٠٩) المقرئى الحنفا ، ج ٣ ، ص ١٢٩ .

— : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٥٣ ، ٢٥٤ .

(٢١٠) — : الخطط ، ج ٢ ، ص ١٦٢ .

تقاليد وما جرى به العادة في شتى المناسبات على عمل الأسبطة التي زخرت بألوان الطعام والشراب وأنواع الحلوى ، كما كانت الولايم تعتبر من وسائل التسلية في هذا العصر ، وتطلب ذلك الاهتمام بصناعة السكر والعسل والحلوى والفطائر والكعك (٢١١) .

وحيث توجد مناطق زراعة القصب تكثر مراكز صناعه السكر ومعاصر القصب ومعامل العسل ، ومن أشهر مراكز صناعة السكر والعسل في العصر الفاطمي الأول مدينة الفسطاط (٢١٢) ، والفيوم (٢١٣) ، وقفت (٢١٤) ، وسهمود (٢١٥) . وأسسيوط (٢١٦) ، وترنوط (٢١٧) ، وفي بعض هذه المراكز كانفيوم وأسسيوط وترنوط يغلب عليها السكان من القبط .

وكانت مطابخ السكر ومعامل العسل في مدينة الفسطاط ، وكانت بعض تلك المطابخ والمعامل في حوزة عدد من اليهود القطنين في تلك المدينة الصناعية الكبرى (٢١٨) ، واشتهرت مدينة قفت بكثرة ما بها من مسابك السكر ومعاصره (٢١٩) ، كما كانت أسسيوط تنتج سائر أنواع السكر (٢٢٠) ، ويتضح مما

(٢١١) البراوى : المرجع السابق ، ص ١٧٦ .

(٢١٢) ابن دقماق : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٤١ ، ٤٢ .

(٢١٣) أبو عثمان الصفدي : المصدر السابق ، ص ٢٩ ، ٤٠ .

(٢١٤) المقرئ : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٣١ .

(٢١٥) ابن ظهيره : المصدر السابق ، ص ٦٤ .

(٢١٦) ياقوت : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٩٣ .

(٢١٧) البراوى : المرجع السابق ، ص ١٧٨ ، حاشية ١ .

(٢١٨) ابن دقماق : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٤٢ ، ٤٣ .

(٢١٩) المقرئ : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٣١ .

(٢٢٠) ياقوت : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٥١ .

ذكره أبو عثمان الصفدى أن معاصر القصب كانت منتشرة فى بلاد الفيوم وأن العديد من تلك المعاصر الملحقة ببعض النواحي كان أصحابها من الأقباط ، وأن تلك المعاصر كانت تكون من حجرتين وتدور بالأبقار (٢٢١) .

وعرف عن سمهود أنها كانت « كثيرة المعاصر لقصب السكر » (٢٢٢) ، وكان لكثرة مطابخ السكر ومعامل العسل ومعاصر القصب ووفرة الانتاج أن رخصت أسعار الحلوى وكثرت أسواقها .

غير أن صناعة العسل تعرضت للتدهور عدة سنوات إبان خلافة الحاكم بأمر الله ، وانخفض انتاج العسل بسبب قراراته بشأن تحريم المسكرات ، اذ كان يتخذ من العسل مسكرا ، مما دفع الحاكم بأمر الله الى أن يأمر باراقة كميات ضخمة من العسل وكسر جراره أينما وجدت ، وحددت الكمية للمستهلك عند الشراء ، بل قل وجوده فى الأسواق ، وارتفع ثمنه لكثرة الطلب عليه ، بالدرجة التى كان يعادل ثمن أوقية بدينار فلم توجد (٢٢٣) .

وبانتهاء عصر الحاكم بأمر الله زاد الاقبال على الاحتفال بالمناسبات والأعياد وأقبل الناس على مظاهر الترف واللهو ، وزاد الطلب على السكر والعسل ، مما أدى الى انتعاش تلك الصناعة ، وانتاج كميات كبيرة منها ، ويؤكد هذه الحقيقة فى عصر المستنصر بالله الرحالة ناصرى خسرو بقوله « وتنتج مصر عسلا وسكرا كثيرا » (٢٢٤) .

(٢٢١) الصفدى : المصدر السابق ، ص ٢٩ ، ٤٠ .

(٢٢٢) ابن ظهيره : المصدر السابق ، ص ٦٤ .

(٢٢٣) ابن أيبك : المصدر السابق ، ج ٦ ، ورقة ١٧٢ .

(٢٢٤) ناصرى خسرو : المصدر السابق ، ص ٦٠ .

النشاط التجاري لأهل الدولة

كان لاهتمام الخلفاء الفاطميين بالتجارة أثره في ازدهار الحركة التجارية في مصر في العصر الفاطمي الأول ، ففي هذا العصر كثرت الحاصلات الزراعية نتيجة للاهتمام بالزراعة ، وازدهر الكثير من الصناعات ، وزاد الطلب عليها ، كما توفر عنصر الأمن وشمل الجميع العدل والطمأنينة ، وأحكمت الرقابة على الأسواق ، ومنح الخلفاء الفاطميون التجار الأجانب الذين يفدون الى مصر العديد من الامتيازات ، كما منحوهم حق الإقامة في فنادق خاصة بهم ، بل والسكن في أحياء خاصة (٢٢٥) ، وكذلك شجعت الحكومة بناء الوكالات والقياسر والخانات ، هذا بجانب انشاء أسطول تجاري مصري ساعد على تنشيط الحركة التجارية (٢٢٦) ، ومما ساعد على ذلك أيضا نشاط أهل الذمة من التجار الذين استخدموا رؤوس أموالهم الضخمة وسفنهم التجارية في خدمة الحركة التجارية المحلية والعالمية (٢٢٧) .

(٢٢٥) سرور : مصر في عصر الدولة الفاطمية ، ص ٢٠١ - ٢٠٣ .

(٢٢٦) البراوي : المرجع السابق ، ٢٠٩-٢١٤ .

(٢٢٧) القوصي : تجارة مصر في البحر الأحمر ، ص ٩٠ .

وكان التجار من أهل الذمة فى مصر على درجة كبيرة من المهارة فى الأعمال التجارية ، كما وجدوا فى سياسة التسامح الدينى واهتمام الدولة بالتجارة ما يشجعهم على القيام بهذا الدور الهام فى هذا المجال .

ففى مجال التجارة الداخلية زحرت القرى التى يغلب عليها السكان الأقباط بالأسواق العامرة بما يسد حاجة سكانها ، فكانت « منية الأمراء » على مقربة من شبرا يعمل بها سوق كل يوم أحد يباع فيه البقر والغنم والغلل والبضائع وكان سوقها من أسواق مصر المشهورة (٢٢٨) .

كما كان سوق بلدة « بهوية » بالفيوم يقام يوم الخميس من كل أسبوع ، وكانت تلك البلدة زاخرة بالعطارين ودكاكين البزازين (٢٢٩) .

ويذكر ناصرى خسرو أن مدينة تنيس - تلك المدينة الصناعية الكبرى التى يغلب على أهلها السكان الأقباط - كان بها ما يزيد على عشرة آلاف دكان منها مائة دكان عطار ، ويرابط فى مينائها حوالى ألف سفينة (٢٣٠) ، أما فى المدن الكبرى فقد كان فى بعض الأحياء الخاصة التى سكنها أهل الذمة سوق لسد حاجة القاطنين بها (٢٣١) .

واشتغل كبار التجار من أهل الذمة بتجارة الغلال . ويذكر ناصرى خسرو أن الخليفة المستنصر بالله أرسل الى أحد التجار

(٢٢٨) المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ١٢٩ .

(٢٢٩) الصفيى : المصدر السابق ، ص ٦٩ .

(٢٣٠) ناصرى خسرو : المصدر السابق ، ص ٢٨ ، ٢٩ .

(٢٣١) المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٠ .

النصارى الأثرياء أثناء إحدى المجاعات التى انتشرت بالبلاد ، يطلب منه امداد المخازن الحكومية بالغلل « أما نقدا ، وأما قرضا » ، فرد هذا النصرانى على الخليفة بقوله : « ان لدى من الغلة ما يمكننى من أطعام أهل مصر بالخبز ست سنوات » ، ويتعجب ناصرى خسرو من مقدار ثروة هذا التاجر النصرانى بقوله : « ان كل من يستطيع الحكم يدرك كم ينبغي أن يكون لهذا الثرى لتبلغ غلته هذا المقدار (٢٣٢) ، ويذكر أبو صالح الأرمنى أن المعلم اسحق كان من كبار التجار الأثرياء بمدينة قفط (٢٣٣) .

ولما كان بيع الخمر محرما على المسلمين بحكم الشريعة الاسلامية فان أهل الذمة اشتغلوا بتجارة وبيع المسكرات ، كما كان فلاخو شبرا يعتمدون فى سداد ما عليهم من الخراج على ما يبيعونه من خمر وخاصة فى يوم الاحتفال بعيد الشهيد ، فكان يباع فى هذا اليوم ما ينيف على مائة ألف درهم فضة منها خمسة آلاف دينار ذهباً ، ويذكر المقرئى أن أحد التجار النصارى باع من الخمر فى يوم واحد باثنى عشر ألف درهم فضة (٢٣٤) .

ووفقا لسياسة الإصلاح الاجتماعى التى اتبعها الخليفة الحاكم بأمر الله فان الخليفة أخذ يطارد تجارة المسكرات كالنبيذ والمز و النيدة والفقاع ، وكل ما يعمل منها ، وتكررت السجلات التى تحرم بيع المسكرات بجميع أنواعها ، وحددت بعض السجلات التى أصدرها الخليفة الحاكم بأمر الله الكميات المباعة من العنب والرطب والعسل بحيث لا يباع للمستهلك منها الا ما يكاد يكفى حاجته . وفى سنة ٤٠٢ هـ منع الحاكم بيع الزبيب الا خمسة أرطال فما دونها (٢٣٥) ، كما منع بيع العنب الا أربعة أرطال فما دونها . وفى

(٢٣١) ناصرى خسرو : المصدر السابق ، ص ٦٣ .
(٢٣٢) أبو صالح الأرمنى : المصدر السابق ، ص ١٣١ .
(٢٣٤) المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٦٨ ، ١٢٩ .
(٢٣٥) عنان : الحاكم بأمر الله ، ص ١٣٠ .

ربيع الآخر من نفس العام أمر بالامتناع عن بيع العسل وألا يتجاوز في بيعه أكثر من ثلاثة أرتال لمن لا يشتك في أمره ان يتخذ منه مسكرا (٢٣٦) ، ولما أمر بمصادرة مخازن العسل وإهراقه في النيل ندر وجوده في الأسواق وارتفع سعره حتى عادلوا طلب أوقية بدينار فلم توجد (٢٣٧) .

ونتيجة لتلك القرارات أضير التجار من أهل الذمة المشتغلين بتجارة المسكرات وما يصنع منها ، بل ان الحاكم تشدد في تلك الفترة مع أهل الذمة فمنع من التعامل معهم بالبيع أو الشراء . مما أثار استياء التجار والباعة من أهل الذمة ولجأ كثير منهم الى التظاهر بالاسلام والتشبه بالمسلمين « ليظن من يراهم أنهم قد أسلموا » ، ولكن بعد مدة خرج أمر الحاكم بأمر الله بالتعامل مع أهل الذمة بالبيع والشراء كما جرت به العادة (٢٣٨) .

واشتغل أهل الذمة بتجارة الرقيق ، الا أنه في سنة ٣٩٥ هـ / ١٠٠٤ م أصدر الحاكم بأمر الله سجلا حرم بمقتضاه على أهل الذمة تجارة الرقيق . وشدد على النخاسين وتجار الرقيق في المنع من بيع العبيد والاماء لأهل الذمة (٢٣٩) ، ثم كرر هذا الأمر في السجل الذي أصدره في عام ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م ، وأمر بتتبع آثار المخالفين لأوامره (٢٤٠) .

(٢٣٦) المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٨٦ ، ٢٩٦ .

(٢٣٧) ابن أبيك : المصدر السابق ، ج ٦ ، ورقة ١٧٢

(٢٣٨) الانبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٣ ، ورقة ٧

(٢٣٩) المقرئى / اتعاظ الجنتا ، ج ٢ ، ص ٥٣ .

(٢٤٠) المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٨٦ .

وبوفاة الحاكم بأمر الله سنة ٤١١ هـ / ١١٠٢٠ م ألغيت جميع القيود التي تحد من حرية التعامل التجارى مع أهل الذمة ، فمارسوا نشاطهم التجارى فى حرية مطلقة ، وكان بعضهم مقربا من دار الخلافة ، ويذكر ناصرى خسرو الذى زار مصر فى خلافة المستنصر أن أبا سعيد التستري التاجر اليهودى « كان مقربا من السلطان » الذى كان يعتمد عليه فى شراء ما يريد من الجواهر الكريمة (٢٤١) .

وكانت أعمال الصيرفة وتجارة الذهب والجواهر من الأعمال التجارية التى نجح فيها أهل الذمة ، وخاصة اليهود .

فقد نبغ فى أيام الحاكم بأمر الله الأخوان اليهوديان أبو سعيد ابراهيم وأبو نصر هارون ابنا سهل التستري ، اذ نبغ أبو سعيد فى الأعمال التجارية ، وكان واحدا من كبار التجار الاثرياء الذين اشتغلوا بتجارة الجواهر والآثار والتحف الثمينة وتجارة الرقيق ، وكثيرا ما استخدم الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله أبا سعيد هذا فى ابتياع ما يحتاج اليه من صنوف الأمتعة . أما أبو النصر هارون فقد برع فى أعمال الصيرفة واستيراد البضائع من العراق . وقد اكتسب هذان الأخوان ثقة التجار فى الداخل والخارج لأمانتهما ، واطهار ما يكون عندهما من الودائع لمن يفقد من التجار (٢٤٢) .

ومع ذلك فقد وجد بين تجار الذهب والصيارفة اليهود من كان مثالا سيئا فى المعاملات بانكار ما لديهم من ودائع . فيروى أن أحد اليهود من تجار الذهب كانت امرأة كافور الاخشيدي قد أودعته قباء لؤلؤ منسوج بالذهب ، فلما طالبت به أنكر القباء ، فلما بلغ الخليفة المعز لدين الله ذلك ، أمر باحضار الصائغ اليهودى ، وأمر برد

(٢٤١) ناصرى خسرو : المصدر السابق ، ص ٦٤ ، ٦٥ .

(٢٤٢) المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٤٢٣ .

ما في ذمته من ودائع لزوجة كافور ، فأصر على انكاره ، مما دعا الخليفة المعز الى ارسال رجاله الى دار اليهودى ، فاستخرجوا منها القباء وسلموه لصاحبه (٢٤٣) .

وقد تمتع تجار الجواهر والصيارفة بالأمن والطمانية في عصر الفاطميين ، وكانوا « لا يغلزون أبواب دكاكينهم بل يسدلون عليها الستائر ، ولم يكن أحد يجرؤ على مد يده الى شيء منها (٢٤٤) ، ولم يكن يتأتى ذلك الا باستقرار الأمن وقوة الحكومة المركزية (٢٤٥) .

وصاحب انتعاش الحركة التجارية بالأسواق نشاطا ملحوظا للأسطول التجارى . ولقد تعجب المقلسى من كثرة المراكب التى تجوب نهر النيل ، كما تعجب من كثرة المراكب الراسية أمام ساحل القسبطاط . أما ناصرى خسرو فانه كان يقدر عند السفن الراسية حول مدينة تنيس بالف سفينة منها « ما هو ملك للتجار وكثير منها للسلطان » . (٢٤٦) ، كما يذكر أنه رأى فى القسبطاط نصرانيا من كبار أثرياء مصر يمتلك اعدادا من السفن ، وقيل ان مراكبه وأمواله ، وأملاكه لا يمكن أن تعد ، وأن سفنه كانت تسير فى النيل حاملة الحاصلات الزراعية والسلع والبضائع الى كثير من الموانئ والمراكز التجارية الواقعة على النيل (٢٤٧) .

(٢٤٣) ابن كثير : المصدر السابق ، ج ١١ ، ص ٢٧٤ .

— السيوطى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٢ .

(٢٤٤) ناصرى خسرو : المصدر السابق ، ص ٦٤ .

(٢٤٥) المقدسى : المصدر السابق ، ص ٢١٢ .

(٢٤٦) ناصرى خسرو : المصدر السابق ، ص ٢٩ .

(٢٤٧) — : نفس المصدر ، ص ٦٢ .

دور أهل الذمة في التجارة الخارجية

من الجدير بالذكر أن مصر في العصر الفاطمي الأول احتلت مركزاً ممتازاً في مجال التجارة الخارجية ، وأضحى لها المكانة التجارية الأولى في العالم الإسلامي (٢٤٨) . ولذلك أصبحت موانئها على البحرين الأحمر والمتوسط ملتقى التجار من الشرق والغرب نتيجة ظروف وعوامل داخلية ودولية (٢٤٩) .

ولما كان المصريون لا ينزحون عن مصر للتجارة مع العالم الخارجي إلا في القليل النادر ، فإن أهل الذمة وخاصة يهود مصر قاموا بنشاط ملحوظ في هذا الميدان (٢٥٠) ، وذلك أن التجارة كانت من أهم

(٢٤٨) زكي محمد حسن : كنوز الفاطميين ، ص ١٢ .

(٢٤٩) البراوي : المرجع السابق ، ص ٢٠٩-٢١٤ .

— ماجد : ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها ، ص ٢٩٩-٣٠١ .

(٢٥٠) سيدة كاشف وحسن محمود : مصر في عصر الطولونيين والاشيدين

— القاهرة ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م ، ص ٢٣٠ .

— سيدة كاشف : مصر في عصر الاشيدين ، ص ٢٩٣ .

الأعمال التي في أيدي اليهود ، وحرصوا على الاشتغال بها (٢٥١) .
وكان لليهود مصر صلات تجارية وثيقة مع يهود الشرق والغرب ،
فأسهموا برؤوس أموالهم في تجارة أبنساء عمومهم اليهود
الراذانية (٢٥٢) ، وهؤلاء هم تجار البحر الذين كانوا يسافرون بين
الشرق والغرب ، ويحملون معهم من الغرب الى مصر وبلاد الشرق
السلع والبضائع القيمة كالديباج وجلود الخنزير والفراء والسمور ،
كما كانوا يستأثرون بأنهم ما تصدره أوروبا وهو الغلمان والجواري
البيض ، وعند عودة هؤلاء التجار من الشرق الأقصى كانوا يحملون
معهم المسك والعود والكافور والبهار والدراسيني وغيرها من
السلع (٢٥٣) .

وكان يهود الشرق من أنشط تجار العالم الاسلامي في هذه
الحركة التجارية بين الشرق والغرب ، اذ كشفت وثائق الجنييزة من
امتلاكهم للسفن التجارية (٢٥٤) ، وكما كانت لهم جاليات في كثير
من موانئ الشرق ومدنه التجارية ، كما وفد الى مصر كثير من يهود
الشرق المشتغلين بالتجارة لممارسة نشاطهم بها (٢٥٥) واتخذ بعضهم
من مصر مستقرا له . وعلى سبيل المثال ، فان يعقوب بن كلنس
اليهودي الأصل عمل وكيلا للتجار بمدينة الرملة بفلسطين قبل مقدمه

- (٢٥١) بارتولد : تاريخ الحضارة الاسلامية ، ص ٢٢ .
- سعيد عاشور : المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ، الطبعة الاولى ،
ص ٤١ .
(٢٥٢) القوصي : المرجع السابق ، ص ٢٢ .
(٢٥٣) متز : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢١٣ .
- حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ، ج ٢ ، ص ٢٢٦ ، ٢٢٧ .
(٢٥٤) Goitein : Jews and Arabs New York, 1955, p. 107.
(٢٥٥) بنيامين القطيبي : المصدر السابق ، ص ١٦٩ .
- متز : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢١٢ ، ٢١٥ .

الى مصر ، ثم رحل اليها في عهد كافور الاخشيد ، وواصل احترامه للتجارة ، فاشتهر أمره ، حتى أصبح أول من تولى منصب الوزارة في مصر في عهد الفاطميين (٢٥٦) . كما أن الأخوين اليهوديين أبا سعيد إبراهيم وأبا نصر هارون ابنا سهل التستري كانا من أشهر وأنبغ تجار الشرق الذين استوطنوا مصر ، ويرجع أصلهما الى مدينة تستر بخوزستان تلك المدينة التي كان معظم تجارها من اليهود ، واشتغل الأخوان في تجارة الشرق وبخاصة في تجارة الرقيق والتحف والجواهر ، وعرف عن الخليفة الظاهر أنه استخدم أبا سعيد في ابتياع ما يحتاج اليه قصر الخلافة من سلع الشرق (٢٥٧) ، كما أنه كان يمد الخليفة المستنصر بالله الفاطمي بما يلزم قصر الخلافة من صنوف الأمتعة والسلع . ولقد ربح أبو سعيد من تجارته ثروة طائلة . وقيل أنه لم يكن يعرف مدى غناه الا الله ، (٢٥٨) .

ويبدو أن ثروة مصر واتساع تجارتها اجتذبت كثيرا من يهود الشرق والغرب (٢٥٩) ، فقد قام يهود الشرق برحلات تجارية الى مصر ، كما كانت السفن التجارية من « الممالك النصرانية كافة » تفد الى الموانئ المصرية وبخاصة الاسكندرية ، ولقد شاهد بنيامين التيطلي في ميناء الاسكندرية تجارا من جميع المدن التجارية والدول الأوروبية المعروفة في ذلك الوقت ، كما شاهد التجار الوافدين الى مصر من شمال أفريقية، وجزيرة العرب ، وبلاد الهند ، والحبشة ، واليمن ، والعراق ، والشام ، وبيزنطة ، مع تكالب التجار النصارى على شراء التوابل والعطور وجميع السلع التي يحملها تجار الشرق

(٢٥٦) الفويزي : المصدر السابق ، ج ٢٦ ، ورقة ٤٩ .

(٢٥٧) المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٤٢٣ .

(٢٥٨) ناصري خسرو : المصدر السابق ، ص ٦٥ .

(٢٥٩) سعيد عاشور : المرجع السابق ، ج ٤٩ ، ص ٢١٠ .

الى مصر (٢٦٠) . كما وجد أثناء زيارته لمصر أعدادا ضخمة من اليهود الذين يقطنون في الموانئ المصرية والمراكز التجارية والصناعية، وأن بينهم عددا من كبار الأغنياء (٢٦١) .

ويذكر ابن ميسر أن بدر الجمالي عند قدومه الى مصر سنة ٤٦٦ هـ / ١٠٧٣ م نزل دمياط وتنبس ، واقترض من تجار تنيس - وكان معظمهم من القبط - أموالا كان في حاجة اليها (٢٦٢) .

وإذا كان أهل الذمة قد امتلكوا رؤوس الأموال ، فانهم قد امتلكوا - أيضا - القياسر ، وأن بعض هذه القياسر قد أوقفت على الأديرة . ويستدل على ذلك من عبارة وردت في مرسوم أصدره الخليفة الحاكم بأمر الله في سنة ٤١١ هـ / ١٠٢٠ م بتجديد عمارة دير القصور ورد الأوقاف التي كانت محبسة على الدير من ضياع وقياسر (٢٦٣) .

كذلك وجد من التجار النصارى من اشتغل في مجال التجارة الخارجية فقد كان الأنبا ابراهيم السورياني - قبل أن يصبح البطريك الثاني والستين للكنيسة القبطية - من كبار التجار الأثرياء ، وتردد الى مصر عدة مرات للتجارة ثم استقر بها ، وكان يمد الخليفة المعز لدين الله وكبار رجال الدولة بما يحتاجون اليه من بضائع وأمتعة ، ومن ثم نشأت صداقات وثيقة بين الأنبا ابراهيم والخليفة المعز ورجال دولته (٢٦٤) .

(٢٦٠) بنيامين التيطلي : المصدر السابق ، ص ١٧٨ ، ١٧٩ :

(٢٦١) — : نفس المصدر ، ص ١٧٣ .

(٢٦٢) ابن ميسر : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٢ .

(٢٦٣) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٣٠ .

(٢٦٤) ساويرس : تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية ، المجلد الثاني ، الجزء

الثاني ، ص ١٠٠ .

ويرى المؤرخون أن التجار من اليهود في مصر قد أسهموا بنصيب كبير في تجارة الكارم طوال عهد الفاطميين ، جنبا الى جنب مع التجار المسلمين ، اذ كانت روح التعاون سائدة بين كل من احترف هذه المهنة من كل الأديان . كما كان لهؤلاء اليهود نشاط تجارى واسع بين مصر والهند واليمن والمغرب والأندلس (٢٦٥) ، وكانت سفنهم تجوب الموانى التجارية الكبرى التى تقع على سواحل البحر الأحمر والمحيط الهندى والبحر المتوسط . فكان يهود الشرق يقدون الى مصر لأعمال تجارية (٢٦٦) . كما كان تجار مصر يبحرون بسفنهم الى موانى البحر المتوسط التجارية (٢٦٧) ، مما أدى الى قيام صلات تجارية وثيقة بين مصر والجاليات اليهودية التى وجدت بتلك الموانى ، وارتبط كثير من يهود مصر برباط المصاهرة مع يهود تلك الجاليات ، وقامت علاقات تجارية نشطة بين مشايخ التجار اليهود بالقاهرة وغيرهم من تجار يهود الشرق المشتغلين بتجارة الكارم ، بل كانت هناك مشاركة في الأعمال التجارية ورؤوس الأموال اللازمة للتجارة بين يهود مصر ويهود تلك البلاد فى كثير من الأحيان (٢٦٨) . وحقق هؤلاء التجار أرباحا كبيرة وأموالا طائلة من اشتغالهم بتجارة الكارم . وكان الفلفل والبهار من أهم سلع تجار الكارم ، بجانب السلع الأخرى مثل الحاصلات الزراعية والملبوسات والحرير الخام فضلا عن الرقيق الذى كان يصدر الى أوروبا حيث يباع بأسعار مضاعفة (٢٦٩) . كما كانت مصر من أعظم أسواق الرقيق الأسود

(٢٦٥) القوصى : المرجع السابق ، ص ٧٩ ، ٨٢ ، ٨٤ .

(٢٦٦) بنيامين التطيلي : المصدر السابق ، ص ١٦٩ .

(٢٦٧) — : نفس المصدر ، ص ٥٠ ، ٧٧ ، ٩٠ .

(٢٦٨) القوصى المرجع السابق ، ص ٢١٥ .

(٢٦٩) — : نفس المرجع ، ص ٩٤ ، ٢١٢ .

فى ذلك الوقت (٢٧٠) ، فقد اشتغل فى تلك التجارة يهود مصر (٢٧١) .

ولقد عمرت أسواق مصر بسلع الشرق ، ولم تكن تلك السلع تستهلك جميعها محليا ، بل احتفظ التجار المصريون بكميات كبيرة منها لبيعها للتجار الفرنج وتجار الروم بأسعار عالية ، وبذلك كان تجار مصر يقومون بدور الوسيط التجارى بين الشرق والغرب . كما كان التجار الفرنج يقومون بشراء الحاصلات الزراعية والصناعات المصرية التى اكتسبت شهرة فى الأسواق العالمية (٢٧٢) .

ويرى المؤرخون - من واقع وثائق الجنيزة - أن غالبية اليهود الرأزانية الذين انخرطوا فى تجارة الشرق قد قل دورهم فى مجال التجارة الخارجية مع بداية القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى . وأن دورهم أخذ فى الاضمحلال بعد أن دخلت الحكومة الفاطمية فى علاقات ومعاهدات تجارية مع المسلمين والدول الأوروبية (٢٧٣) ، فضلا عن ذلك فقد استقرت أعداد من هؤلاء التجار اليهود زمن الفاطميين فى مصر والهند واليمن (٢٧٤) ، ويبدو أن اليهود الذين استقروا فى مصر قصروا نشاطهم على التجارة الداخلية والنشاط المصرفى والأعمال المالية (٢٧٥) . كما اعتنق

(٢٧٠) سيدة كاشف وحسن محمود : المرجع السابق ، ص ٢١٤ .

(٢٧١) القوصى : المرجع السابق ، ص ٢١٢ .

(٢٧٢) — : المرجع السابق ، ص ١٩٧ ، ١٩٨ .

(٢٧٣) Goitein : Op. Cit., p. 107.

(٢٧٤) متر : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢١٣ .

— القوصى : المرجع السابق ، ص ٩٠ ، ١٦٤ .

(٢٧٥) عاشور : المرجع السابق ، ص ٢٤١ .

بعضهم الاسلام حفاظا على مكاسبهم المالية التي كانوا يحققونها من
الاشتغال في هذه الأعمال ، واحتماء بالاسلام مما قد يتعرضون له
من وقت لآخر - من اضطهاد (٢٧٦) .

وهكذا يتضح مما سبق أن أهل النمة في مصر قد شاركوا في
الحياة الاقتصادية ، وأسهموا بنصيب وافر ودور له أهميته في
مجالات الزراعة والصناعة والتجارة في العصر الفاطمي الأول .

الباب الثالث

الحياة الاجتماعية والدينية لأهل الذمة

(أ) الحياة الاجتماعية لأهل الذمة

ـ القببط واليهود في مصر في العصر الفاطمي الأول

عندما فتح العرب مصر كان معظم أهلها في ذلك الوقت من الأقباط ، وإلى جانبهم أقلية من اليهود . كما كان يعيش فيها بعض الطوائف التي تنتمي إلى شعوب أخرى كانت أهمها طائفة الروم الملكانيين (١) .

وفي السنوات الأولى من الفتح سكن العرب المدن الكبرى ، وتركوا سائر قرى مصر بأيدي القبط ، ثم بدأوا ينزلون إلى الريف ، وينتشرون في ريف مصر رويدا رويدا . وعلى الأخص ابتداء من القرن الثاني للهجرة حيث كثر انتشارهم بقرى مصر ونواحيها ، ومشاركتهم الأقباط سكنى الريف والمدن الصغيرة .

(١) سيدة كاشف : مصر في فجر الإسلام ، ص ١٦٤ .

وقد قام الأقباط فى ريف مصر بعدة ثورات فى سنوات ١٠٧هـ ، ١٢١ هـ ، ١٣٢ هـ ، ١٥٠ هـ ، ١٥٦ هـ ، وكان الدافع الى قيامهم بتلك الثورات ، عدم رضاهم عن سياسة الولاة المالية (٢) ، وعادة ما كان يتبع اخماد تلك الثورات تحول عدد كبير من الأقباط الى الدين الاسلامى ، كما كان لقرارات الخلفاء والولاة - فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة - من تعريب الدواوين ، واحلال المسلمين محل الموظفين من أهل النعمة فى الوظائف (٣) ، واسقاط الجزية عن كل من يعتنق الاسلام أثر كبير فى تحول كثير من القبط الى الاسلام (٤) .

ثم كانت ثورة ٢١٦ هـ - فى عهد الخليفة المأمون - التى قام بها الفلاحون الأقباط فى الوجه البحرى - وخاصة أهالى البشمور - والتى اشترك فيها العرب الذين زاد عددهم فى الريف تضامنا مع الأقباط بسبب سوء سيرة العمال وفداحة الأعباء المالية الملقاة على عاتقهم . ولما استفحل أمر هذه الثورة ، جاء الخليفة المأمون الى مصر للعمل على تهدئة الثورة واخمادها بالدين ، ولما لم يستجب الأقباط لنداء الخليفة ، سار بنفسه على رأس قواته التى نجحت فى اخماد الثورة فى صفر سنة ٢١٧ هـ (٥) .

وبانتهاء تلك الثورة التى كانت أكبر وأخر الثورات التى قام بها الفلاحون الأقباط ، أخذ الأقباط الى السكينة والهدوء ، ودخل

(٢) المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٥٩ - ٢٦١ .

— البراوى : المرجع السابق ، ص ٣٦ .

(٣) سيدة كاشف : المرجع السابق ، ص ١٧٩ ، ١٨٠ .

(٤) — : نفس المرجع ، ص ٢١١-٢١٢ .

(٥) المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٧٩ ، ٨٠ .

— سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ، ص ٢٠٩ - ٢١١ .

كثير منهم فى الاسلام (٦) ، واختلطت انسابهم بأنساب المسلمين ،
كما اتخذ العرب الذين يسكنون الريف الزراعة حرفة لهم (٧) .

ثم جاء قرار الخليفة المعتصم سنة ٢١٨ هـ بإسقاط العرب من
ديوان العطاء ، وقطع أعطيات من فى الديوان منهم ، فأصبح العرب
لا يتميزون عن أهل البلاد الا من الناحيتين الدينية واللغوية ، وفقدوا
مركزهم السامى فى الدولة الاسلامية ، مما اضطرهم الى الانتشار
فى الريف بصورة أكثر مما كان عليه الأمر فى القرنين الأول والثانى
الهجريين واشتغالهم بالزراعة والصناعة والتجارة ، وغيرها من
الأعمال التى كانوا يترفعون عن الاشتغال بها ، وقد ترتب على
تعایشهم مع المصريين على هذا النحو الواسع أن اشتد اقبال المصريين
على اعتناق الاسلام ، وهو ما ترتب عليه أيضا ازدياد اختلاط العرب
بهم عن طريق الزواج . وقد شهدت نهاية القرن الثالث الهجرى
تحول الغالبية الكبرى من القبط الى الاسلام مع ما ترتب على ذلك
من التعريب (٨) .

غير أنه - فى القرن الرابع الهجرى - يذكر ابن حوقل أن
« معظم رساتيق مصر وقراها فى الحوف والريف ، وأهلها نصارى
قبط ولهم البيع الكثيرة العزيزة الواسعة » ، وأنهم أهل يسار وذخائر
وأموال (٩) . كما يذكر أبو الصلت أن : « سكان أرض مصر اخلاط

(٦) المقرئى : المرجع السابق ، ص ٨١ .

(٨) سيدة كاشف : المرجع السابق ، ص ٢٢٩ (٢٣٠) .

- حسن محمود : حضارة مصر الاسلامية ، العصر الطولونى ، ص ٢١٥ .

(٩) ابن حوقل : صورة الأرض ، مطبعة دار الحياة ببغروت ، ص ١٥٠ .

من الناس مختلفوا الأصناف والاجناس من قبظ ، وروم ، وعرب .
وأكراد ، وديلم ، وحبشمان ، وغير ذاك من الأصناف ، الا ان جمهورهم
قبظ « (١٠) . اما المقدسي الذي زار اقليم مصر في النصف الثاني
من القرن الرابع الهجري فيقول ان « عامه ذمته نصارى يقال لهم
القبظ ، ويهود قليل » (١١) .

وهكذا نرى الاقباط في العصر الفاطمي الاول يمثلون اقلية
كبيرة غنية من اهل مصر ، وبالذات في الصعيد الذي كان معظم اهله
منهم (١٢) ، فقد كان يوجد وقتذاك كثير من « قرى النصارى
الصعايدة » التي كان يتكلم أهلها اللغة القبطية ويفسرونها
بالعربية (١٣) ، كما كان النصارى يشكلون غالبية سكان بعض
القرى مثل « أبنوب » و « طنبدى » من قرى الصعيد (١٤) ، فضلا
عن كثير من قرى الفيوم التي غلبوا على سكانها (١٥) . وفي الوجه
البحري وجدت أيضا بعض القرى التي كان النصارى أكثر
سكانها (١٦) .

-
- (١٠) المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٤٧ .
وأبو الصلت هو أمية بن عبد العزيز أبي الصلت العلامة الأندلسي الذي زار
مصر في أيام وزارة الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالي في خلافة الأمر بأحكام
الله ، وتوفي سنة ٥٢٨هـ (عنان : تاريخ الجامع الأزهر ، ص ٥٧) .
(١١) المقدسي : المصدر السابق ، ص ٢٠١ ، ٢٠٢ .
(١٢) غرس الدين خليل : زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، طبعة
باريس سنة ١٨٩٣م ، ص ٣٣ .
(١٣) المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٥٠٦ .
(١٤) قاسم عبده : المرجع السابق ، ص ١٥٥ .
(١٥) أبو عثمان الصقدي : المصدر السابق ، ص ١٣ ، ٦٣ ، ١٠٥ .
١٠٧ .
(١٦) المقرئى : المصدر السابق ، ص ٢٩ .

فإذا انتقلنا الى المراكز الصناعية والتجارية ، نجد أن الكثير من أهل الذمة قد سكنوا في تلك المراكز . فمدينته تنيس التي يـصدر ناصري خسرو سكانها بخمسين ألف نسمة كان القبط يشكلون أكثر سكانها (١٧) ، كما كانت مدينته دمياط يسكنها الكثير من القبط الذين كانت تقع أكثر دورهم على شاطئ البحر (١٨) . أما شطا تلك القرية الصناعية الكبرى - والتي تقع بين تنيس ودمياط - فقد كان أكثر سكانها عمال النسيج من الاقباط (١٩) .

كما أن أكثر مدن الصعيد الكبرى كاسيوط وأخميم - على سبيل المثال - كانت غالبية سكانها من القبط نظرا لما كانت تتمتع به هذه المدن من أهمية صناعية وتجارية في مصر الفاطمية (٢٠) .

وعلى الرغم من أنه ليس لدينا بيان شامل بتعداد أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الأول ، إلا أنه كما سبق أن أوضحنا ، فإن نصارى مصر كانوا يشكلون أقلية كبيرة العدد تقدر بحوالى ثلث سكان اقليم مصر (٢١) .

هذا بينما نجد بنيسامين التطيلي الذي زار مصر حوالى سنة ٥٦١ هـ / ١١٦٥ م ، أى في أواخر العصر الفاطمي يقدر تعداد اليهود في مصر ببضعة آلاف . فحسب تقديره كان في المحلة حوالى خمسمائة يهودى ، وفي بلبيس ثلاثة آلاف ، وفي أبى تيج مائتان ، وفي الفيوم مائتان ، وفي دميرة سبعمائة ، وفي الاسكندرية ثلاثة آلاف ، وفي دمياط مائتان ، وفي حلوان ثلاثمائة ، وفي قوص ثلاثمائة . كما

(١٧) ناصري خسرو : المصدر السابق ، ص ٢٩ .

(١٨) المقدسى : المصدر السابق ، ص ٢٠١ ، ٢٠٢ .

(١٩) المقدسى : المصدر السابق ، ص ٢٠٢ .

(٢٠) زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ، ص ١١٦ .

(٢١) ماجد : ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها في مصر ، ص ٢٩٠ .

قدر عدد يهود القاهرة والفسطاط بألفى يهودى كان من بينهم عدد كبير من الأثرياء وكبار العلماء (٢٢) . ولا بد أن عدد يهود مصر فى العصر الفاطمى الأول كان أكبر بكثير مما قدره بنيامين ، اذ يذكر ابن اياس أن عدد من ارتد من اليهود - بعد أن تظاهروا بالاسلام - فى يوم واحد فى عهد الحاكم بأمر الله كان أكثر من سبعة آلاف يهودى (٢٣) .

كما كشفت وثائق الجنييزة عن حقيقة هامة ، وهى أن اليهود لم يعيشوا فى اللوانى والمدن الرئيسية السالفة الذكر فقط ، بل عاشوا فى الريف المصرى أيضا ، ولعبوا دورا هاما فى التجارة والأعمال المالية (٢٤) .

أما فى الواحات ، فقد كان الغالب على الفرفرون (الفرافرة) السكان من القبط ، ولم يكن يوجد بالواحات من اليهود أحد (٢٥) .

ولم تمدنا المصادر التاريخية التى وصلت إلينا من العصر الاخشيدى بما يشير الى وجود أحياء مخصصة لأهل الذمة فى مدينة الفسطاط ، وإن كان طبيعيا أن يفضل أهل كل دين أن يعيشوا متقاربين (٢٦) .

أما فى القاهرة الفاطمية فقد وجدت أحياء خاصة بأهل الذمة . فعندما اختطت القاهرة فى جمادى الآخرة سنة ٣٥٩ هـ ، اختطت كل قبيلة خطة عرفت بها ، واختط الروم الواصلون صحبة جوهر القائد

(٢٢) بنيامين التطلى : المصدر السابق ، ص ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٥ ، ١٧٦ .

(٢٣) ابن اياس : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥١ .

(٢٤) قاسم عبده : المرجع السابق ، ص ٦٤ .

(٢٥) ابن حوقل : المصدر السابق ، ص ١٤٥ .

(٢٦) سيده كاشف وحسن محمود : مصر فى عصر الطولونيين والاششيديين ، ص ٢١٤ .

حارة عرفت بهم ونسبت اليهم (٢٧) ، ويذكر الأنطاكي أنه كان للروم الملكانية حارة بالقاهرة يسكنون بها فأخرجوا منها ، وهدمت مبانيها ، وحولوا منها الى الموضع المعروف بلحمراء ، فعملوا لهم بها حارة ، واتخذوا منها موضعاً لسكنائهم (٢٨) .

أما اليهود فقد سكنوا حارة الجوزرية - نسبة الى إحدى طوائف العسكر في أيام الحاكم بأمر الله - ، وظلوا مقيمين بها ، الى أن بلغ الحاكم بأمر الله أنهم يجتمعون بها أوقات خلواتهم ، ويهزءون بالمسلمين ، ويسخرون منهم ، ويخوضون في الديانة الإسلامية ، ويتعرضون الى ما لا ينبغي سماعه ، فسد الحاكم بأمر الله أبواب الحارة عليهم ليلاً وأحرقها ، ثم أفرد لهم حارة زويله (٢٩) . وأمرهم في سنة ٣٨٩ هـ / ٩٩٩ م بأن يلزموا حاراتهم ، وألا يخالطوا المسلمين في حاراتهم (٣٠) .

وكان الصنائع الأجانب يسكنون في المناخ السعيد بالقاهرة . ويظهر أن هؤلاء الصنائع اجتذبهم الفاطميون بالرواتب المغرية والمعاملة السميحة ، أو أنهم كانوا من الرقيق أو الأسرى الذين علموهم مختلف الصنائع والحرف (٣١) .

أما مدينة الاسكندرية فكان يسكن بها كثير من الأجانب المشتغلين بالتجارة والذين ينتمون الى جاليات أجنبية مختلفة ، وكان لكل جالية فندق خاص بها (٣٢) .

(٢٧) القلقشندي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٥٧ .

(٢٨) الأنطاكي : المصدر السابق ، ص ١٨٦ .

(٢٩) المقرئ : الخطط ، ج ٢ ، ص ٤ .

(٣٠) ابن اياس : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥١ .

(٣١) المقرئ : الخطط ، ج ١ ، ص ٤٤٣ .

(٣٢) سرور : مصر في عصر الدولة الفاطمية ، القاهرة ١٩٦٠ م ، ص ٢٠٣ .

وكان الفتح العربي لمصر عاملا مساعدا على احياء اللغة القبطية على حساب اللغة اليونانية التي كانت منتشرة في مصر في ذلك الوقت ، فأصبحت الدروس تقرأ في الكنيسة باللغة القبطية بعد أن كانت تقرأ باليونانية وتشرح بالقبطية ، وبعد أقل من نصف قرن من الفتح تقريبا بدأ العرب يتجهون الى تعريب البلاد والى جعل اللغة العربية هي اللغة الرسمية وذلك لعدم معرفتهم باللغة القبطية ، وقد بدأ في تعريب الدواوين في مصر سنة ٨٨ هـ / ٧٠٦ م في ولاية عبد الله بن عبد الملك ، مما اضطر المصريين العاملين في دواوين الحكومة الى تعلم اللغة العربية حفاظا على الوظائف التي كانت بأيديهم (٣٣) . وفي القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي بدأت اللغة القبطية في الاضمحلال والتلاشي أمام اللغة العربية نتيجة لما حدث من اتمام حركة التعريب في مصر (٣٤) .

وعلى الرغم من أن اللغة العربية أخذت في الانتشار ، وأن المصريين أقبلوا على تعلمها ، الا أن عامة أهل مصر - على حد تعبير المقدسي - كانت « لغتهم عربية ركيكة » . وذمتهم يتحدثون القبطية ، (٣٥) .

وكان القبط يتكلمون القبطية بلهجات متعددة ، فاللهجة البحرية كانت تستعمل في الاسكندرية وما جاورها والدلتا ووادي النطرون ، ثم أصبحت هي اللهجة الرسمية للكنيسة القبطية منذ أن نقل البابا خريستودولوس البطريركية الى القاهرة في أوائل القرن الحادي عشر الميلادي / الخامس الهجري (٣٦) .

(٣٣) سيدة كاشف : مصر في فجر الإسلام ، ص ١٧٩ .

(٣٤) زكي شنودة : موسوعة تاريخ القبط ، الطبعة الثانية ، الجزء الاول ،

ص ١٠ .

(٣٥) المقدسي : المصدر السابق ، ص ٢٠٣ .

(٣٦) زكي شنودة : المرجع السابق ، ص ١٠ .

وينذكر المقرئ أن نصارى قرى الصعيد الأعلى كانوا يتكلمون « القبطى الصعيدى » - اللهجة الصعيدية - وأن نساء نصارى الصعيد وأولادهم لا يكادون يتكلمون الا القبطية الصعيدية ، وأن لهم أيضا معرفة باللغة الرومية « اليونانية » (٣٧) .

وكان من عادة نصارى مدينة أسنا أنهم كانوا يحضرون أفراح المسلمين ويطوفون فى أسواق المدينة وشوارعها أمام العرائس وهم يهلمون ويفنون بعبارات قبطية صعيدية (٣٨) .

وفى الصعيد كانت هناك أيضا لهجات قبطية فرعية مثل اللهجة الاخميمية التى كانت تستعمل فى أخميم واللهجة الأسيوطية التى كانت تستعمل فى أسيوط ، واللهجة الفيومية التى كانت تستعمل فى الفيوم . وأما فى شرق الدلتا فقد كان القبط يتحدثون باللهجة البشموية (٣٩) .

وفى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى أخذ بعض علماء الأقباط يكتبون مؤلفاتهم باللغة العربية . فقد كتب البطريك المالكانى سعيد بن بطريق (ت ٣٢٨ هـ / ٩٤٠ م) كتابه فى التاريخ باللغة العربية ، كما أن ساويرس بن المقفع (ت أواخر القرن الرابع الهجرى / أواخر القرن العاشر الميلادى) أسقف الأشمونيين كتب مؤلفه « سير الآباء البطارقة » باللغة العربية أيضا ، هذا بجانب القيام بجمع الوثائق اليونانية والقبطية وترجمتها الى العربية (٤٠) .

(٣٧) المقرئى : المخطوط ، ج ٢ ، ص ٥٥٦-٥٥٥ .

(٣٨) جاك تاجر : المرجع السابق ، ص ٣٠٥ .

(٣٩) زكى شتودة : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١١ .

(٤٠) سيدة كاشف : حضر فى فجر الاسلام ، ص ١٨٠ .

غير أن اللغتين القبطية واليونانية ظلتا مستعملتين في المعاملات الخاصة الى أن بطل استعمالهما في القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى . وفى هذا القرن أصبحت اللغة العربية لغة التخاطب السائدة (٤١) .

ـ المكانة الاجتماعية لكبار أهل الذمة :

كان لسياسة التسامح الدينى التى اتبعتها الفاطميون ازاء أهل الذمة أثرها الكبير عليهم كطبقة اجتماعية عاشت فى المجتمع المصرى ، اذ كان منهم الوزراء والوسطاء وكبار رجال الدواوين ، والكتاب والأطباء والمتقبلين ، والضمان ، والصناع المهرة ، والتجار الأثرياء ، والملوك أصحاب الضياع فى مصر ، ووصل الكثيرون منهم الى مكانة اجتماعية سامية ، فكانوا من الطبقة العليا فى المجتمع ذات الصلة الوثيقة بالخلفاء الفاطميين الذين أجزلوا لهم الاقطاعات والضياع والمنح والأموال والعطايا فى شتى المناسبات .

ففى سنة ٣٦٩ هـ / ٩٧٩ م ولد للوزير ابن كلثوم ولد ، فأرسل اليه العزيز بالله مهدا من صندل مرصع وثلاثمائة ثوب ، وعشرة آلاف دينار ، وخمسة عشر فرسا بسروجها ولجمها ، منها اثنان لها ، كما اشتملت الهدية على كثير من الطيب ، وقد بلغت قيمة هذه الهدية مائة ألف دينار (٤٢) .

(٤١) زكى شنودة : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٣ .

ويذكر المؤلف أن اللغة القبطية ظلت لغة التخاطب فى القرى البعيدة فى الصعيد الأعلى حتى القرن السابع عشر الميلادى (القرن الحادى عشر الهجرى) ، وفى القرن الثامن عشر الميلادى بدأ الاقباط يكتبون باللغة العربية بحروف عربية ، وفى القرن التاسع عشر انتهى الكلام والتخاطب باللغة القبطية وان كانت قد ظلت لغة الكنيسة حتى القرن العشرين (زكى شنودة نفس المرجع ، ونفس الصفحة) .

(٤٢) المقرئى انخاظ الحنظلا ، ج ١ ، ص ٢٥٢ .

وقد أغدق الخلفاء الفاطميون على كثير من الأطباء من أهل الزمة
الذين سبقت الإشارة إليهم - بالأموال والهدايا تشجيعا وتكريما
لهم (٤٣) ، وكان لبعضهم المكائنة المرموقة من أصحاب القصر ، وكما
شمل الخلفاء أولاد أطبائهم بالرعاية فأطلقوا لهم الأموال الوفيرة
والهبات فعاشوا في رغد من العيش (٤٤) .

وضم مجلس الخليفة المعز كبار رجال الدولة من اليهود
والنصارى ، إذ كانوا هم الطبقة التي اعتمد عليها في إدارة دواوين
الحكومة ، ففي عهده بلغ ابن كلس منزلة رفيعة في بلاط الخلافة
وتولى الاشراف على الإدارة المالية في الدولة ، وليس هناك أدل على
علو المنزلة الاجتماعية لرجال الدولة منهم ، من تلك العلاقة والصدقة
التي وجدت بين العزيز بالله ووزير ابن كلس ، وفي كلمات العزيز
له وقت احتضاره ، ما يؤكد حب الخليفة له ، ومكانته الاجتماعية (٤٥) ،
وفي رسالة العزيز إلى طبيبه ابن مقشر ما يشير إلى علو منزلة
الطبيب عند الخليفة وتقديره له . كما أن الحاكم بأمر الله زار
ابن مقشر عندما مرض ، وأنعم على أولاده بالأموال والهبات بعد
وفاته (٤٦) .

وجالس ابن نسطاس الطبيب النصراني الخليفة الحاكم بأمر
الله ، وشرب معه عندما أشار عليه بذلك ، وكان من خواصه
وندمائه ، وواحد من القلائد الذين يفضي إليهم بأسراره ، كما جالس

(٤٣) ابن العبري : المصدر السابق ، ص ٣١٦ .

(٤٤) القفطي : المصدر السابق ، ص ٤٣٨ .

- ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص ٥٤٨ .

(٤٥) أبو شجاع : المصدر السابق ، ص ١٨٦ .

(٤٦) القفطي : المصدر السابق ، ص ٤٣٨ .

- ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص ٥٥٠ .

ابن نسطاس كبار رجال الدولة الفاطمية أمثال قائد القواد الحسين
ابن جوهر ، وأبو الحسن الرسي ، والمسبحي ، والقاضي عبد العزيز
ابن محمد بن النعمان ، وكان يخالطهم ، ويحضر مجالسهم
الخاصة (٤٧) .

وامتلك كثير من أهل الذمة الآهوال الطائفة والقصور الفخمة
التي امتلأت بالخدم والعبيد ، واكتظت بأثمن ما عرف في هذا العصر
من موجودات وتحف و ذخائر ومقتنيات .

فقد بلغت ثروة قزمان بن مينا عامل الخراج بفلسطين في عهد
الخليفة المعز ما يزيد على تسعين ألف دينار (٤٨) ، كما امتلك الوزير
يعقوب بن كلس الاقطاعات والضياح والأموال ، وكان قصره واحدا
من أعظم قصور القاهرة الفاطمية ووجد في تركته بعد وفاته (ت
٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م) من الجواهر أربعمئة ألف دينار ، ومن الملبوس
والمركوب ما قيمته خمسمئة ألف دينار ، ووجدا له من العبيد
والماليك أربعة آلاف غلام ، سكنوا في المكان المعروف بالحارة
الوزيرية التي اتخذها سكنا لحاشيته وعبيده ومماليكه وحشمه ،
ولما مات ابن كلس كفن بما قيمته عشرة آلاف دينار (٤٩) .

كذلك عرف عن عيسى بن نسطورس أنه كان محبا لجمع المال
فالكل قد اتخذ من الوزارة أو الوساطة وسيلة للشراء (٥٠) ، وليس
أدل على ثرائه الفاحش غير المشروع من تلك الغرامة التي بلغت

(٤٧) ابن حجر العسقلاني : رفع الإصر عن قضاة مصر ، القسم الثاني ، ص

ص ٣٦٢ ، ص ٣٦٢ .

(٤٨) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٣ ، ورقة ٤٤ .

(٤٩) العيني : المصدر السابق ، ج ١٩ ، ورقة ٤٢٠ .

(٥٠) المناوي : المرجع السابق ، ص ٨٦ .

ثلاثمائة ألف دينار ، والتي دفعها الى خزينة الدولة عندما غضب عليه العزيز بالله لسوء سياسته (٥١) .

أما منشأ بن ابراهيم القزاز اليهودي الذي كان عاملا على الشام ، فقد جمع ثروة بالابتزاز ، مما اضطر الخليفة العزيز الى مصادرتة (٥٢) . كما استحوذ فهد بن ابراهيم النصراني على كثير من الاقطاعات والضيايع والأموال وبلغ راتبه السنوي ستة آلاف دينار (٥٣) .

وكان سهل بن يوسف أخ يعقوب بن كلس الوزير واسع الثراء ، وعندما أمر الحاكم بأمر الله بقتله في سنة ٣٩٤ هـ / ١٠٠٣ م بسبب طمعه وجشعه عرض أن يدفع ثلاثمائة ألف دينار عينا يفدى بها نفسه فلم يجب الى ذلك (٥٤) .

ويحدثنا ناصري خسرو عن ثروة أبي سعيد التستري بقوله أنه « يهودي وافر الثراء ... وقيل أنه لا يعرف مدى غناه إلا الله ، فقد كان على سقف داره ثلاثمائة جرة من الفضة ، زرع في كل منها شجرة ، كأنها حديقة ، وكلها أشجار مشمرة » (٥٥) . وعندما قتل أبو سعيد كتب أخوه لما ملكه الفرع رسالة للخليفة المستنصر بأن يقدم فوراً لخرانة الدولة مائتي ألف دينار ، غير أن المستنصر بالله أمر بعرض الرسالة على الناس ، وتمزيقها على الملأ ، وخاطب الجميع قائلًا « كونوا آمنين ، وعودوا الى بيوتكم ، فليس لأحد شأن بكم ، ولنسنا بحاجة لمال أحد » (٥٦) .

(٥١) النويري : المصدر السابق ، ج ٢٦ ، ورقة ٤٩ .

(٥٢) أبو شجاع : المصدر السابق ، ص ١٨٦ .

(٥٣) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٥٩ .

(٥٤) المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ، ص ٥٩ .

(٥٥) ناصري خسرو : المصدر السابق ، ص ٦٥ ، ٦٤ .

(٥٦) — : المصدر السابق ، ص ٦٥ .

كما يذكر ناصري خسرو أنه رأى بمدينة الفسطاط نصرانيا من كبار أغنياء مصر ، قيل أن مراكبه وأمواله وإملاكه لا يمكن أن تعد وأن لدى هذا النصراني من الغلال ما يمكنه من إطعام أهل مصر « الفسطاط » ست سنوات (٥٧) . وعلى الرغم من أن ناصري خسرو كان مبالغا فيما رواه ، إلا أن في روايته الدلائل القوي على ثراء الكثير من أهل الذمة في مصر الفاطمية .

وكان أبى المليج الملقب بمماتى واحدا من نصارى أنسيوط الأثرياء ، وأنه كان يمتلك أيام الغلاء والشدة العظمى في عصر المستنصر بالله قمحا كثيرا ، وكان يوزعه على فقراء المسلمين الذين أحبوه وشكروه لحسن صنيعه (٥٨) .

ويذكر أبو صالح الأرمني أن واحدا من نصارى مصر ويدعى المعلم سرور الجلال كان ذا مال وجاه ، وكانت علاقته وثيقة بالخليفة المستنصر وكان يقدم للخليفة وحاشيته أثناء الاحتفال بكسر سد الخليج أنواع الأطعمة والأشربة والحاوى فيقبلها منه ، ويخاج عليه ويقضى حوائجه (٥٩) . أما المعلم اسحق الذي كان واحدا من كبار أثرياء التجار بمدينة قفط ، فقد امتلك من الأراضى والأموال والماشية الشيء الكثير (٦٠) .

ولم تكن الدولة تصادر ممتلكات وثروات واقطاعات كبار موظفيها من أهل الذمة طمعا فيها ، وإنما كانت تصادر هذه الثروات بسبب سوء سياستهم الادارية والمالية أو استفحال نفوذهم ،

(٥٧) — نفس المصدر ، ص ٦٢ .

(٥٨) المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ١٥٩ .

(٥٩) أبو صالح الأرمني المصدر السابق ، ص ٣٢ .

(٦٠) نفس المصدر ، ص ١٣٠ .

(٦١) العيني : المصدر السابق ، ج ١٩ ، ورقة ٢٠٠ .

وانحيازهم لبنى ملتهم ، وجههم الثروات بطرق غير مشروعة ،
أو بسبب ترفعهم وشكوى رأى العام الاسلامى منهم .

وقد امتلك أهل الذمة - وبخاصة الاثرياء - الرقيق ، ليعملوا
خدما فى القصور . فقد وجد فى تركه ابن كنس أربعة آلاف عبده
ومملوك (٦١) ، كما امتلأت قصورهم بالجوارى والقيينات ، وكان
اليهود المشتغلون فى تجارة الشرق يشترون الجوارى لاتخاذهم خدما
لهم (٦٢) ، ومن الجدير بالذكر أن زوجة العزيز بالله أم ست الملك
كانت جارية رومية (٦٣) ، كما كانت أم المستنصر بالله جارية لأبى
سعيد التستري أهداها للخليفة الظاهر لأعزاز دين الله (٦٤) ،
وكان من نتيجة اختلاط أقباط مصر بغيرهم من طوائف الشعب أن
تهافت الأقباط - وخاصة الموظفين منهم - على تعدد السرارى فى
بيوتهم بدون عقد شرعى ، مما يتنافى مع روح الديانة المسيحية (٦٥) .

ونتيجة لهذا الشراء وتلك المكانة الاجتماعية ، كان أهل الذمة
يلبسون الملابس الجليلة ، وكان عمال النصارى يلبسون أثوابا
كأثواب عظماء المسلمين ، ويركبون البغال ويمتطون الخيول (٦٦) .
على أن الكثيرين من أهل الذمة كانوا يجعلون لأنفسهم مقاما
عاليا أمام الطبقة الدنيا ، وكانت مغالاتهم وترفعهم على هذه الصورة
أمام جمهور المسلمين تؤدى الى ارتفاع أصوات المسلمين

(٦٢) القومى : المرجع السابق ، ص ٢١٣ .

(٦٣) الانبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ورقة ٥١ .

(٦٤) ابن ميسر : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣١ .

(٦٥) بنشر : تاريخ الامة القبطية وكنيستها ، ج ٢ ، ص ١٦ .

(٦٦) القريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٦٦ .

بالاستنكار (٦٧) ، فتصبر أوامر الخلفاء الفاطميين بفرض قيود اجتماعية ضدهم - سنوضحها فيما بعد . وكانت هذه القيود تطبق بمنتهى الصرامة في حينها ، ثم لا تلبث أن تخفف شيئا فشيئا ، ولذلك كان الأمر يستلزم تكرار فرض تلك القيود في صورة مراسيم متتالية صادرة من دار الخلافة .

وقد أنعم الخلفاء الفاطميون على كبار رجال دولتهم من أهل الذمة بالألقاب تكريما لهم ، ودلالة على مكانتهم في الدولة . فابن كلس الوزير لقب « بالوزير الأجل » (٦٨) ، ولقب عيسى بن نسطورس « بسيدنا الأجا » (٦٩) ، أما ابن عبلون فقد منحه الخليفة الحاكم بأمر الله لقب « الكافي » (٧٠) ، كما أنعم على زرعة بن عيسى ابن نسطورس بلقب « الشافعي » (٧١) ، ولقب أخوه صاعد بن عيسى ابن نسطورس « بالأمير الظهير شرف المنك تاج المعالي ذو الجدين » (٧٢) . أما المستنصر بالله الفاطمي فقد منح أبو نصر صدقة بن يوسف الفلاحى اليهودى الأصل لقب « الوزير الأجل تاج الرياسة فخر الملك مصطفى أمير المؤمنين » (٧٣) ، كما منح أبو علي الحسن بن أبي سعد ابن إبراهيم بن سهل التستري لقب « العميد علم الكفاة » ، وخطب أبو سعد منصور بن زنبور الوزير النصراني الأصل - في خلافة

- بارتولد : تاريخ الحضارة الإسلامية ، ترجمة حمزة طاهر ، ص ٢٤ .

(٦٧) — : نفس المرجع والصفحة .

(٦٨) المقرئى : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٥ .

(٦٩) المناوى : المرجع السابق ، ص ٢٤٤ .

(٧٠) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ١٩٦ .

(٧١) ابن القلانسى : المصدر السابق ، ص ٦٤ .

(٧٢) المناوى : المرجع السابق ، ص ٢٥٠ .

(٧٣) المقرئى : المعافى الحنقا ، ج ٢ ، ص ١٩١ .

المستنصر - بلقب « الأجل الاوحد المكين السيد الأفضل الأمين شرف
الكنة عميد الخلافة محب أمير المؤمنين » (٧٤) .

وعلى الرغم من أن هذه الألقاب تدل على نفوذ هؤلاء الوزراء
والوسطاء الا أن فى الألقاب الأخيرة ما يشير الى ازدياد نفوذهم ،
واستفحال أمرهم ، وعلو مكانتهم الاجتماعية وبخاصة فى عهد
المستنصر بالله خامس الخلفاء الفاطميين فى مصر .

- القيود الاجتماعية التى فرضت على أهل الذمة :

التزم أهل الذمة فى الدولة الاسلامية من الناحية الشرعية
بعدة قيود تتعلق بالمظهر الاجتماعى ، وتشكل جانبا مما اصطلح على
تسميته « بالعهد العمرى » أو « الشروط العمرية » المنسوبة الى
الخليفة عمر بن الخطاب .

وتمثلت تلك القيود الاجتماعية فى الزام أهل الذمة بلبس
الغيار فإن كان يهوديا وضع على كتفه خيطا أحمر أو أصفر ، وإن
كان نصرانيا شد فى وسطه زنارا وعلق فى عنقه صليبا ، وإن
كانت امرأة لبست خفين أحدهما أبيض والآخر أسود ، وإذا دخل

(٧٤) المناوى : المرجع السابق ، ص ٢٦٢ . ٢٦٦ .

الذمي الحمام ينبغي أن يكون في عنقه طوق من حديد أو نحاس أو رصاص تمييزاً له من المسلم (٧٥) .

كما اشترط على أهل الذمة ألا تعلق أصوات نواقيسهم وتلاوة كتبهم ، وألا تعلق أبنيتهم فوق أبنية المسلمين ، وألا يتجاهروا بشرب الخمر واطهار الصليب والخنازير ، وأن يخفوا دفن موتاهم وألا يجاهروا بالندب عليهم ولا نياحة وإن يمتنعوا من ركوب الخيل (٧٦) .

تلك هي بعض الشروط التي وردت « بالعهد العمري » أو « الشروط العمرية » التي تنظم تصرفات أهل الذمة في المجتمع الاسلامي . ولم يكن أغلب الحكام المسلمين يلجأون الى الزام أهل الذمة بهذه الشروط الا في حالات الاضطهاد والحروب (٧٧) . ويرى البعض أن تلك الشروط المشار اليها والتي عرفت باسم « الشروط المستحبة » إنما هي من وضع الفقهاء في مرحلة متأخرة ،

(٧٥) الشيزري : نهاية الرتبة في طلب الحسبة . ص ١٠٦ .

وروى أن نصارى الشام شرطوا على أنفسهم في كتابهم الى عمر بن الخطاب أن لا يتشبهوا بالمسلمين في شيء من ملابسهم من قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا ينقشوا على خواتمهم بالعربية ، وأن يلزموا زيهم حيثما كانوا ، وأن يشدوا الزنار على أوساطهم ، ويرى أصحاب الإمام الشافعي أن أهل الذمة يلزمهم أن يتميزوا في اللباس عن المسلمين ، وأن يلبسوا قلانس تميزهم عن قلانس المسلمين بالحمرة ويشدوا الزنار على أوساطهم ، ويكون في رقابهم خاتم من نحاس أو رصاص أو جرس يدخلون به الحمام ، وليس لهم أن يلبسوا العمام أو الطيلسانات . وأما المواة فإنها تشد الزنار تحت الأزار ، وقيل فوق الأزار ، وهو الأولى ، ويكون في عنقها خاتم تدخل به الحمام ، ويكون أحد خفيها أسود والاخر أبيض (الابشيهي : المستطرف في كل فن مستطرف ، ج ١ ، ص ١١٠-١١٢) .

(٧٦) قاسم عبده : المرجع السابق ، ص ٢٠ ، ٢١ (نقلاً عن ابن قيم الجوزية :

احكام أهل الذمة ، ج ١ ، ص ٢٣٦) .

(٧٧) ماجد : الحاكم بأمر الله ، ص ٩٥ ، ٩٦ .

مغالة منهم في فرض القيود على أهل الذمة الذين لم تفرض عليهم هذه الشروط في عهد النبي صلى الله عليه وسلم (٧٨) .

وفي بداية العصر الفاطمي الأول لم يلجأ الخليفتان المعز لدين الله وولده العزيز بالله الى فرض أية قيود على أهل الذمة وبخاصة فيما يتعلق بالملابس ، والرغوبات ، والحفامات ، واستخدام المسلمين لدى أهل الذمة ، فالتسامح كان أساسا لسياستهما تجاه أهل الذمة . .

لكن الخليفة الحاكم بأمر الله بعد عدة سنوات من توليه الخلافة أصدر عددا من المراسيم والسجلات التي نصت على فرض قيود اجتماعية على أهل الذمة - باستثناء الخيابرة - (٧٩) ، وتلزمهم بالتمييز عن المسلمين بعلامات عرفت بالغيار ، وذلك تنفيذا لما اصطلح على تسميته « بالشروط العمرية » ولكن الحاكم بأمر الله بالغ في هذه الشروط وزاد عليها ، لذا اعتبر أهل الذمة عودة الحاكم الى تطبيق هذه الشروط وزيادته عليها امتحانا لهم من قبل الله يذكرهم بما عانوه في عهود الاضطهاد السابقة (٨٠) . ذلك أن الحاكم بأمر الله قد أخذهم بالشدة في تطبيقها بالدرجة التي فاقت احتمال الكثيرين منهم (٨١) .

ففي النصف الأول من شهر المحرم سنة ٣٩٥ هـ أصدر الحاكم بأمر الله سجلا ألزم النصارى ، واليهود - دون الخيابرة - بشدة الزناير في أوساطهم ، ووضع العمام السوداء على رؤوسهم - إذ كان السنواد هم شغائر العباسيين وهم الغضنة في نظر

(٧٨) قاسم عبده : المزج السابق ، ص ٢١ .

(٧٩) وهم يهود يرجع أصلهم الى حثيين وثما نجارون ، الذين آمنوا عمر بن الخطاب بنقلهم من شبه الجزيرة العربية الى مصر ، وذلك جريا على السنة الأولى من أيام النبي صلى الله عليه وسلم (ماجد : الحاكم بأمر الله ، ص ٩٦) .

(٨٠) ماجد : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر ، ص ٣٥٤ .

(٨١) الانبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٣ . ورقة ٥٩ .

الفاطمين - وأعلن هذا السجل في جوامع مصر ، فامتثل لأمر الخليفة سائر أهل الذمة في أنحاء الدولة (٨٢) .

وفي سنة ٣٩٧ هـ / ١٠٠٦ م اشتدت القيود صرامة ، ففي هذا العام أمر النصارى ، واليهود - دون الخيابرة - بلبس السواد ، وأن يحمل النصارى الصليبان في أعناقهم ، وأن يحمل اليهود في أعناقهم قرامى الخشب والجلجل (٨٣) .

وفي العام التالى أخذ الحاكم بأمر الله أهل الذمة بالشدة فيما يتعلق بالغيار ، واشتراط على من يقيم في دولته منهم في مصر أن يلتزم بما شرط عليهم من الشروط التى زاد فيها على الشروط العمرية ، فشرط على النصارى تعليق الصليبان ظاهرة ، وعلى اليهود قرامى الخشب على هيئة رأس العجل . فاتخذ النصارى صليبان الذهب والفضة ، فأنكر الخليفة ذلك ، وأمر المحتسبين أن يأخذوا النصارى بتعليق صليبان الخشب واليهود بتعليق القرامى ، كما أمر بالنداء في أهل الذمة بأنه من أراد الدخول في الاسلام فله ذلك ، ومن أراد الانتقال الى بلاد الروم كان آمنا الى أن يخرج ، ومن أراد المقام بمصر فعليه بلبس الغيار والالتزام بما شرط عليه ، فاضطر كثير من أهل الذمة تحت وطأة تلك القيود الصارمة الى الدخول في الاسلام (٨٤) .

كما نودى في سنة ٣٩٩ هـ / ١٠٠٨ م بأن لا يمشى اليهود والنصارى الا بالغيار والا ضربوا على ذلك . ويذكر المقرئى أنه في

-
- (٨٢) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ١٨٧ .
- المقرئى : اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ، ص ٥٣ .
(٨٣) النويرى : المصدر السابق ، ج ٢٦ ، ورقة ٥٣ .
(٨٤) ابن العبرى : المصدر السابق ، ص ٣١٣ .
- ابن الجوزى : المنتظم ، ج ٧ ، ص ٢٣٩ ، ٢٤٠ .

سنة ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م اشتد الأمر على أهل الذمة في الزامهم لبس
الغيار (٨٥) . وفي العام التالي أمر الحاكم بأمر الله أن تؤخذ الذمة
الزامهم لبس الغيار (٨٥) . وفي العام التالي أمر الحاكم بأمر الله
أن تؤخذ الذمة من النصارى واليهود بتغيير الزناير الملونة التي
يلبسونها والاقتصار على لبس الزناير السود فقط دون غيرها من
الالوان مع وضع العمام السود على رؤوسهم (٨٦) .

وفي سنة ٤٠٢ هـ / ١٠١١ م أمر النصارى واليهود - دون
الخيابرة - بلبس العمام السود ، وأن تحمل النصارى في أعناقهم
الصلبان ما يكون طوله ذراعا ووزنه خمسة أرطال ، وأن تحمل
اليهود في أعناقهم عند خروجهم الى الأسواق قرامى الخشب على
وزن صلبان النصارى (٨٧) .

ويذكر ابن اياس أن الخليفة الحاكم بأمر الله ألزم النصارى
أن تكون الصلبان من حديد بطول ذراع وأن يلبسوا المآزر الفسيحة ،
فأقاموا على ذلك مدة ثم أعادهم الى ما كانوا عليه (٨٨) .

وجدد الحاكم بأمر الله هذا المرسوم في سنة ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م ،
فأمر أن تلبس النصارى واليهود - دون الخيابرة - طيالة سود ،
وعمام شديدة السواد وأن يعلق النصارى في أعناقهم صلبان

(٨٥) المقرئى : اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ، ص ٧٦ ، ٨١ .

(٨٦) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ٢٠٠ .

- المقرئى : اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ، ص ٨٥ .

(٨٧) القضاء : المصدر السابق ، ورقة ١٨٠ .

- ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٣٨٠ .

- العينى : المصدر السابق ، ج ١٩ ، ورقة ٦٧٨ .

(٨٨) ابن اياس : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٢ ، ٥٣ .

الخشيب مضافا الى الزنار في أوسناظهم ، فلبسوا صلبانا طولها
 فتر ، ثم أمر بعد شهر وجعلها قدر شبر في شبر . فلما كان يوم
 الأحد النصف من شهر ربيع الآخر من نفس العام أمر النصارى
 بتعظيم الصلبان التي في رقابهم ، وأن يكون طولها ذراع في عرض
 مثله ، وفتحها ثلثي شبر وسمكها أصبع (٨٩) ، غير أن الأنبا
 ميخائيل ذكر أن طول الصليب كان ذراعا ونصفا على أن يكون وزن
 كل صليب خمسة أرطال مختوم بخاتم رصاص عليه اسم الخليفة ،
 وأن يعلقوه في رقابهم بحبال من ليف (٩٠) . كما نودى على اليهود
 بأن يعلقوا في رقابهم قرامى الخشب على هيئة رأس عجل زنة كل
 منها خمسة أرطال تعلق في رقابهم بحبال من ليف وتختم بخاتم من
 رصاص عليه اسم الخليفة الحاكم (٩١) ، وعلى أن تكون هذه
 الصلبان والقرامى ظاهرة فوق ثياب أهل الذمة عند خروجهم الى
 الأسواق بحيث يراها الناس (٩٢) وأذن للناس في البحث عن
 المخالفين وتشبع آثارهم (٩٣) ، مما أثار الفزع بين النصارى وكثرت
 مخاوفهم ، وخلت الطرقات أياما لم ير فيها نصراني (٩٤) ، وإذا
 وجد واحد من أهل الذمة عليه صليب أو قرمة بغير ختم كان يتعرض
 للאהانة والغرامة ، مما أدى الى أن ضاق أهل الذمة ذرعا بتلك القيود
 التي فرضت على الملابس . ويروى الأنبا ميخائيل أن نصارى مدينة
 تيس ذاقوا الأمرين من تلك القيود ، ومن مضايقات المسلمين لهم ،

(٨٩) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ .

(٩٠) الأنبا ميخائيل ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ورقة ٥٦ .

(٩١) — : نفس المصدر ، ص ٥٦ .

— الانطاكي : المصدر السابق ، ص ٢٠٣ .

(٩٢) المقرئى : الخطط : ج ٢ ، ص ٢٨٧ .

(٩٣) عنان : المرجع السابق ، ص ١٣٩ .

(٩٤) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ٣٠٤ .

فاذا نسي نصراني منهم صليبه ومشى فى طرقات المدينة بلا صليب
تعرض للأذى ولقى كثيرا من الاهانة والسخرية (٩٥) .

غير أنه قد خفف من تلك القيود تصريح الحاكم بأمر الله
لرعاياه من أهل الذمة فى صفر سنة ٤٠٤ هـ بالانتقال الى بلاد
الروم أو النوبة أو الحبشة ، أو التزام الغيار اذا رغبوا فى
البقاء (٩٦) ، كما لجأ الكثير من النصارى تحت وطأة تلك القيود
وصرامتها الى نزع الغيار والصليب والزناز والتشبه بالمسلمين ،
والتظاهر بالاسلام ليظن من يراهم أنهم قد اعتنقوا الاسلام (٩٧) .
كما شملت سجلات الخليفة الحاكم بأمر الله التى أصدرها
بشأن أهل الذمة عدة قيود فرضت عليهم عند دخولهم الحمامات .

ففى سنة ٣٩٨ هـ و ٣٩٩ هـ / ١٠٠٧ م و ١٠٠٨ م ، أمر
الحاكم بأمر الله أن يتميز أهل الذمة عند دخولهم الحمامات بعلامات
تميزهم عن المسلمين وذلك بأن يتميز النصارى بصليب يعلقونه
فى رقابهم ، وأن يتميز اليهود بجلجل مكان الصليب ، كما نودى
ألا يدخل أحد الحمام الا بمئزر ، وأخذوا بالشدة والضرب فى تنفيذ
تلك الأوامر ، كما كبست الحمامات للتأكد من مراعاة ما جاء بتلك
السجلات . غير أنه لم تلبث تلك الأوامر أن زالت بعد مدة ، ولم
يعد أهل الذمة يكثرثون بتنفيذها (٩٨) .

(٩٥) . الأنبا ميخائيل : المصدر السابق . ج ٢ ، ورقة ٥٧-٥٩ .

(٩٦) . الأنطاكي : المصدر السابق ، ص ٢٠٧ .

(٩٧) . الأنبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ورقة ٥٧ .

- المقرئى : اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ، ص ٩٤ . ويذكر المقرئى تاريخ هذا

المرسوم فى ربيع الأول سنة ٤٠٣ هـ .

(٩٨) . الأنطاكي : المصدر السابق ، ص ١٩٥ .

- ابن الجوزى : المنتظم ، ج ٧ ، ص ٢٣٩ ، ٢٤٠ .

- المقرئى : اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ، ص ٧٦ .

وفى المرسوم الذى أصدره الحاكم سنة ٤٠٢ هـ/ ١٠١١ م أكد ما سبق أن أصدره من أوامر بشأن الحمامات ، ثم أفرد حمامات اليهود وحمامات النصارى من حمامات المسلمين . وأمر ألا يدخل أحد من أهل الذمة حماما مع المسلمين وأصبحت لهم حمامات خاصة - كذلك الحمام الذى أنشأه ابن أبى الدم اليهودى كاتب الانشاء فى عهد الحاكم - ، ووضع على حمامات النصارى الصليبان الخشب وعلى باب حمامات اليهود القرامى الخشب ، كعلامات مميزة تعرف بها ، مع التزامهم بتعليق الصليبان والقرامى الخشب فى رقابهم عند دخولهم الحمامات (٩٩) . وتأكد ذلك مرة أخرى فى المرسوم الذى أصدره فى سنة ٤٠٣ هـ/ ١٠١٢ م ، كما تكررت تلك القيود فى المرسوم الصادر من دار الخلافة فى شهر المحرم من السنة التالية (١٠٠) .

أما فيما يتعلق بالركوبات ، فانه طوال خلافة المعز لدين الله وابنه العزيز لم تفرض على أهل الذمة أية قيود تتعلق بذلك ، كما نعموا بحرية استعمالها فى بداية خلافة الحاكم بأمر الله ، فقد كانوا يركبون الخيل وخاصة أثناء الاحتفال بأعيادهم (١٠١) ، واهتم الأثرياء وكبار رجال الدولة من أهل الذمة باقتناء الخيول والبغال ، وكانت لهم الاصطبلات المعدة لتربيتها . ويذكر المقرئى أن فهد ابن ابراهيم النصرانى كان يمتلك العشرات من الخيول والبغال ، وأنه حمل الى الخليفة الحاكم بأمر الله هدية منها ثلاثون بغلة ملونة الأجلال ، وعشرون فرسا منها عشرة مطهمة باللحم والسروج المخلاة وعشرة خيول تبكسوها أجلال ملونة فاخرة . كما أن الحاكم بأمر الله صرح

(٩٩) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٣ ، ورقة ٥٥ .

- ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٨٠

- النويرى : المصدر السابق ، ج ٢٦ ، ورقة ٥٦

(١٠٠) المقرئى : انعاظ الحنفا ، ج ٢ ، ص ٩٤ ،

(١٠١) — الخطط ، ج ١ ، ص ٦٨ .

لأولاد فهد في شعبان سنة ٣٩٢ هـ باسترداد ما أخذ منهم من سروجهم المحلاة بالذهب ، وأمرهم بالركوب (١٠٢) ، وعندما خلع الحاكم بأمر الله في ربيع الأول سنة ٣٩٤ هـ على أبي يعقوب ابن نسطاس الطبيب ، حمله على بغلين ومعه الثياب الفاخرة ، ولما توفي ابن نسطاس استطب الحاكم بأمر الله صقر اليهودي (ت ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م) وخلع عليه في سنة ٣٩٨ هـ / ١٠٠٧ م ، وحمله على بغلة محلاة بالسرّج واللجام الفخمة ، وأهداه ثلاث بغلات بسروج ولجم ثقال (١٠٣) .

غير أن سجلات الحاكم بأمر الله التي أصدرها لغرض بعض القيود على أهل الذمة شملت أيضا قيودا على الركوبات ففي سجلاته الصادرة في سنتي ٤٠٢ هـ و ٤٠٣ هـ / ١٠١١ م و ١٠١٢ م منع أهل الذمة من ركوب الخيل ، وأمر أن تكون ركوبهم البغال والحمير وبسروج ولجم غير محلاة بالذهب والفضة ، وأن تكون من جلود سود ، وألا يركب أحد منهم بركب حديد بل تكون ركب سروجهم من خشب الجميز ، وأمر أيضا أن يضرب بالجرس في القاهرة ومصر (الفسطاط) ألا يركب أحد من المكارية المسلمين ذميا ، كما منع الملاحين وأصحاب السفن المسلمين أن يحملوا على سفنهم أحدا من أهل الذمة (١٠٤) .

ولما كان الأغنياء من أهل الذمة يتهافتون على تعدد السراري في بيوتهم — مخالفين بذلك شريعتهم — (١٠٥) ، وشراء الجوارى ،

(١٠٢) المقرئى : اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ، ص ٤٤ .

(١٠٣) — : اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ، ص ٧٢ .

(١٠٤) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٣ ، ورقة ٥٥ ، ٥٦ .

— الانطاكي : المصدر السابق ، ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ .

— المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٤٩٤ .

— : اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ، ص ٩٤ .

(١٠٥) تبشر : تاريخ الأمة القبطية ، ج ٢ ، ص ١٥ .

واتخاذ الرقيق واستخدامهم فان الحاكم بأمر الله أمر في السجل الذي أصدره في سنة ٣٩٥ هـ / ١٠٠٤ م بمنع بيع العبيد والاماء لأهل الذمة ، ثم جاء في المرسوم الذي أصدره في سنة ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م ألا يستخدم الذميون مسلما وألا يقتنوا عبدا مسلما أو جارية مسلمة ، وقد تتبع آثار المخالفين لأوامره (١٠٦) .

وأمام اقبال نصارى مصر على تربية الخنازير وأكل لحومها ، أمر الحاكم بأمر الله بقتل الخنازير التي في اقليم مصر ، فقتلت جميعها ، وكانت خنازير كثيرة لاسيما التي كانت في منطقة البشمور (١٠٧) .

ولكن ازاء صرامة القيود التي فرضها الحاكم على أهل الذمة ، وتشدده في تنفيذها ، فقد جأروا بالشكوى ، بل بلغ بهم الأمر أن تشبهوا بالمسلمين وتظاهروا بالاسلام فرارا من قسوة القيود المفروضة عليهم . ثم كان قرار الحاكم بأمر الله سنة ٤٠٤ هـ / ١٠١٣ م بالتصريح لهم المضي الى بلاد الروم أو الحبشة والنوبة دون التعرض لهم (١٠٨) ، وبهذا القرار وضع أهل الذمة موضع الخيار : أما الالتزام بما فرض عليهم من قيود . أو الاسلام . أو الهجرة (١٠٩) . ثم كانت مجموعة السجلات التي أصدرها الحاكم بأمر الله لأهل الذمة قبيل اختفائه سنة ٤١١ هـ / ١٠٢٠ م ، وحملت في مضمونها التخفيف من غلواء سياسته التي اتبعها ازاءهم (١١٠) .

(١٠٦) النويرى : المصدر السابق ، ج ٢٦ ، ورقة ٥٦ .

- المقرئى : اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ، ص ٥٢ ، ٩٤ .

(١٠٧) الانبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ورقة ٥٥ .

(١٠٨) — : نفس المصدر ، ج ٣ ، ورقة ٥٧ .

- الانطاكى : المصدر السابق ، ص ٢٠٧ .

(١٠٩) ماجد : الحاكم بأمر الله ، ص ١٠١ .

(١١٠) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ٢٢٩ - ٢٣٣ .

وفي خلافة الظاهر لاعزاز دين الله نعم أهل الذمة بقدر كبير من التسامح فخففوا من الغيار الذي عليهم ، واقتصر الأكثرون منهم على لباس الزنار وعمامة سوداء (١١١) . كما أن كبار أهل الذمة لم يلتزموا بتلك القيود في خلافة المستنصر بالله الفاطمي ، إذ يذكر أبو صالح الأرمني أن المعلم سرور الجلال كان يخرج للقاء الخليفة المستنصر للسلام عليه ، وعليه الثياب الفخمة « وعمامة صقلى مشدود الوسط بشملة ديبقي مذهبة » (١١٢) .

وكيفما كان الأمر فلم يكن يطلب من أهل الذمة الالتزام بهذه الشروط حرفيا حسنما ورد في عهد عمر المشهور ، فكان موظفو الدولة من أهل الذمة يلبسون الثياب الفخمة ، كأثواب كبار رجال الدولة من المسلمين ، وفي الوقت نفسه يجعلون لأنفسهم مقاما عاليا أمام الرعية ، غير أن مغالاتهم واستعلاءهم على هذه الصورة كانت تسبب من وقت لآخر ارتفاع أصوات المسلمين بالاستنكار ، وبالتالي العودة الى إلزامهم بهذه الشروط (١١٣) .

—————

- (١١١) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ٢٢٨ .
(١١٢) أبو صالح الأرمني : المصدر السابق ، ص ٣٢ .
(١١٣) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٣ ، ورقة ٧٥ .
- المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٦٦ .
- بارتولك : المرجع السابق ، ص ٢٤ .

(ب) أعياد أهل الذمة

أخذت معظم الأعياد الدينية لأهل الذمة في مصر في عصر الفاطميين طابعا فريدا ، ذلك أن الخلفاء الفاطميين شاركوا في الاحتفال بأهم هذه الأعياد بنصيب وافر ، وصبغوا تلك الاحتفالات بالصبغة الرسمية الاجتماعية ، كما اشترك المسلمون في مصر في الجانب الاجتماعي المسلم من تلك الأعياد (١١٤) .

لكن أهل الذمة انتهزوا حسن معاملة الفاطميين لهم والحرية التي منحوها إياهم ، فأظهروا شعائرهم الدينية وخاصة في الأعياد الدينية في جلبة وضوضاء وبطريقة صارخة (١١٥) وإذا كانت هذه الأعياد قد حفلت بمظاهر الفرح والابتهاج ، إلا أنه في بعضها قد شابها الكثير من مظاهر الفساد والانحلال والمجون ، مما دعا الخلفاء الفاطميين إلى فرض القيود على بعض هذه الأعياد الدينية .

(١١٤) متز : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٣٦ .

- جاك تاجر : المرجع السابق ، ص ١٤٦ ، ١٤٧ .

(١١٥) ماجد : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطهم في مصر ، ص ٢٥٤ .

أعياد النصارى :

وكان لقبط مصر الذين ينتحلون مذهب اليعقوبية أربعة عشر عيداً شرعياً سبعة أعياد يسمونها أعياداً كباراً ، وسبعة يسمونها أعياداً صغاراً (١١٦) ، وهناك أعياد أخرى ليست عندهم من الأعياد الشرعية لكنها من المواسم العادية ، هذا بجانب اقامتهم الاحتفالات بذكرى الآباء والقديسين (١١٧) ، وفيما يلي عرض لهذه الأعياد الكبار .

١ - عيد البشارة :

هذا العيد يحتفل به قبط مصر فى اليوم التاسع والعشرين من شهر برمهاث ، ويعتقد النصارى أنه فى هذا اليوم نزل جبريل عليه السلام على السيدة مريم يبشرها بميلاد السيد المسيح (١١٨) .

٢ - عيد الزيتونة :

ويعرف « بعيد الشعانين » ومعناه التسبيح ، وهو ذكرى اليوم الذى دخل فيه السيد المسيح مدينة القدس راكباً أتاناً ، فاستقبله أهلها بالترحاب وبأيديهم أغصان الزيتون ، وهم يسبحون بين يديه الى أن دخل الهيكل . وكان قبط مصر يحتفلون به فى اليوم الثانى والأربعين من الصوم (سابع أحد من الصوم) (١١٩) .

(١١٦) المقرئى : الخط ، ج ١ ، ص ٢٦٣ .

(١١٧) القلقشندى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٢٩ - ٤٢٥ .

(١١٨) المقرئى : الخط ، ج ١ ، ص ٢٦٣ .

- القلقشندى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٢٥ .

(١١٩) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، ج ١ ، ص ٩٢ .

- القلقشندى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٢٥ .

وفى هذا العيد تزين الكنائس بأغصان الزيتون وقلوب النخيل ، ويفرق منها على الناس على سبيل التبريك (١٢٠) .

وكان نصارى الاسكندرية يشقون شوارع المدينة فى الليل يوم الزيتونة حاملين أغصان الزيتون وسعف النخيل ، ويبتهلون بالدعاء والقراءة والتمجيد والصلبان فى أيديهم (١٢١) . كما كان من عادة نصارى مدينة أخميم فى يوم الزيتونة أن يخرج القسس والشمامسة بالمجامر والمباخر والصلبان والأناجيل والشموع ، ويقفون على باب القاضى ، فيبخروا ويقرءوا فصلا من الانجيل ، ويمدحونه ، ثم يكرروا ذلك المشهد على أبواب أعيان المسلمين (١٢٢) .

على أن الحاكم بأمر الله فى العاشر من رجب سنة ٣٧٨ هـ منع النصارى فى عيد الشعانين من تزيين الكنائس وحمل الخوص وأغصان الزيتون كما جرت به العادة ، وأندر كل من يحمل شيئا منها فى هذا العيد ، ثم أمر بالقبض على جماعة ممن لم يمثلوا لامره (١٢٣) . وفى سنة ٣٩٨ هـ / ١٠٠٧ م منع نصارى بيت المقدس من الاحتفال بالشعانين ، وكذلك سائر نصارى مصر ، وأمر بآلا تحمل ورقة من ورق الزيتون ولا من سعف النخيل ، وآلا تزين كنيسة من الكنائس بها ، وآلا يلحظ شيء منها فى يد مسلم ولا نصراني ، وآلا تعرض لأشد العقوبات (١٢٤) .

-
- (١٢٠) الإنطاكي : المصدر السابق ، ص ١٩٤ .
(١٢١) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٣ ، ورقة ٧٧ .
(١٢٢) جاك تاجر : المرجع السابق ، ص ١٥٠ .
(١٢٣) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٦٢ .
(١٢٤) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٩٤ .

على أن نصارى مصر عادوا الى الاحتفال بهذا العيد في خلافة الظاهر وكذلك في خلافة المستنصر ، ويروى الأنبا ميخائيل أن نصارى مدينة الاسكندرية في خلافة المستنصر كانوا يقيمون شعائر هذا العيد كما جرت به العادة في أمن وسلام ، واذا اعترضهم المسلمون بها ، ساروا في حماية والى المدينة (١٢٥) .

٣ - عيد الفصح :

وهو ما يسمى « بعيد القيامة » ، وهو العيد الكبير عند النصارى ، وهو يوم الفطر من صومهم الاكبر ، ويعتقد النصارى أن المسيح عليه السلام قام بعد صلبه ، ودخل على تلاميذه ، وتسلم عليهم ، وأكل معهم ، وأوصاهم وأمرهم بأمر قد تضمنها انجيلهم (١٢٦) .

وكان نصارى مصر يحتفلون بالفصح احتفالا عظيما ، وقد شاركهم المسلمون وكذلك الخلفاء الفاطميون مظاهر الاحتفال بهذا العيد . ويلقى المقرئى بعض الضوء على احتفالات النصارى بالفصح فى حوادث سنة ٤١٥ هـ / ١٠٢٤ م ، فيذكر أنه لخمس بقين من المحرم فى هذا العام كان الاحتفال بفصح النصارى فاجتمع بقنطرة المقس جماهير غفيرة من النصارى والمسلمين فى الخيام المنصوبة وغيرها ، وقضوا طول نهارهم فى لهو ومجون وتهتك قبيح ، واختلط الرجال بالنساء وهم يعاقرون الخمر ، واستشرى الفساد فى هذا اليوم بالدرجة التى حملت النساء فى قساف الحمالين من شدة السكر . كما يذكر المقرئى - أيضا - أن الخليفة الظاهر

(١٢٥) الانبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ورقة ٧٧ .

(١٢٦) ابن الوردي : تنبيه المختصر فى اخبار البشر ، ج ١ ، ص ٨٠ .

- القلقشندي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٢٦ .

لأغزاز دين الله شاهد الاحتفال بهذا العيد اذ ركب في هذا اليوم
في موكب رائع الى القدس وعليه أفرس الثياب وأجملها ، فتفقد مكان
الاحتفال ودار هناك طويلا ثم عاد (١٢٧) .

٤ - خميس الأربعين :

ويعرف أيضا « بعيد الصعود » ويعتقد النصارى أن المسيح
عليه السلام بعد أربعين يوما من القيام ، خرج مع تلاميذه حيث
باركهم ثم صعد الى السماء ، وقد أكمل ثلاثا وثلاثين سنة وثلاثة
أشهر ، فرجع التلاميذ الى اورشليم « بيت المقدس » ، وقد وعدهم
بإشتهاار أمرهم (١٢٨) .

٥ - عيد الخميس :

ويسمى أيضا « عيد العنصرة » ، وكان المسيحيون يحتفلون
به في السادس والعشرين من شهر بشنس بعد خمسين يوما من
قيامه المسيح كما يقولون . ويعتقدون أنه في هذا اليوم اجتمع
الحواريون في عليقة صهيون فتجلى لهم روح القدس ، وتكلمت
ألسنتهم بجميع اللغات ثم تفرقوا في البلاد يدعون الناس الى دين
المسيح (١٢٩) .

٦ - عيد الميلاد :

ويعتقد المسيحيون أنه اليوم الذي ولد فيه المسيح ببيت لحم ،

(١٢٧) المقرئى : اتعاظ الحنفا : ج ٢ ، ص ١٣٧ .

(١٢٨) القلقشندى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٢٦ .

- المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٦٤ .

(١٢٩) القلقشندى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٢٦ .

- المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٦٤ .

ويحتفل به قبط مصر فى التاسع والعشرين من كهيك ، وتزين الكنائس فى هذا العيد ، فيوقد النصارى المصابيح فى الكنائس عشية ليلة الميلاد (١٣٠) .

وكان هذا العيد من الأعياد المشهورة فى مصر الفاطمية ، فكان يفرق فيه على كبار رجال الدولة والأمراء وسائر الكتاب وغيرهم سائر أنواع الحلوى ، والسّمك المعروف بالبورى ، وكان من عادة النصارى فى عيد الميلاد اللعب بالنار ، ومن أحسن ما قيل :

ما اللعب بالنار فى الميلاد من سفه

وانما فيه للاسلام مقصود

ففيه بهت النصارى أن ربهم

عيسى بن مريم مخلوق ومولود

وفى هذا العيد تباع الشموع المزهرة بالأصباغ والألوان الزاهية ، والتماثيل البديعة ، ولا يبقى أحد من الناس على كافة مستوياتهم الا ويشترى منها لأولاده وأهله ، وكان الناس يسمونها الفوانيس ، ويعلقون منها الكثير فى الأسواق والحوانيت ، ويتنافسون فى المغالاة فى الانفاق على تزيينها ، وكان ذلك يعد نوعا من البذخ والترف فى هذا العصر ، وكان على القوم من الأغنياء يتصدقون على الفقراء فى هذا العيد بصغار الفوانيس (١٣١) .

(١٣٠) القلقشندي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٢٦ .

(١٣١) المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٦٤ .

— متز : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٤٠ .

٧ - عيد الغطاس :

ويحتفل به فى اليوم الحادى عشر من شهر طوبة ، وفيه يغطس قبط مصر فى النيل ، وأصله عند النصارى أن يحيى ابن زكريا - عليهما السلام - والمعروف عندهم بيوحنا المعمدانى عمد المسيح - أى غسله - فى مياه الأردن . وعندما خرج من الماء اتصل به روح القدس ، ورغم شدة البرد فان النصارى فى هذا اليوم يغمسون أولادهم فى الماء (١٣٢) .

وكان لليلة الغطاس فى مصر شأن عظيم ، اذ لا ينام الناس فيها فهى أحسن الليالى سرورا وبهجة ، ولا تغلق فيها الدروب ، ويغطس أكثر أهل مصر فى النيل ، ويزعمون أن فى ذلك وقاية من الأمراض (١٣٣) .

وفى ليلة الغطاس يركب متولى الشرطة بالفسطاط فى أول الليل فى موكب كبير وهو يرتدى الملابس الفخمة ، وبين يديه الشموع والمشاعل ، ويطوف شوارع الفسطاط والقاهرة ، وينادى فى الناس بألا يختلط المسلمون مع النصارى فى تلك الليلة ، وألا يأتوا بما يعكر صفو الاحتفال ، حيث يخرج النصارى فى سحر تلك الليلة الى شاطئ النيل ، ويغطس الكثيرون منهم فى مياهه ، وكان من عادة النصارى الملكيين أن يخرجوا من كنيسة القديس مكائيل بقصر الشمع فى جموع غفيرة بالقراءة الملحنة والنعمة الملعنة ، حاملين الصليبان والشموع المضيئة ، حتى اذا وصلوا الى

(١٣٢) القلقشندى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٦٤ .

(١٣٣) المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٦٤ .

شاطيء النيل وقف الأسقف يخطبهم باللغة العربية ويدعو للخليفة
ولمن شاء من خواصه ، ثم تعود الجموع الى كنيستهم على الطريقة
التي خرجوا بها ، ليتمموا الصلاة (١٣٤) .

وكان الناس فى هذا العيد يتجأهرون بشرب الخمر ، ويجتمع
أرباب الملاهى والملاعب من كل فن ، ويخرج الناس فى تلك الليلة
عن الحد فى اللهو والخلاء والفجور مما أدى الى أن فرض بعض
الخلفاء الفاطميين قيودا على هذا العيد (١٣٥) .

ومن ذلك أن الخليفة المعز عندما شاهد الاحتفال بليلة الغطاس
بعد مدة قصيرة من اقامته فى مصر ، ووقف على ما يحدث فى تلك
الليلة من مظاهر البغى والفساد ، أمر بإلغاء الاحتفال بليلة الغطاس
فى سنة ٣٦٢ هـ / ٩٧٢ م ، ومنع النصارى من النزول فى المراكب
وضرب الخيام على شاطيء النيل ، وهدد المخالفين لأمره
بالإعدام (١٣٦) .

وأغلب الظن أن نصارى مصر لم يلتزموا بالقيود التى فرضها
الخليفة المعز على بعض أعيادهم ، واستغلوا سياسة العزيز بالله
المتسامحة ، وعادوا الى الاحتفال بليلة الغطاس ، مما أدى الى أن
يصدر أمره فى سنة ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م بمنع الاحتفال بهذا العيد ،
وهدد المخالفين بإبعادهم عن القاهرة (١٣٧) .

(١٣٤) الانطاكى : المصدر السابق . ص ١٩٦ .

(١٣٥) المقرئى : الخطط . ج ١ . ص ٢٦٤ .

(١٣٦) ابن اياس : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٧ ، ٥٨ .

(١٣٧) المقرئى : اتعاظ الحنفا ، ج ١ ، ص ٢٤٢ .

وفى خلافة الحاكم بأمر الله ، لم يمنع أهل الذمة من الاحتفال بأعيادهم فى أول الأمر ، فعاد النصارى الى الاحتفال بليلة الغطاس ، ويذكر المقرئى أنه فى شهر المحرم سنة ٣٨٨ هـ كان الاحتفال بتلك الليلة ، فضربت الخيام والأسرة فى عدة مواضع على شاطئ النيل ، ونصبت أسرة للرئيس فهد بن ابراهيم النصرانى ، وأوقدت له الشموع والمشاعل ، وبين يديه أهل الغناء والملاهى والطرب فجلس الرئيس فهد مع أهله يشرب الى أن كان وقت الغطاس فغطس وانصرف (١٣٨) .

وكان اشتراك فهد فى هذا العيد الذى حفل بمظاهر الأبهة والعظمة دليلا على اشتراك الدولة بصورة رسمية فى الاحتفال به . هذا ويذكر الأنطاكى أن الحاكم بأمر الله كان يحضر احتفالات النصارى بليلة الغطاس فى كثير من الأعوام فى صورة متكررة يشاهد ما يقوم به النصارى من شعائر دينية ، وما يحدث فيها من مظاهر اللهو والطرب ، وما يشوبها من مظاهر الانحلال والفساد . ولذلك أمر الحاكم بأمر الله فى سنة ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م بمنع جميع الطوائف النصرانية فى سائر أنحاء الدولة من الاحتفال بليلة الغطاس . وعدم الاستعداد له فى السنوات القادمة ، وصرف النظر عن الاحتفال بهذا العيد كلية (١٣٩) ، كما جدد الحاكم الأمر بمنع الاحتفال بالغطاس فى ثامن عشر جمادى الأولى سنة ٤١١ هـ ، فلم يغطس أحد من نصارى مصر فى النيل (١٤٠) .

وإذا كان الحاكم بأمر الله قد أصدر مرسوما فى شعبان سنة ٤١١ هـ بالعفو الشامل والتسامح المطلق فى سياسته ازاء أهل الذمة (١٤١) ، فان الخليفة الظاهر لأعزاز دين الله -

فى سنة ٤١٥ هـ / ١٠٢٤ م باقامة عيد الغطاس ، ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل شارك فيه بنفسه مع أهله وحرمة وكبار رجال دولته . ويذكر المقرئزى أنه فى ليلة الأربعاء رابع ذى القعدة من تلك السنة ، كان غطاس النصارى فأمر الخليفة الظاهر بأن تجرى مظاهر الاحتفال كما كان يحتفل به ، على ألا يختلط المسلمون مع النصارى عند غطاسهم فى النيل ، وركب الخليفة لنظر الغطاس ومعه الحرم والحاشية ، وأمر بأن توقد النار والمشاعل فى الليل ، وحضر الرهبان والقسوس بالصلبان والنيران فأدوا مراسم الاحتفال ثم غطسوا وانصرفوا (١٤٢) .

وفى هذه الليلة كانت المراكب النيلية والزوارق تمتلئ بالسواد الأعظم من المسلمين والنصارى على اختلاف طبقاتهم ، وتزين المراكب بالقناديل والشموع المضيئة ، كما تكثر المشاعل على ضفاف النيل ، وكان يشغل على جانبيه ما يزيد على ألف مشعل وألف فانوس ، كما كان ينزل رؤساء القبط فى المراكب النيلية ويخرج الناس فى تلك الليلة عن الحد فى اللهو والفرجة والمجون ، ولا يغلق فى تلك الليلة دكان ولا درب ولا سوق ، وتتجهر الناس بشرب المسكرات (١٤٣) ، وكان اقبال الناس على عادة شراء أصناف الفاكهة والضأن وغيره من أصناف الطعام والشراب (١٤٤) ، حيث تصرف الأموال الطائلة فى المآكل والمشارب ، وترسل الهدايا الى رؤساء الأقباط فى تلك الليلة بأطنان القصب والسبك البورى والحلوى والكمثرى والتفاح والسفرجل والأترج والنانج والليمون المراكبى وباقات النرجس وغير ذلك من الهدايا القيمة (١٤٥) ، كما

(١٤٢) المقرئزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٦٥ ، ٤٩٤ .

— : اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ، ص ١٦٢ ، ١٦٣ .

(١٤٣) ابن اياس : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٨ .

(١٤٤) المقرئزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٦٥ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤ .

(١٤٥) ابن اياس ، ص ١١٠ .

جرت العادة أيضا في ليلة الغطاس أن يضاء سوق الشمايين كأعظم ما تكون الاضاءة ، وتظل الحوانيت تعمل الى منتصف الليل (١٤٦) .
وأما الأعياد الشرعية الصغار فعددها سبعة أيضا وهي : -

١ - الختان :

وهو السادس من شهر بؤنة ، ويعتقدون أن المسيح ختن في هذا اليوم وهو الثامن من الميلاد (١٤٧) ، وكان من أهم الأعياد العائلية عند قبط مصر ، حيث أنهم يختنون أولادهم بخلاف غيرهم من النصارى (١٤٨) .

٢ - الأربعون :

وهو عند النصارى في الثامن من شهر أمشير ، ويعتقد النصارى أنه في هذا اليوم دخل الكاهن سمعان الهيكل وبارك السيد المسيح بعد أربعين يوما من ولادته (١٤٩) .

٣ - خميس العهد :

وهو الخميس الذى يحتفل فيه النصارى بانجيلهم وذلك قبل الفصح بثلاثة أيام ، وسنتهم فيه أن يقوم البطريرك بغسل أرجل النصارى اعتقادا منهم أن السيد المسيح فعل هذا مع تلاميذه ليعلمهم التواضع وكان أهل مصر يسمونه « خميس العدس » حيث يطبخ فيه النصارى العدس على ألوان شتى (١٥٠) ، كما كان يباع

(١٤٦) متر : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٤٢ .

(١٤٧) القلقشندى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٢٧ .

(١٤٨) متر : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٥١-٢٥٠ .

(١٤٩) القلقشندى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٢٧ .

- المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٦٥ .

(١٥٠) القلقشندى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٢٧ .

فى أسواق القاهرة من البىض المصبوغ ما يتجاوز حد الكثرة ،
ويهادى النصارى بعضهم بعضا ، ويهدون الى المسلمين أنواع السمك
مع العدس المصفى والبىض (١٥١) . وكان أهل الاسكندرية يخرجون
فى هذا اليوم الى المنارة ، ومعهم مآكلهم - ولا بد أن يكون العدس
من بينها - فيفتح باب المنار ويدخله الناس ، فمنهم من يذكر الله ،
ومنهم من يصلى ، ومنهم من يلهو ويلعب ، وكانوا يستمترون على هذه
الحال حتى منتصف النهار ثم ينصرفون (١٥٢) .

وجرت العادة فى خلافة الفاطميين أن رؤساء القبط كانوا
يضربون فى يوم خميس العدس خمسمائة دينار ذهباً عشرة آلاف
خروبة ، تفرق على أرباب الدولة على سبيل التبرك (١٥٣) .

٤ - سبت النور :

ويحتفل به قبل الفصح بيوم واحد ، ويعتقد النصارى أن
النور فى هذا اليوم يظهر على قبر المسيح ، ومنه تستمد مصابيح
كنيسة القيامة كلها نورها (١٥٤) .

٥ - حد الحدود أو « الأحد الجديد » :

وهو بعد الفصح بثمانية أيام ، وهو مناسبة عند المسيحيين
لتجديد الآلات والأثاث والملابس ، وفيه تنشيط المعاملات التجارية ،
ويجعلونه بدءاً للأعمال ، وتاريخاً للشروط والقبالات (١٥٥) .

(١٥١) المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٦٥ .

(١٥٢) المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ١٥٦ .

(١٥٣) — : نفس المصدر ، ص ٥٩٤ .

(١٥٤) القلقشندى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٢٧ .

(١٥٥) أبو الفدا : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٩١ .

— القلقشندى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٢٨ .

٦ - عيد التجلي :

ويحتفل به في ثالث عشر شهر مسرى ، ويعتقد النصارى أن المسيح عليه السلام تجلى لتلاميذه بعد ما رفع ، فتمنوا عليه أن يحضر لهم « ايلياء وموسى » عليهما السلام ، فأحضرهما اليهم بمصلى بيت المقدس ثم صعد الى السماء وهما معه (١٥٦) .

٧ - عيد الصليب :

وهو في اليوم السابع عشر من شهر توت ، ففي هذا اليوم من عام ٣٢٨ م وجدت الملكة هيلانة - أم الامبراطور قسطنطين - الصليب الذى صلب عليه السيد المسيح ، فأمرت بأن يكون على خشبات الصليب غلاف من ذهب وأن تبني الكنيسة المعروفة بكنيسة القيامة ببيت المقدس على قبر المسيح (١٥٧) .

وكان هذا العيد من أجل أعياد مصر ، وكان فيه النصارى يلبسون الملابس الفخمة ، ويظهرون زينتهم ، كما كانوا يقيمون الشعائر بالكنائس (١٥٨) .

ولما كان المحتفلون بعيد الصليب يتظاهرون بالمنكرات من جميع أنواع المحرمات ، ويفعلون ما يتجاوز الحد في الطرقات عند خروجهم الى بنى وائل بظاهر الفسطاط فان العزيز بالله الفاطمى أصدر أمره فى رابع شهر رجب سنة ٣٨١ هـ يمنع الناس من الخروج الى بنى وائل ، وضبط الطرقات والدروب وتشديد الرقابة عليها خوفا من تفشى المنكرات والفسوق (١٥٩) ، على أن العزيز

(١٥٦) — نفس المصدر ، ونفس الصفحة .

(١٥٧) القلقشندى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٢٨ ، ٤٢٩ .

— المقرئى : الخط ، ج ١ ، ص ٢٦٦ .

(١٥٨) — نفس المصدر ونفس الصفحة .

(١٥٩) — : اقعاظ الحنفا ، ج ١ ، ص ٢٧٢ .

بالله الذى عرف بعطفه على النصارى بوجه خاص أعاد الاحتفال بهذا العيد فى سنة ٣٨٢ هـ / ٩٩٢ م ، واحتفل به فى الرابع عشر من شهر رجب من تلك السنة جريا على سياسته المتسامحة ازاء أهل الذمة (١٦٠) .

وفى خلافة الحاكم بأمر الله كان سجله الصادر فى شهر صفر سنة ٤٠٢ هـ والذى قرئ بجامع عمرو بالفسطاط وفى الطرقات يتضمن أمر الخليفة بمنع النصارى من الاحتفال بعيد الصليب ، مع عدم الخروج الى بنى وائل ، وألا يقيموا مظاهر الزينة والملاهى فى هذا العيد ، وألا يقربوا كنائسهم لاقامة الشعائر (١٦١) ، نظرا لما كان يشوب مظاهر الاحتفال بهذا العيد من فسق ومجون .

كما كان هذا العام (٤٠٢ هـ / ١٠١١ م) والعام الذى يليه من أكثر الأيام قسوة وصرامة بالنسبة للقيود التى فرضها الحاكم بأمر الله على أهل الذمة (١٦٢) ، واستمر الأمر كذلك الى أن كان مرسومه الصادر فى شعبان سنة ٤١١ هـ بالعفو الشامل والتسامح المطلق فى سياسته ازاء أهل الذمة (١٦٣) .

وكان لنصارى مصر بعض الأعياد والمواسم الخاصة بهم التى اتخذت طابعا شبه قومى ، اذ شاركهم المسلمون فى الاحتفال بتلك الأعياد . وقد ارتبطت بعض هذه الأعياد بنهر النيل ، وفى ذلك

(١٦٠) — : نفس المصدر ونفس الجزء ، ص ٢٧٦ .

— : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٦٦ .

(١٦١) — : اتعاظ الحنفا ، ج ١ ، ص ٢٧٢ .

— الخطط ، ج ١ ، ص ٢٦٦ .

(١٦٢) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ٢٠٢ .

(١٦٣) — : المصدر السابق ، ص ٢٣٢ .

دلالة على امتداد جذورها الى أيام قدماء المصريين (١٦٤) ، ومن هذه
المواسم والأعياد :

عيد الشهيد :

وكان عيد الشهيد فى الثامن من شهر بشنس ، وكان واحدا
من أعظم الأعياد النصرانية ، ويعتقد قبط مصر أن النيل لا يزيد
فى موسم الفيضان فى كل سنة حتى يلقوا فيه فى عيد الشهيد
تابوتا من خشب ، فيه أصبع من أصابع أحد أسلافهم الموتى
(القديسين والشهداء) ، ويخرج النصارى من جميع القرى والمدن
للاحتفال بهذا العيد ، كما كان يخرج عامة أهل القاهرة والفسطاط
على اختلاف طبقاتهم ودياناتهم ، وينصبون الخيام على شاطئ النيل
وفى الجزر المقابلة للشاطئ ، حيث يحتفون بعيد الشهيد ، وفى
هذا اليوم « لا يبق مغن ولا مغنية ، ولا صاحب لهو ، ولا رب
ملعوب ، ولا بغى ، ولا مخنث ، ولا ماجن ، ولا خليع ، ولا فاتك ،
ولا فاسق الا ويخرج لهذا العيد (١٦٥) » .

ففى هذا العيد تصرف الأموال الكثيرة ، ويتجاهر الناس
بما لا يحتمل من المعاصى والفسوق ، وتثور الفتن ، ويقتل أناس ،
ويقبل الكثير على شرب الخمر التى يباع منها فى ذلك اليوم ما يزيد
على مائة ألف درهم فضة وخمسة آلاف دينار ذهباً فى جهة شبرا
وحدها . ذلك أن اجتماع الناس لعيد الشهيد كان دائما بناحية
شبرا من ضواحي القاهرة ، وكان اعتماد فلاحي شبرا دائما فى
وفاء الخراج على ما يبيعونه من الخمر فى هذا العيد . ففى يوم

(١٦٤) قاسم عبده : المرجع السابق ، ص ١٩٦ .

(١٦٥) المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٦٨ - ٧٠ .

واحد باع نصراني - حسبما يذكر المقرئى - باثنى عشر ألف درهم
فضة من الخمر (١٦٦) .

عيد الخروج :

وكان من الأعياد الكبرى عند نصارى مصر ، والتي كان يشارك
المسلمون فى الاحتفال به . وهو عيد الخروج لسجن يوسف
بالجيزة ، وكانت عادة العامة والسوقة أن يطوفوا فى هذا العيد
- قبل الخروج للسجن - أسواق المدينة بالطبول والبوقات ليجمعوا
من التجار ما ينفقونه فى خروجهم وحدث فى عام ٤١٥ هـ / ١٠٢٥ م
أن اشتد الغلاء ، فامتنع التجار عن الدفع ، ولما علم بذلك الخليفة
الظاهر لاعزاز دين الله أمرهم بأن يدفعوا ما جرت به العادة ، وبأن
يطلق للمحتفلين ضعف ما أطلق لهم فى السنة الماضية ، فخرجوا
الى سجن يوسف بالجيزة ، ومعهم التماثيل والمضاحك والخيال
والسماجات . وخرج الخليفة الى الجيزة ، وأقام يومين لمشاهدة
جماعة المحتفلين ، فضحك منهم وأعجب بهم واستظرفهم (١٦٧) .

عيد النيروز :

وهو أول السنة القبطية فى مصر ، وموعده اليوم الأول من
شهر توت ، ومعنى النيروز أو « النوروز » : اليوم الجديد (١٦٨) ،

(١٦٦) — : نفس المرجع ، ص ٦٧ ، ٦٨ .

— متر : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٤٥ .

(١٦٧) المقرئى : اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ، ص ١٤٤ - ١٤٥ .

— متر : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٤٤ .

— سرور : مصر فى عصر الدولة الفاطمية ، ص ٢١٦ .

(١٦٨) القلقشندى : المصدر السابق . ج ٢ ، ص ٤٢٩ .

وكان الاحتفال بهذا العيد يأخذ طابع الاحتفالات القومية بمصر ، لأنه فى أغلب الظن من الأعياد والمواسم التى أخذت عن قدماء المصريين (١٦٩) ، وفى هذا اليوم تعطل الأسواق وتقل الحركة التجارية ، ويستعد الناس للاحتفال بالنيروز (١٧٠) .

ومن مظاهر احتفال العامة بمصر بيوم النيروز ، أنهم كانوا ينتخبون رجلا يسمونه « أمير النيروز » يطلى وجهه بالدقيق أو الجير ، ويضع لحية مستعارة ، ويرتدى ثوبا أحمر أو أصفر ، ومعه جمع غفير من العامة ، فيتسلط على الناس فى طلب رتبة وفى يده دفتر المحتسب ، فمن لم يدفع الرسم يرش بالماء ممزوجا بالأقذار . وفى هذا اليوم يجتمع المغنون وأصحاب الملاحى تحت قصر الخلافة وبأيديهم الملاحى ، وترتفع الأصوات ، ويشرب الناس الخمر والمز فى الشوارع والطرقات شربا ظاهرا دون حياء ، والعامة يتراشون بالماء ، وبالماء ممزوجا بالأقذار ، وإن أخطأ مستور وخرج من بيته لقيه من يرشه بالماء ، ويفسد ثيابه ، ويستخف بحرمته ، فاما أن يفدى نفسه واما أن يلقي ما لا يرضيه ، كما يرتكب أهل المنكر فى هذا اليوم كثيرا من المعاصى ، ويخرجون عن حد الحياء والحشمة الى الغاية من الفجور والعهور ، وقلما كان ينقضى يوم نيروز الا وقتل فيه قتيل أو أكثر لخروج الناس عما هو مألوف ، كما أن رجال الشرطة كانوا لا يعترضون عما يحدث فى هذا اليوم (١٧١) .

(١٦٩) المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٦٦ .

(١٧٠) — : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٢٦٨ .

(١٧١) المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٦٧-٢٦٨ .

— مئز : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٤٦ .

ولما كان الاحتفال بيوم النيروز يشوبه من المنكرات والفسوق ما يخرج عن الحد ، ويفوق ما يحدث ليلة الغطاس من مجون وخلاعة ، فان الخليفة المعز لدين الله أصدر أمره سنة ٣٦٣ هـ / ٩٧٢ م بالمنع من وقود النيران ليلة النيروز في الطرقات ، ومن صب الماء يوم النيروز (١٧٢) . الا أنه في سنة ٣٦٤ هـ / ٩٧٤ م ، خرج الناس في الاحتفال بعيد النيروز عن كل ما هو مألوف اذ زاد اللعب بالماء ، وكثر وقود النيران وطاف أهل الأسواق ومعهم الملاحى وخرجوا الى القاهرة بلعبهم وأظهروا السماجات في اللعب بالأسواق ، مما جعل الخليفة المعز - بعد ثلاثة أيام من استمرار الاحتفال بهذا العيد - أن يأمر بالنداء بالكف عن كل ما يحدث ، وأنزل العقاب بمن لم يمثل لندائه ، فحبس قوم خالفوا أمره ، واخذ آخرون فطيف بهم كعقاب لهم لخروجهم عما أمر به (١٧٣) .

الا أنه في خلافة العزيز بالله عاد النصارى للاحتفال بيوم النيروز ويذكر النويرى أنه لسبع خلون من شهر ربيع الأول سنة ٣٧٢ هـ ، كان الاحتفال بهذا العيد ، فاكل الناس الرطب قبل النيروز على عادتهم (١٧٤) :

وفى بداية خلافة الحاكم بأمر الله ، وفى السادس عشر من ربيع الأول سنة ٣٨٨ هـ كان نوروز الفرس فأهدى الأتراك وقوادهم وكبار رجال الدولة منهم الى الحاكم بأمر الله كثيرا من الخيل

(١٧٢) المقرئى : اتعاظ الحنفا ، ج ١ ، ص ٢١٤ .

(١٧٣) المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٦٧ .

_____ : اتعاظ الحنفا ، ج ١ ، ص ٢٢٤ .

(١٧٤) النويرى : المصدر السابق ، ج ٢٦ ، ورقة ٤٧ ، ٤٨ .

والسلاح ، فقبل بعضا من هديتهم ورد الباقي اليهم شاكرا لهم (١٧٥) .

كما يذكر المقرئى أن الحاكم بأمر الله صرح بالاحتفال بيوم النيروز في ذى القعدة من عام ٣٩٥ هـ ، فاحتفل به الناس حسبما جرت به العادة (١٧٦) .

وإذا كان الظاهر لاعزاز دين الله قد صرح بإقامة الكثير من الأعياد الدينية لأهل الذمة ، وكذلك المواسم والأعياد القومية ، إلا أنه في تاسع عشر جمادى الآخرة سنة ٤١٥ هـ فرض قيودا على الاحتفال بهذا العيد ، فأمر بأن يضرب فى هذا اليوم بالأجراس فى آخر النهار ألا يلعب أحد بالماء فى يوم النيروز فى مدينتى الفسطاط والقاهرة (١٧٧) ، وربما كان دافعه الى اتخاذ مثل هذا القرار كثرة ما يحدث فى هذا اليوم من فسق ومجون .

على أن النصارى احتفلوا كذلك بالعديد من المواسم والأعياد سوى ما تقدم ، لكنها كانت عندهم من المواسم العادية ، وقد أحصى القلقشندى منها مائة وثمانية وسبعين عيداً وموسماً موزعة حسب ترتيب الشهور القبطية . كما انفرد أقباط مصر بالاحتفال ببعض هذه الأعياد والمواسم حسبما جرت به العادة (١٧٨) .

(١٧٥) المقرئى : اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ، ص ١٨ .

النوروز أول سنة الفرس ، وهو الرابع من شهر آذار وجرت فيه العادة أن يهدى العبيد السادة . (المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٦٧ ، القلقشندى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٥٩ .

(١٧٦) المقرئى : اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ، ص ٥٩ .

(١٧٧) ————— : نفس المصدر والجزء . ص ٩ ١٤ .

(١٧٨) القلقشندى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٣٠ - ٤٣٥ .

١ - أعياد اليهود :

وإذا كان نصارى مصر يحتفلون بالعديد من أعيادهم الدينية ، فان يهود مصر قد احتفلوا أيضا بالعديد من أعيادهم الدينية ومنها :

١ - عيد رأس السنة اليهودية :

ويسمونه بالعبرية عيد « رأس هيشا » أى عيد رأس الشهر ، وهو فى اليوم الأول من شهر تشرى أحد الشهور اليهودية وهو عندهم بمنزلة عيد الأضحى عند المسلمين ، ويقولون فى ذكره أن الله سبحانه وتعالى أمر نبيه إبراهيم عليه السلام بذبح ولده اسماعيل ، فلما امتثل الاثنان لأمر الله ، فدا الله اسماعيل بذبح عظيم (١٧٩) ، ويعتبر هذا العيد أيضا عيد عتق وحرية عند اليهود لخلاصهم من فرعون ، ويذكر المقرئى أنه عيد البشارة بعثى الأرقاء (١٨٠) ، ومن مظاهر الاحتفال بهذا العيد عند الربانيين أنهم ينفخون فى الأبواق أثناء اقامتهم للصلاة فى المعابد ، بناء على تفسيرهم لبعض النصوص الواردة فى التوراة بشأن هذا العيد . أما القراءون فيقومون بالصلاة والتهليل حمدا وشكرا لله لأنه يوم عتق الأرقاء (١٨١) .

٢ - عيد صوماريا :

ويسمونه (الكبور) ، ومعناه عيد الغفران أو الاستغفار (١٨٢) . وربما سموه العاشور ، وهو فى اليوم العاشر من شهر تشرين اليهودى ، ويقولون أنه فى هذا اليوم فرض الله الصوم الكبير على اليهود (١٨٣) ، ومدته عند القرائين أربعة وعشرون

(١٧٩) القلقشندى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٣٦ .

(١٨٠) المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٤٧٢ .

(١٨١) قاسم عبده : المرجع السابق ، ص ١٤٧ .

(١٨٢) المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٤٧٢ .

(١٨٣) القلقشندى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٣٦ .

ساعة ، ويبدأ الصوم من اليوم التاسع من شهر تشرين قبل غروب الشمس الى ما بعد غروبها في اليوم العاشر ، أما الربانيون فيجعلون مدة هذا الصوم خمسة وعشرين ساعة (١٨٤) ، ويشترط لجواز الافطار رؤية ثلاثة كواكب عند الافطار (١٨٥) ، وتشدد السامرة في صيام ذلك اليوم ، فلم يستثنوا منه الأطفال الرضع ، ويعتقد اليهود أن هذا الصوم هو تمام الأربعة الثالثة التي صامها موسى عليه السلام (١٨٦) ، ومن لم يصم منهم هذا اليوم يقتل شرعا طبقا للشريعة اليهودية ، وعند الربانيين لا يجوز أن يقع هذا الصوم في يوم الأحد ، وفي يوم الثلاثاء ، ولا في يوم الجمعة . ويعتقد اليهود أن الله سبحانه وتعالى يغفر لهم في هذا اليوم جميع ذنوبهم ما خلا الزنا بالمحصنة ، وظلم الرجل أخاه ، وجحده ربوبية الله عز وجل (١٨٧) .

وفي هذا اليوم ينقض اليهود عهودهم ومواثيقهم التي قطعوها على أنفسهم لغير اليهود ، كما يأكلون الديون التي عليهم لغير اليهود ، مما أدى الى معارضة بعض فقهاء اليهود في العصر الحديث لتلك المزاعم (١٨٨) .

٣ - عيد المظلمة :

ويكون الاحتفال به في اليوم الخامس عشر من شهر تشرى ، وهو سبعة أيام كلها أعياد عندهم ، وهو فريضة على المقيم دون

(١٨٤) المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٤٧٢ .

(١٨٥) القلقشندي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٣٦ .

(١٨٦) قاسم عبده : المرجع السابق ، ص ١٤٨ .

(١٨٧) القلقشندي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٣٦ .

- المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٤٧٢ .

(١٨٨) قاسم عبده : المرجع السابق ، ص ١٤٨ .

المسافر (١٨٩) ومن مظاهر هذا العيد أنهم لا يخرجون من بيوتهم - كما هو يوم السبت - ، وفي اليوم الثامن يحتفلون بعيد يقال له عيد الاعتكاف (١٩٠) ، وفي تلك الأيام السبعة التي أولها خامس عشر تشرى يجلسون تحت سعف النخيل الأخضر وأغصان الزيتون ، وسائر الأشجار التي لا يتناثر ورقها ، ويرون أن ذلك تذكارا منهم لاطلال الله آباءهم في التيه بالغمام (١٩١) ، ويصوم القراءون في اليوم الرابع والعشرين من هذا الشهر ، ويعرف هذا الصوم بصوم كداليا ، وعند الربانيين يكون هذا الصوم في ثلثه (١٩٢) .

ويرى البعض أن هذا العيد يرجع الى أصول زراعية ورعوية ، استنادا الى أن أسماء هذا العيد بالعبرية « نجح ها اسيف » أي « عيد التخزين » (١٩٣) .

٤ - عيد الفطير :

وهو رابع الأعياد الشرعية عند اليهود ، ويسمى^١ « عيد الفصح » ، ويكون في الخامس عشر من نيسان^٢ ، وأجل الأعياد عند اليهود (١٩٤) ، ومدة الا- سبعة أيام ، وثمانية عند الربانيين^٣ ، أيام (١٩٥) ، وفي أيام هذا ال- فيها من خبز الخمير (١٩٥)

الله فيه .بنى اسرائيل من يد فرعون وأغرقه ، فخرجوا الى التيه (الصحراء) يأكلون اللحم والخبز والفطير ، فأمرُوا باتخاذ الفطير وأكله في هذه الأيام ، ويعتقدون أنه في آخر هذه الأيام كان غرق فرعون في البحر (١٩٦) ، ويعتبر هذا العيد عند اليهود من أعياد التضحية ومواسم الحج (١٩٧) .

٥ - عيد الأسابيع :

وهو خامس الأعياد الشرعية عند اليهود ، ويسمى أيضا « عيد العنصرة » و « عيد الخطاب » ، وموعده بعد عيد الفطير بسبعة أسابيع ، في اليوم السادس من شهر سيوان من شهور اليهود ، وهو الثالث والعشرون من بشنس من شهور القبط (١٩٩) ، ولا يكون هذا العيد عند الربانيين أبدا يوم الثلاثاء ، ولا يوم الخميس ، ولا يوم السبت (٢٠٠) ، على أن القرائن لا يتقيدون بذلك (٢٠١) ، ويعتقد اليهود أنه في هذا اليوم خاطب الله فيه بنى اسرائيل من طور سيناء مع موسى عليه السلام ، ونزلت على بني اسرائيل فيه الفرائض (٢٠٢) والوصايا العشرة (٢٠٣) ، كما استمعوا فيه الى كلام الله تعالى من الوعد والوعيد (٢٠٤) .

(١٩٦) أبو الفدا : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٨٨ .

(١٩٧) ابن الوردي : تنمة المختصر في أخبار البشر ، ج ١ ، ص ٧٧ .

(١٩٨) عبده قاسم : المرجع السابق ، ص ١٤٩ .

(١٩٩) القلقشندي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٣٧ .

(٢٠٠) المقرئزي : الخطط ، ج ٢ ، ص ٤٧٣ .

(٢٠١) قاسم عبده : المرجع السابق ، ص ١٥٠ .

(٢٠٢) المقرئزي : الخطط ، ج ٢ ، ص ٤٧٣ .

(٢٠٣) القلقشندي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٣٧ .

(٢٠٤) أبو الفدا : المختصر السابق ، ج ١ ، ص ٨٨ .

- ابن الوردي ، المختصر السابق ، ج ١ ، ص ٧٧ .

ومن مظاهر الاحتفال بهذا العيد ، أنهم كانوا يأكلون فيه
القطائف ، ويتفننون في صنعها ، ويجعلونها بدلا من المن الذي أنزله
الله عليهم في هذا اليوم ، ويسمى هذا العيد بالعبرية « عسرتا »
ومعناه « الاجتماع » وهو من مواسم حجهم (٢٠٥) .

ولليهود أعياد أخرى لكنها مستحدثة ، ويعتقدون أن التوراة
نصت عليها ، وهما : عيد الفوز ، وعيد الحنكة (٢٠٦) .

١ - عيد الفوز :

وهو عندهم عيد سرور ولهو وخلاعة ، كما يتبادلون فيه
الهدايا ، ويكون الاحتفال به في اليوم الرابع عشر من شهر آذار ،
ويسبقه في الثالث عشر من هذا الشهر صوم يسمى « صوم أستير » .

ولذلك رواية مؤداهما أنه بعد تدمير بيت المقدس على يد
بختنصر سنة ٥٨٦ ق.م ، نقل اليهود من فلسطين الى بابل ، وأثناء
اقامتهم هناك وقع كسرى الفرس « اكسر كسييس » والمعروف عند
المؤرخين العرب باسم « أردشير بن بابك » في غرام فتاة يهودية
— من أحسن أهل زمانها وأكملهم عقلا — ابنة حبر يهودى يسمى
مردوخاى ، ولما تزوج كسرى من الفتاة أصبح لليهود مكانة مرموقة
ونفوذا كبيرا ، مما أثار حقد هامان الوزير الفارسى الذى صدم على
استئصال شافة اليهود وانهاء وجودهم فى بلاده ، فدبر مؤامرة
ضدهم ، وحدد اليوم الثالث عشر من شهر آذار موعدا لتنفيذها
غير أن أستير زوجة كسرى اليهودية علمت بالمؤامرة قبل وقوعها ،
ونقلت تفاصيلها الى كسرى ، وأوعزت اليه بقتل وزيره هامان ،
فقتله ، وأمر بملاحقة اتباع الوزير وقتلهم ، ثم كتب لليهود عهدا
بالأمان والبر والاحسان فى هذا اليوم . لذا اتخذ اليهود من الثالث

(٢٠٥) القلقشندي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٣٧ .

(٢٠٦) — : نفس المصدر ونفس الصفحة .

عشر من آذار عيداً ، ويصومون قبله ثلاثة أيام شكراً لله تعالى .
وجعلوا بعده يومين اتخذوهما أيام فرح وسرور ، كما يتبادلون
فيها الهدايا ، ومن مظاهر الاحتفال أيضاً بهذا العيد ، انهم كانوا
يعملون تماثيل من الورق رمزا للوزير هامان ، ويملاؤها نخالة
وملحاً ويلعبون بها ، ثم يلقونها فى النار لحرقها (٢٠٧) .

٢ - عيد الحنكة :

ومعناه التنظيف ، وهو ثانى الأعياد اليهودية المستحدثة ،
ويحتفل به الربانيون ثمانية أيام أولها الخامس والعشرون من شهر
كسلو اليهودى ، يوقدون فى الليلة الأولى من لياليه على كل باب
من أبوابهم سراجاً ، وفى الليلة الثانية سراجين ، وهكذا الى أن
يسرجوا فى الليلة الثامنة ثمانية سروج (٢٠٨) ، ومناسبة هذا العيد
ترجع الى سنة ١٦٥ ق.م عندما كانت بلاد الشام تحت حكم
البطالمة ، وحاول انتيوخوس أبيفانيس ارغام اليهود على عبادة
الأصنام ، الا أن كاهنهم الأكبر المسمى « متانيا » قاومه مقاومة
شديدة مع أبنائه الثمانية ، واستطاع ابنه الأصغر « يهوذا »
استعادة الهيكل من جيوش البطالمة ، وفى الخامس والعشرين من
شهر كسلو حطم « يهوذا » التماثيل الاغريقية التى كانت بالهيكل ،
وزود « متانيا » وابنه « يهوذا » الهيكل بمذبح جديد ، وفتح الهيكل
لممارسة الشعائر الدينية (١٠٩) ، غير أنهم لم يجدوا الزيت الكافى

(٢٠٧) القلقشندي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٣٩

- قاسم عبده : المرجع السابق ، ص ١٥٠ .

(٢٠٨) أبو الغدا : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٨٩

(٢٠٩) قاسم عبده : المرجع السابق ، ص ١٥١ .

لاضساء الهيكل ، فوزعوا ما عندهم من الوقود اليسير على عدد
المصابيح التى يوقدونها على أبواب دورهم فى كل ليلة الى تمام ثمان
ليال ، فاتخذوا هذه الأيام عيداً وسموه « الحنكة » وهو كلمة
عبرية تعنى التنظيف ، لأنهم نظفوا فيه الهيكل من تماثيل الآلهة
الوثنية (٢١٠) . على أن القرائن لا يعترفون بهذا العيد (٢١١) .

(٢١٠) القلقشندي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٢٩ .

(٢١١) المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٤٧٢ .

— وتذكر بعض الروايات أن أحد الحكام اليونانيين تغيب على بيت
المقدس . وفتك باليهود ، واقتضى ابتكارهم قبل الامداد الى أزواجهن ، وكان
لرجل من اليهود ثمانية بنين وبنات واحدة ، وخاف اليهودى على ابنته التى سرف
تتزوج ، وحرص بنيه على قتل ذلك الحاكم ، فاحتال أصغرهم عليه وقتله ، ففرح
بنو اسرائيل بذلك ، واتخذوا من ذلك اليوم عيداً فى ثمانية أيام تذكارا للاخوة
الثمانية (ابن القدا : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٨٩) .

(ب) سياسة الفاطميين الدينية ازاء أهل الذمة

— موقف الخلفاء الفاطميين ازاء رجال الكنيسة المسيحية —

تمتع أهل الذمة في مصر بسياسة التسامح الديني التي سار عليها الخلفاء الفاطميون في العصر الفاطمي الأول - باستثناء فترة من عصر الحاكم بأمر الله - ونعموا بحرية ممارسة شعائرهم الدينية انطلاقاً من مبدأ حرية العقائد الدينية لأهل الذمة .

فالخليفة المعز لدين الله الفاطمي - باجماع المصادر النصرانية كان متسامحاً في سياسته الدينية بوجه عام ازاء أهل الذمة ، ومع النصاري بوجه خاص ، إذ لم يتدخل في الشؤون الداخلية الخاصة بالكنيسة ، علاوة على أنه أقام علاقات وطيدة مع رجالها .

فقلنما توفي الأنبا مينا البطريرك الحادي والستين للكنيسة القبطية ، اجتمع أساقفة الكنيسة وأعيان القبط سنة ٣٦٦ هـ / ٩٦٨ م لانتخاب خلف له من بينهم ، ووقع اختيارهم على تاجر سوري اسمه إبراهيم بن زرعة - الذي اشتهر بتقواه وعلمه - ، ورسموه بطريركاً بالأنبا ابراهيم السورياني ، ليكون البطريرك

الثاني والستين للكنيسة القبطية • ولم يعترض الخليفة المعز لدين الله على هذا الاختيار • بل نشأت بينه وبين البطريك الجديد صداقات طيبة وكان يستدعيه الى مجلسه بقصر الخلافة ، ويستقبله باكرام واحترام بالغين ، كما كان البطريك ابراهيم محل تقدير واحترام كبار رجال الدولة الفاطمية ، مما كان له الأثر الطيب في العلاقة بين الدولة والكنيسة ، كما أثار حقد رجال الدولة من اليهود الذين كانت لهم صلة وثيقة بقصر الخلافة (٢١٢) •

وكان الخليفة المعز لدين الله يستدعي الى مجلسه بعض كبار الدين المسيحي واليهودي حيث كانت تجري بينهم وبين بقية الجالسين من المسلمين مناقشات دينية ، وفي هذه المجالس التي كان يعقدها في قصره تدعمت العلاقات الطيبة بينه وبين رؤساء الطوائف الدينية من أهل الذمة ، ونشأت صداقات بينه وبينهم دعمتها روح التسامح الديني التي تحلى بها (٢١٣) •

أما العزيز بالله الفاطمي فقد شمل أهل الذمة جميعا برعايته وعطفه (٢١٤) فضلا عن أنه قلد المناصب العليا في الدولة لكبار رجال أهل الذمة من اليهود والنصارى دون أن يكره أو يشترط على أحد منهم اعتناق الاسلام ، كما كانت علاقته برؤساء الطوائف الدينية لأهل الذمة ، وخاصة المسيحية ، في أحسن حالاتها ، إذ كان للعزيز بالله - وكما سبق أن أوضحنا - زوجة نصرانية علي

-
- (٢١٢) ابن الراهب : تاريخ ابن الراهب ، بيروت ١٩٠٣ ، ص ١٢٣ •
- ساويرس : تاريخ بطارقة الكنيسة المصرية ، نشرة هزير سوريل وآخرون ، المجلد الثاني ، ج ٢ ، ص ١٠٠ •
(١١٣) الأنبا ميخائيل (أسقف أتريب) : السيكتسارى ، ج ١ ، ص ١٣٧ •
(٢١٤) الخريوطي : مصر العربية الاسلامية ، ص ١٦٠ •

المذهب الملكاني ، أنجب منها ابنته المعروفة بست الملك ، وكان لهذه الزوجة النصرانية وابنتها نفوذ كبير في قصر الخلافة ، فقد كان العزيز بالله يعمل بمشورتها مما أدى الى استفحال نفوذ رجال الكنيسة الملكانية واتباع المذهب الملكاني في مصر . فقد تدخل العزيز بالله في الشئون الخاصة بالكنيسة الملكانية ، وأصدر قرارا في رمضان سنة ٣٧٥ هـ بتعيين صهره أريستيس خال ابنته ست الملك بطريركا على بيت المقدس ، كما عين صهره الثاني أرسانيوس (أرسانيوس) بطريركا للملكانية على القاهرة ومصر . وطبيعي أنه كان للرجلين نفوذهما المؤثر في دار الخلافة وإدارة الدولة ، فازدهر حال الكنيسة الملكانية في عهده ، واستبد أهل تلك الطائفة بشئون البلاد ، كما عانى النصارى اليعاقبة والكنيسة القبطية من استفحال هذا النفوذ فقد حاول أرسانيوس مستغلا قرابته للعزيز بالله الاستيلاء على كنيسة المعلقة والسيدة العذراء بقصر الشمع بالقسطنطينية ، وحدث نزاع خطير بين رؤساء الكنيستين ، أنهى الخليفة العزيز بالله لصالح الملكانيين ، بأن أخذت الملكانية كنيسة السيدة العذراء وتسلمها أرسانيوس ، بينما بقيت كنيسة المعلقة للأقباط اليعاقبة (٢١٥) ، غير أن الأقباط استطاعوا استرداد كنيسة السيدة العذراء من الملكانية بعد وفاة العزيز بالله (٢١٦) .

ولم يتدخل الخليفة الحاكم بأمر الله في الشئون الداخلية الخاصة بالكنيسة القبطية ، مثال ذلك أنه لم يتدخل في عام ٣٩٣ هـ / ١٠٠٢ م في انتخاب بطريرك اليعاقبة (٢١٧) . إلا أنه

-
- (٢١٥) الانبا ميخائيل : سر البيعة المقدسة ، ج ٢ ، ورقة ٥١ .
 - الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٦٤ ، ١٦٥ .
 - المقرئ : الخط ، ج ٢ ، ص ٤٩٤ .
 (٢١٦) رؤوف حبيب : كنائس القاهرة القبطية القديمة ، ص ٤٤ .
 (٢١٧) المقرئ : الخط ، ج ٢ ، ص ٤٩٥ .

اتخذ موقفا متشددا من الأنبا زخاريا البطريك الرابع والسبعين ،
 اذ أمر بحبسه واعتقاله لمدة ثلاثة شهور ، ثم رميه للسباع الجائعة
 التي لم تضره - طبقا لما ذكرته الرواية الكنسية - وكان ذلك بسبب
 وشاية أحد الرهبان القبط - ويدعى يونس الراهب - ، كان حاقدا
 على البطريك زخاريا الذي رفض أن يرسمه أسقفا ، فقابل الراهب
 المذكور الخليفة الحاكم بأمر الله ، وشكى اليه سوء سياسة البطريك
 فيما يتعلق بأمور الكنيسة الخاصة ، وبيعه للموظائف الدينية ،
 وما يتمتع به البطريك من النفوذ والجاه والسلطان على أبناء ملته ،
 وما تحت يديه من الثروة والأموال الطائلة ، ثم عرض على الحاكم
 بأمر الله رسالة قال فيها : « أنت ملك الأرض ، ولكن للنصارى
 ملك لا يعيا بك . لكثرة ما كنز من الأموال الجزيلة ، لأنه يبيع
 الأسقفية بالمال (٢١٨) وعدد الراهب للحاكم مطالب البطريك ،
 ومساويء معاوية من رجال الكنيسة مما أوغر صدر الحاكم بأمر الله
 على البطريك ، وأثار غضبه ، ودفعه الى اتخاذ موقف متشدد ازاء
 أهل الذمة الذين استفحل أمرهم في الدولة . فأصدر ضدهم العديد
 من القرارات والقيود التي اتسمت بالضراوة والعنف في المدة من
 ٣٩٥ هـ الى ٤٠٥ هـ / ١٠٠٤ - ١٠١٤ م . وفي تلك الفترة لحق
 بالكثير من أهل الذمة ضرر بالغ لم يألوه من قبل (٢١٩) .

أما بالنسبة لموقف الحاكم بأمر الله من رؤساء الطائفة الملكانية ،
 فإن الانطاكي يذكر أن ارسانيوس بطريك الملكانية قد قتل سرا في
 ذى القعدة سنة ٤٠٠ هـ ، دون أن يشير الى قاتله أو الى ظروف
 الحادث (٢٢٠) . وقد ظل منصب بطريك الملكانية بمصر شاغرا
 طوال بقية خلافة الحاكم بأمر الله (٢٢١) .

(٢١٨) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٣ ، ورقة

(٢١٩) — : نفس المصدر ، ج ٣ ، ورقة

(٢٢٠) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٩٧ .

(٢٢١) ماجد : الحاكم بأمر الله ١٠٢ .

الا أن الحاكم بأمر الله كان له يد في اختيار بطريرك الروم المكاينة ببيت المقدس ، فبعد وفاة ثاوفيلس بطريرك المكاينة بالقدس في رمضان سنة ٤١٠ هـ ، تقدم اليه قس من طائفة الروم المكاينة اسمه نقفور - وكان يعمل نجارا بقصر الخلافة - ، والتمس منه تعيينه بطريرك على بيت المقدس ، فأجابه الى ملتصقه (٢٢٢) . كما أعطاه بعد ذلك سجلا في جمادى الأخرى سنة ٤١١ هـ بحماية الكنائس والأديرة الباقية هناك مع اطلاق الحرية الدينية في كافة دور العبادة في بيت المقدس (٢٢٣) .

ولم يتعرض الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله لرجال الدين من أهل الذمة بما يسىء اليهم ، كما لم يتدخل في الاجراءات الخاصة بانتخاب البطاركة فعند خلا كرسى بطريركية الروم المكاينة بالاسكندرية بوفاة أرسانيوس سنة ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م وظل المنصب شاغرا الى أن اجتمع قساوسة وأساقفة الكنيسة المكاينة بمصر ورسموا في ذى الحجة سنة ٤١١ هـ الأنبا جورجios - أحد رهبان دير طور سبيناء - بطريركا لهم ، وباركت ست الملك - ذات النفوذ القوى في قصر الخلافة - هذا الاختيار ، وأرسلت الى البطريرك الجديد هدايا قيمة من الثياب الديباج والمصاحف والتحف الفضية الثمينة التي كانت عندها لخالها أرسانيوس البطريرك السابق (٢٢٤) .

كما أنه بعد وفاة الأنبا زخاريا البطريرك الرابع والستين للكنيسة القبطية ، طمع بعض كبار رجال الكنيسة في اعتلاء كرسى البطريركية ، وحاولوا أن يتولوا هذا المنصب الدينى الرفيع عن طريق تدخل الدولة ومساعدتها ، الا أن الوزير على بن أحمد

(٢٢٢) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ٢٢٨ .

(٢٢٣) — : نفس المصدر السابق ، ص ٢٣٠ .

(٢٢٤) — : نفس المصدر ، ص ٢٢٧ .

الجرجرائي (ت ٤٣٦ هـ / ١٠٤٤ م) ، الذي كان يسيطر على أمور الدولة والذي كان يحب النصارى ويعطف عليهم ، رفض التدخل في اختيار بطريرك اليعاقبة الجديد - كما قرر أن تتنازل الدولة عن مبلغ الثلاثة آلاف دينار التي كان يدفعها البطريرك الجديد رسماً الى بيت المال - كرامة للنصارى - ، غير أنه اشترط على أساقفة الكنيسة القبطية وأعيان القبط أن تسير اجراءات انتخاب البطريرك الجديد في نزاهة وحيدة تامتين وفقاً لما هو متبع في هذا الشأن . ولقد تم اختيار الأنبا سابونين البطريرك الخامس والستين للكنيسة القبطية سنة ٤٢١ هـ ، بدون أدنى تدخل من دار الخلافة (٢٢٥) .

كما كانت العلاقات الطيبة بين قصر الخلافة والكنيسة القبطية هي السمة الغالبة في السنوات الأولى من عهد المستنصر بالله ، الى أن كانت وزارة اليازورى .

ففي أثناء وزارته ساءت العلاقات بينهما ، حينما اتهم البطريرك خريستوذولوس البطريرك السادس والستين بتحريض ملك النوبة على عدم الوفاء بالتزاماته نحو الخليفة المستنصر بالله ، فألقى القبض على البطريرك ورحل الى القاهرة مع الزامه بدفع غرامة مالية كبيرة . غير ان « عبد الدولة » متولى منطقة مصر السفلى توسط لدى اليازورى للإفراج عن البطريرك ، وأخذ منه تصريحاً بإطلاق سراحه في الحال (٢٢٦) .

ومرة أخرى تعكر صفو العلاقة بين الدولة والكنيسة القبطية ، عندما تراهى الى مسامع اليازورى - عن طريق أبى الحسين الصيرفى الذى كان قاضياً بالاسكندرية - أن الأنبا خريستوذولوس قد اتخذ من بلدة « دمرو » مقراً له ، وأن تلك البلدة أصبحت بمثابة

(٢٢٥) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٣ ، ورقة ٦٢ .

(٢٢٦) جاك تاجر : المرجع السابق ، ص ١٣٨ .

قسطنطينية ثانية ، وأن البطريك شيد فيها قصرا رائعا لنفسه ، وأحاط نفسه بمظاهر العظمة والأبهة ، بجانب كثرة الكنائس التي استحدثها وجدد عمارتها في القرى المحيطة بها ، وأنه كتب على أبواب تلك الكنائس عبارات سب للإسلام والمسلمين • فما كان من اليازورى الا أن أرسل من رجاله من يتقصى الحقيقة ، ثم فرض على البطريك والأساقفة غرامات مالية فادحة ، طولبوا بسرعة سدادها ، فاضطر البطريك الى طلب المساعدة المالية من ملك النوبة الذى استجاب لمساعدته (٢٢٧) •

(٢٢٧) الانبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٣ ، ورقة ٧٩ ، ٨٠ •
(وانظر فيما بعد الباب الرابع ، ص) •

القيود التي فرضت على دور العبادة لأهل الذمة

الكنائس المسيحية

يرى السير توماس أرنولد في كتابه « الدعوة الى الاسلام »
في معرض حديثه عن سياسة التسامح الديني التي نعم بها أهل
الذمة في مصر في عصر الفاطميين أن « السلطة المدنية أباحت للقبط
أن يبنوا كنائس في القاهرة - العاصمة الجديدة - . كما سمح
للمسيحيين أن يؤسسوا في بعض المدن الأخرى كنائس وأديرة
جديدة » (٢٢٨) . هذا فضلا عن السماح لهم بتجديد عمارة الكنائس
القديمة .

فتحت مظلة التسامح الديني ، انتهز البطريرك إبراهيم
السنورياني - البطريرك الثاني والستون للكنيسة القبطية - صداقته
الوظيفة بالخليفة المعز لدين الله ، والتمس منه تجديد عمارة كنيسة
القديس مرقوريوس المعروف بأبي سيفين بالفسطاط ، وكذلك
الكنيسة المعلقة بقصر الشمع ، فأذن له المعز ببناء الكنيستين ، كما

(٢٢٨) أرنولد : الدعوة الى الاسلام ، ترجمة حسن إبراهيم وعبد المجيد
عابدين ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٧ م ، ص ٨٤ .

قام البطريك المذكور ببناء وترميم كثير من الكنائس بالاسكندرية وسائر أنحاء مصر . ولما اعترض بعض مشايخ المسلمين وعامتهم على قيام النصارى ببناء الكنائس الجديدة وترميم غيرها ، أمر الخليفة المعز بتوفير الحراس لحماية وحراسة العمال والبنائين الذين يعملون فى البناء حتى يستكملوا ما بدأوه . وكان هذا تحديا لمظاهر الغضب والسخط لمشاعر عامة المسلمين (٢٢٩) .

لكن المصادر النصرانية استغلت هذا التسامح الدينى الذى أغدقه المعز لدين الله أول الخلفاء الفاطميين بمصر على النصارى ، وتصريحه لهم ببناء وتجديد وتعمير وترميم الكنائس والأديرة ، فذهب بها الادعاء الى أن تزعم أن المعز لدين الله فى أواخر أيامه ، ارتد عن الاسلام ، واعتنق النصرانية ، ولبس زى الرهبان وظل على نصرانيته الى أن دفن فى كنيسة أبى سيفين بالفسطاط (٢٣٠) .

وترجع تلك المصادر النصرانية هذا الزعم الى أسطورة خلاصتها : أنه حدث فى مجلس الخليفة المعز لدين الله جدل دينى بين البطريك ابراهيم السورىانى ومن معه ، وبين بعض اليهود يؤازرهم يعقوب بن كلس ، انتهى لصالح البطريك وجماعته . فما كان من ابن كلس الا أن أوعز الى الخليفة المعز بأن يمتحن ايمان النصارى قائلا له : ان انجيلهم يقول : « لو كان لكم ايمان مثل حبة خردل ، لكنتم تقولون لهذا الجبل انتقل من هنا الى هناك فينتقل » . فما كان من المعز الا أن طلب من البطريك نقل جبل المقطم ، وتمضى الأسطورة فتؤكد أن الرهبان والقسس اجتمعوا عند جبل المقطم ، وقاموا بالصلوات والابتهالات فحدثت زلزلة شديدة

(٢٢٩) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٣ ، ورقة ٤٣ ، ٤٤ .

(٢٣٠) عثان : مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية ، الطبعة الاولى

سنة ١٩٤١ ، ص ٧٧ ، ٧٨ .

تشقق لها جبل المقطم ، فأكرم الخليفة المعز البطريك وأجابه الى طلبه بشأن التصريح له بتجديد وتعمير وترميم ما التمسه من كنائس وأديرة (٢٣١) .

ولقد تصدى الأستاذ عبد الله عنان للرد على تلك الأسطورة ، وفندها فنقضها من أساسها ، وأثبت بطلان دعواها (٢٣٢) .

وفى خلافة العزيز لدين الله استغل أهل الذمة تسامحه وعطفه عليهم ومساندة زوجته النصرانية - الملكانية المذهب - لهم ، فقام بطريك الأقباط باصلاح الكنائس المهتمة وبناء غيرها (٢٣٣) . بل ان العزيز بالله أمر بتوفير الحماية للبنائين النصارى الذين يقومون بعمليات تعمير وترميم الكنائس ممن يعترض عليهم من المسلمين (٢٣٤) .

غير أن بعض الكنائس تعرضت فى سنة ٣٨٦ هـ / ٩٩٦ م لغضب عامة المسلمين بعاصمة الخلافة ، ففي هذا العام قرر الخليفة العزيز الخروج لجهاد الروم ، وبينما الجيش على أهبة الاستعداد للتحرك ، اذا بقطع الاسطول الفاطمى الراسية فى ميناء المقس تتعرض لحريق مدمر ، أتى على معظمها ، فاثمت الرغبة تجار الروم الواردين بالبضائع الى مصر ، فقتلوا منهم حوالى مائة وستين ، ثم هاجمت العامة والمغاربة كنيسة القديس ميخائيل التى للملكانية بقصر الشمع كما نهبت كنيسة النسطورية . الا أن العزيز أنزل العقاب الصارم

(٢٣١) الانبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ورقة ٤١ ، ٤٤ .

- الانبا ميخائيل : (اسقف اقريب) السنكسار ، ج ١ ، ص ١٣٧ ، ١٣٨ .

- سميكة : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٨٨ .

(٢٣٢) عنان : مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية ، ص ٧٨ - ٨٥ .

(٢٣٣) أبو صالح : المصدر السابق ، ص ٣٤ ، ٣٥ .

(٢٣٤) أبو صالح الارمنى : المصدر السابق ، ص ٣٦ .

بالمسلمين الذين اشتركوا في قتل الروم ونهب الكنائس ، وأمر
برد ما أخذ من ممتلكات الكنائس اليها . (٢٣٥) .

وهكذا يتضح مما سبق أن الخليفتين المعز والعزیز قد صرحا
بترميم الكنائس ، وهذا ما يتفق مع ما يسمى بالشروط العمرية
فيما يتعلق بالكنائس ، الا أنهما صرحا أيضا باقامة وبناء الكنائس
الجديدة بالقاهرة وبالأقاليم ، وهذا ما لا يتفق مع الشروط العمرية
التي حرمت بناء الكنائس الجديدة لأهل الذمة ، فخالفا بذلك
ما اتفق عليه جمهور المسلمين .

لكن الخليفة الحاكم بأمر الله كان صارما في تنفيذ ما جاء
بالشروط العمرية فيما يتعلق بدور العبادة الخاصة بأهل الذمة ،
بل زاد عليها ، فأمر بهدم الكثير من الكنائس في فترة سياسته
المتشددة ازاء أهل الذمة .

ففي سنة ٣٩٣ هـ / ١٠٠٢ م كان الاحتكاك الأول بين الخليفة
الحاكم بأمر الله وبين النصاري فيما يتعلق بتجديد الكنائس . ففي
تلك السنة شرع أبو منصور الزيات الكاتب النصراني - اليعقوبي
المذهب - في تجديد كنيسة قديمة من مدرسة بظاهر الفسطاط ، في
الموضع الذي عرف بعد ذلك براشدة ، مما أثار غضب عامة
المسلمين . ولما علم الحاكم بأمر الله بذلك أمر بهدم الكنيسة فهدم
عامة المسلمين ما بنى منها ، وأمر الحاكم بأمر الله بأن ينشأ مكانها
مسجد جامع عرف بجامع راشدة ، وبدى في عمارته في ربيع الآخر
سنة ٣٩٣ هـ ، ولما رأى توسعة الجامع أزيلت مقابر اليهود والنصارى
التي كانت ملاصقة له لاستكمال بنائه (٢٣٦) . كما هدمت في

(٢٣٥) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٧٨ ، ١٧٩ .

(٢٣٦) اللوزي : المصدر السابق ، ص ٢٦ ، ورقة ٥٣ .

سنة ٣٩٤ هـ / ١٠٠٣ م كنيسة كائتا بجوار الجامع (٢٣٧) أحدهما لليعاقبة والأخرى للنسطورية ، وبني الحاكم بأمر الله في موضعهما مسجدين للمسلمين . وشمل الهدم أيضا كنيسة كائتا للملكانية كائتا بحارة الروم بالقاهرة (٢٣٨) .

وفي رجب سنة ٣٩٧ هـ ، أمر الحاكم بأمر الله بمصادرة كل ما هو محبس على الكنائس من أملاك وعقارات وجعله في الديوان ، وكتب الى سائر الأعمال بذلك ، كما أحرق العديد من الصلبان على باب الجامع العتيق بالفسطاط (٢٣٩) ثم تلاه مرسوم آخر في رجب سنة ٣٩٨ هـ بمصادرة أوقاف الكنائس الحديثة والعتيقة بمصر خاصة دون غيرها من أقاليم الدولة وجعلها باسمه في الديوان (٢٤٠) .

ثم كان أخطر مرسوم أصدره الحاكم بأمر الله ، وهو الخاص بهدم كنيسة القيامة ببيت المقدس . وعلى الرغم من أن بعض المصادر العربية ترجع تاريخ هدم كنيسة القيامة الى أواخر عام ٣٩٨ هـ / ١٠٠٨ م (٢٤١) ، إلا أن الرواية النصرانية المعاصرة تحدد سنة ٧٢٧ للمشهداء وهي توافق سنة ٣٩٩ هـ / ١٠٠٩ م تاريخا لهذا السجل الخطير (٢٤٢) .

(٢٣٧) المقرئى : اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ، ص ٤٨
Stern : Op. cit., p. 15-17.

(٢٣٨) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٨٦ .

(٢٣٩) المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٦٣ ، ٢٨٦ .

(٢٤٠) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٩٤ .

(٢٤١) القلانسي : (الذيل ، ص ٦٦) ، ابن الجوزي (المنتظم ، ج ٧ ،

ص ٢٣٩) . سبط بن الجوزي (مرآة الزمان ، ج ١١ ، ورقة ٣٠٤) . المقرئى

(اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ، ص ٧٥) العيني (عقد الجملات ج ١٩ ، ورقة ٥٤٤) .

عنان (الحاكم بأمر الله ، ص ١٣٦) .

(٢٤٢) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٣ ، ورقة

– الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٩٦ .

ولقد ألفت تلك الرواية النصرانية المعاصرة الضوء على ظروف الحادث والأسباب التي دفعت الخليفة الحاكم بأمر الله الى اتخاذ هذا القرار ، ويروى الأنبا ميخائيل أنه عندما غضب الحاكم بأمر الله على الأنبا زخاريا بطريرك اليعاقبة أمر باغلاق الكنائس أولا ، ثم القبض على البطريرك واعتقاله وحبسه ، كما سبق أن أوضحنا . . . وفى ثانى يوم لاعتقاله أمر الخليفة كاتب السجل النصراني النسطورى المعروف بابن شترين ، بأن يكتب الى الشام بهدم كنيسة القيامة بالقدس ، وجاء فى السجل « خرج أمر الامامة اليك ، فاهدم قمامة ، فاجعل سمائها أرضا ، وطولها عرضا » (٢٤٣) ، فقام والى الرملة (فلسطين) بارسال رجاله وأمرهم بمصادرة كل ما فى الكنيسة من الذخائر والتحف والآنية المقدسة ، واحتاطوا على كل محتوياتها ، كما هدمت مباني الكنيسة الا ما تعذر هدمه ، وأزيلت كنيسة ماري قسطنطين وكل ملحقاتها ، ولم يبق من الآثار المقدسة بكنيسة القيامة سوى أثر الصخرة التى شيد عليها القبر المقدس ، وقد أصيبت بالتلف من جراء ضربها بالمعاول ، كما هدم دير السرى وكان خاصا بالراهبات ، وصودرت جميع أملاك الكنيسة وأوقافها وأموالها ، وأخذت جميع محتوياتها من تحف وذكائر ، ويؤرخ الأنطاكي الخامس من صفر سنة ٤٠٠ هـ تاريخا لابتداء هدم الكنيسة (٢٤٤) .

أما معظم المصادر الاسلامية ، فقد تعرضت هى الأخرى لهذا الحادث الخطير ، وأسباب حدوثه . وتؤرخ له بعام ٣٩٨ هـ ، وتذكر أنه فى هذا العام خرج نصارى على عادتهم فى كل عام الى بيت المقدس لحضور احتفالات عيد الفصح ، وهم فى أجمل مظاهر العظمة والأبهة كما يخرج المسلمون الى الحج فاستدعى الخليفة

(٢٤٣) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٣ ، ورقة ٥٦ .

(٢٤٤) الأنطاكي : المصدر السابق ، ص ١٩٦ .

الحاكم بأمر الله ختكين الضيف العضدى أحد قواده ، وسأله عن أمر كنيسة القيامة لمعرفة بها ، وما يحدث فى هذا العيد هناك ، فأخبره بأنها بيعة تعظمها النصارى ، ويحج إليها من جميع البلاد ، ويأتى إليها الملوك وحكام الدول المسيحية حاملين إليها النذور والأموال الكثيرة والثياب الديباج والستور والفروش والقناديل والشموع والصلبان ، وأوانى الذهب والفضة والتحف النادرة ، فإذا كان يوم الفصح زينت الكنيسة بالأضواء الباهرة ، وعلقت القناديل المضيئة والمملوءة بدهن البلسان فى المذبح ، وقد اجتمع النصارى لاقامة الصلوات والشعائر الدينية ، فى مواكب دينية صاخبة ، ورفعوا أصواتهم يرددون الأدعية والابتهالات ، حاملين المباخر والصلبان الضخمة ، وقد علق خدم الكنيسة بها القناديل المملوءة بدهن البلسان مع دهن الزيتق ، فتنبعث منها الأضواء الساطعة التى تخطف البصر ، وبطريقة تخيل للناظرين إليها أنها نزلت من السماء ، فيكثر تهليلهم وتكبيرهم . فانكر الحاكم بأمر الله ذلك ، وتقدم الى أبى المنصور بشر بن سورين كاتب الانشاء بأن يكتب رسالة الى الداعى أحمد بن يعقوب بأن يقصد بيت المقدس ، ومعه والى الرملة ، فيهدم كنيسة القيامة ، ويأخذ محتوياتها ، ويبيع لعامة المسلمين نهبها ومحو أثرها (٢٤٥) . فقام والى الرملة ومعه الأشراف والقضاء والشهود ووجوه المسلمين ، وقصدوا كنيسة القيامة . الا أن نصارى مصر عندما علموا بصدور مرسوم الخليفة الحاكم بأمر الله بهدم الكنيسة سارعوا باحاطة بطريق بيت المقدس علما بمضمون السجل ، فأخفى البطريرك

(٢٤٥) المقرئى : اتعاط الحنفا ، ج ٢ ، ص ٧٥ .

(٢٤٦) ابن القلانسى : المصدر السابق ، ص ٦٧ .

— على أن المقرئى يذكر أنه فى صفر سنة ٤٠٠ هـ كتب من انشاء ابن

سورين لهدم قمامة بالمقدس (اتعاط الحنفا ، ج ٢ ، ص ٨١) .

كثيرا مما كان فيها من الفضة والذهب والجواهر والثياب والتحف قبل وصول أصحاب الحاكم بأمر الله الذين أحاطوا على ما تبقى فيها من موجودات وكان شيئا عظيما ، فتمت مصادرته ، كما هدموا مباني الكنيسة ، و « قلعت حجرا حجرا » . وتعرضت للنهب والتخريب (٢٤٦) .

وأغلب الظن أن تخريب الكنيسة « لم يكن تخريبا كليا » ، وأن الهدم امتد فقط الى أغلب منشآتها (٢٤٧) .

ونتيجة لهذا الحادث اهتز العالم المسيحي ، وارتفعت الأصوات في أنحائه تطالب بحماية القبر المقدس ، وأخذت البابوية على عاتقها الترويج لهذه الدعوة (٢٤٨) .

ولقد اتبع الحاكم بأمر الله قراره بهدم كنيسة القيامة بقرار آخر يقضى بهدم جميع الكنائس والبيع في جميع أقاليم الدولة ، إلا أنه أمسك عن هدم كثير منها خوفا من أن تقوم شعوب العالم المسيحي بهدم ما في بلادها من مساجد المسلمين (٢٤٩) .

إلا أنه في تاسع عشر ذي الحجة سنة ٣٩٩ هـ أمر الحاكم بهدم كنائس القنطرة التي في طريق القدس ، وكذلك كنائس حارة الروم ، ونهب جميع ما فيها (٢٥٠) وفي السنة التالية أمر بهدم كنيسة العجوز بدمياط ، وكانت واحدة من أعظم كنائس الملكانية بمصر ، فشرع في هدمها يوم الجمعة في الثاني عشر من شهر رمضان سنة ٤٠٠ هـ . كما نبشت مدافن بالكنيسة كانت لنصارى دمياط

(٢٤٧) مجير الدين الحنبلي : الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، ج ١ ، ص ٣٠٣ .

(٢٤٨) عنان : الحاكم بأمر الله من ١٣٨٠ .

(٢٤٩) المقرئ : اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ، ص ٧٥ .

(٢٥٠) النويري : المصدر السابق ، ج ٢٦ ، ورقة ٥٥ .

من الملكانية وأزيلت معالمها ، وأخذت محتوياتها وما بها من آنية الذهب والفضة ، وصودرت أملاك الكنيسة وعقاراتها وكل ما حبس عليها ، وبني في موضعها مسجد للمسلمين (٢٥١) .
وفي صفر سنة ٤٠٢ هـ أمر الحاكم بأمر الله ، بالآي ضرب بناقوس ، والآن يظهر ضليب بأية كنيسة ولا تقع عليه عين ، فنزعت الصليبان من الكنائس ومحيت معالمها من ظاهر البيع والكنائس (٢٥٢) .

وفي ربيع الأول سنة ٤٠٣ هـ وقع الأمر بهدم جميع الكنائس في الديار المصرية (٢٥٣) ، فسأل جماعة من النصارى الحاكم بأمر الله أن يتولوا هدم كنائسهم بأيديهم ، وأن يبنوها مساجد للمسلمين ، وأقطع الحاكم ما للكنائس من ربايع وأملاك لجماعة من الخدم الصقالبة ، ووهب لهم ما في الكنائس من التحف والذخائر وأواني الذهب والفضة وغيرها من الحواصل والمأكول ، كما أقطع كثيرا من الكنائس لكل من التمسها ، ولم يرد من سأل شيئا منها (٢٥٤) . ثم أصدر أوامره إلى ولايته بالأقاليم وسائر أعمال الدولة بأن يهدم كل وال ما في ولايته من كنائس (٢٥٥) ، فهدم كثير منها ، ومحيت معالمها وأزيلت آثارها ، وقلعت أساساتها من الأرض ، وأخذت أنقاضها ، وأنشئ مكان البعض منها عدد من المساجد (٢٥٦) . كما تحول بعض هذه الكنائس إلى مساجد للمسلمين (٢٥٧) ، ويروى الأنطاكي أنه قد أخرجت عظام الموتى من

(٢٥١) الأنطاكي : المصدر السابق ، ص ١٩٧ .

(٢٥٢) — : نفس المصدر ، ص ٢٠٢ .

(٢٥٣) المقرئى : اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ، ص ٩٤ .

(٢٥٤) النويرى : المصدر السابق ، ج ٢٦ ، ورقة ٥٧ .

(٢٥٥) — : نفس المصدر ، ونفس الورقة .

— المقرئى : اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ، ص ٩٤ .

(٢٥٦) الأنطاكي : المصدر السابق ، ص ٢٠٤ .

(٢٥٧) المقرئى : اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ، ص ٩٤ .

الكنائس في عدة بلدان ، وأحرقت الكتب الموجودة بها ، كما ألزم الحاكم بأمر الله نصارى كل بلدة بأن يدفعوا أجور العمال الذين قاموا بهدم ونقض ما بها من كنائس (٢٥٨) ، ويذكر المقرئ أن كنيسة أبى شنودة - كبرى الكنائس القبطية بمصر - وكنيسة المعاقبة بالفسطاط قد تعرضتا لنهب ما فيهما من الأموال والمصاغ وثيرات الديباج وغير ذلك من التحف والذخائر وكان شيئا كثيرا (٢٥٩) . هذا بجانب ما نهب من أموال الكنائس والديارات في سائر أنحاء الدولة ، فباع الناس بأسواق مصر كل ما وصلت إليه أيديهم من تلك الثروات والتحف وتصرفوا في أحباس وأملاك وعقارات الكنائس بالبيع والشراء (٢٦٠) .

ولقد تتابع هدم الكنائس في جميع أنحاء الدولة ، وطبقت القرارات الخاصة بهدمها في منتهى الحزم والصرامة لمدة ما يقرب من ثلاث سنوات من ربيع الآخر سنة ٤٠٣ هـ الى أواخر سنة ٤٠٥ هـ . وهدم في تلك الفترة من الكنائس والأديرة التي بناها الروم حوالى ثلاثين ألف - حسب قول المقرئ - ، ونهب من أموالها وذخائرها ما يصعب حصره ، وأخذ من أوقافها وأملاكها الشيء الكثير (٢٦١) .

وعلى الرغم من أن الأنطاكي بالغ في وصف قسوة الأساليب التي اتبعت في هدم الكنائس . وعلى الرغم من مبالغة المقرئ في تقدير ما هدم من كنائس وأديرة الروم ، إلا أن واقع الأمر يؤكد

(٢٥٨) الانطاكي : المصدر السبق ، ص ٢٠٤ .

(٢٥٩) المقرئ : اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ، ص ٩٤ ، ٩٥ .

(٢٦٠) — : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٨٧ ، ٤٩٤ ، ٤٩٥ .

(٢٦١) — : نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٤٩٥ .

أن الحاكم بأمر الله اتبع سياسة غاشمة متعصبة ازاء دور عبادة أهل الذمة في تلك الفترة ، وليس هناك ما يبرر اتخاذ مثل تلك القرارات والإجراءات المنافية لروح التسامح الاسلامي ، بل ان تلك القرارات تعكس روح التعصب الديني - لدى الخليفة الحاكم بأمر الله - التي غذتها كثرة حروبه من الروم .

ولقد حاول الراهب يوتس - السابق الاشارة اليه - والحاقد على البطريك زخاريا ، أن يشعل نار الفتنة مرة أخرى بين الخليفة الحاكم بأمر الله وبين رجال الكنيسة الذين ألقوا على الراهب يونس تبعة تصرفات الحاكم الغاشمة ازاء هدم الكنائس ، الا أن الخليفة الحاكم بأمر الله كان قد قرر اتباع سياسة معتدلة ازاء أهل الذمة (٢٦٢) .

ففي جمادى الآخرة سنة ٤١١ هـ ، أصدر سجلا الى نقفور بطريك بيت المقدس بحفظ دور العبادة الخاصة بأهل الذمة في بيت المقدس ، والمنع من تقضها ، وأنعم على كنائس بيت المقدس برد أوقافها اليها ، « وانفتح حينئذ باب رجعة الكنائس ورد أوقافها » ، (٢٦٣) . كما صرح الحاكم بأمر الله لبطريك الروم بالقاهرة بتعمير كنيسة القنطرة بالقسطنطينية ، ثم توالى التماسات الانبا سلمون رئيس دير طور سيناء والتماسات غيره من النصارى الى الحاكم برد كل كنيسة من كنائسهم وعمارتها ورد أوقافها .

(٢٦٢) الانبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ورقة ٦٠ .

(٢٦٣) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ٢٣١ .

كما كتب الأنبا سلمون رقاعا رفعها الى الحاكم بأمر الله عن أهل البلدان البعيدة التماسا لبناء وتجديد ما هدم من الكنائس فأجاب الحاكم كل الى ملتمسه ، وأطلق عمارة جميع الكنائس التي يستدعى الأمر منه الاذن فيها ، واعادة أوقافها اليها . الا ما كان قد بيع في وقت القبض عليها (٢٦٤) ، هذا بجانب تصريح الحاكم بأمر الله بأن يعاد الى الكنائس الأخشاب والعمد والطوب والحجارة المأخوذة منها (٢٦٥) ، وجد النصارى في عمارة كنائسهم فعاتت الى أحسن مما كانت عليه (٢٦٦) .

زد على ذلك أن الحاكم بأمر الله أمر باعفاء كثير من أملاك الكنائس وأوقافها من دفع ما عليها من الخراج والرسوم ، وما فرض عليها من غرامات سابقة (٢٦٧) .

وفي بداية خلافة الظاهر لاعزاز دين الله ، سمح للنصارى الذين تؤازرهم ست الملك - ببناء الكنائس ، الا أن ست الملك - التي كان لها نفوذ كبير في الدولة - أخذت الخراج والرسوم التي سبق للحاكم بأمر الله اعفاء أوقاف وأملاك الكنائس منها (٢٦٨) .

وفي عهد الظاهر أيضا أعيد تجديد عمارة كنيسة القيامة ببیت المقدس كما استمر النصارى في تعمير وتجديد كنائسهم في سائر أقاليم الدولة (٢٦٩) ، « حتى أعيدت لما كانت عليه

(٢٦٤) : — : نفس المصدر ونفس الصفحة .

(٢٦٥) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق : ج ٢ ، ورقة ٦٠ .

(٢٦٦) الأنبا ميخائيل (أسقف أتريب) : السنكسار ، ج ١ ، ص ١٠٦ .

— العيني : المصدر السابق ، ج ١٩ ، ورقة ٥٤٨ .

(٢٦٧) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ٢٢٩ ، ٢٣٧ .

(٢٦٨) : — : نفس المصدر ، ٢٣٨ .

(٢٦٩) : — : نفس المصدر ، ص ٣٤٣ .

وأفضل « (٢٧٠) ، وردت أوقاف للكنائس لم تكن قد ردت إليها
في خلافة الحاكم (٢٧١) .

وفي عهد وزارة اليازورى في الخلافة المستنصرية تعرضت
الكنائس لبعض القيود ، بسبب الخلاف الذى نشب بين اليازورى
والبطريرك خريستوذولوس لأنه أنشأ كثيراً من الكنائس
المستحدثة مما أدى الى اغلاق الكنائس وهدم ما استجد منها وفرض
غرامات مالية على ما استحدثت من تلك الكنائس .

على أن حصن الدولة والى الاسكندرية فى ذلك الوقت والذى
كان يعطف على النصارى ، أرسل خفية الى بعض خواصه من رجال
الكنائس بالاسكندرية ليجروا كنائسهم سرا من الأواني والحلى
وكل ثمين من محتوياتها ، قبل أن تصل اليها يد المكلفين بالاستيلاء
عليها من قبل السلطة (٢٧٢) .

ولما رفض الروم سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م أن يخطب للخليفة
المستنصر بالله بجامع القسطنطينية ، أمر الخليفة المستنصر بمصادرة
أموال كنيسة القيامة بالقدس مع مصادرة أموالها ونفائسها (٢٧٣) .

ومع هذا قام النصارى فى خلافة المستنصر بترميم وبناء بعض
الكنائس اذ يذكر أبو صالح الأرمنى فى تاريخه أن كنيسة القديس
جرجيوس بالحمراء - والتي كانت قد تصدعت - قد أصلحت
وجددت على يد المعلم سرور الجلال الذى كان من أغنياء

(٢٧٠) الأنبا ميخائيل : سر البيعة المقدسة ، ج ٣ ، ورقة ٦١ .

(٢٧١) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ٢٢٨ .

(٢٧٢) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٣ ، ورقة ٦١ .

- جاك تاجر : المرجع السابق ، ص ١٤٠ .

(٢٧٣) العيني : المصدر السابق ، ج ٢٠ ، ورقة ١١٢ .

النصارى (٢٧٤) ، كما كان هناك كثير من رجال الدولة - فى خلافة
المستنصر - ممن شملوا برعايتهم وتسامحهم كنائس النصارى ودور
عبادتهم (٢٧٥) .
الأديرة :

وكانت أديرة النصارى منتشرة فى أنحاء مصر والشام ونعم
رهبان تلك الأديرة بسياسة التسامح الدينى إزاء أهل الذمة التى
كانت سمة من سمات عصر الفاطميين ، باستثناء فترة من عهد
الخليفة الحاكم بأمر الله .

فعندما أقدم جوهر الصقلي على بناء مدينة القاهرة لتكون
عاصمة للفاطميين قام بتعمير دير الخندق بظاهر القاهرة من شمالها ،
عوضاً عن دير هدمه كان موضعه بالقرب من الجامع الأقمر ، وكان
يعرف بدير العظام . كما نقل رفات موتى النصارى الى دير الخندق
احتراماً لمشاعر النصارى فى مصر (٢٧٦) .

ولما قدم الخليفة المعز لدين الله الى مصر واستقر بها ، شمل
برعايته وعطفه ديارات النصارى ورهبانها ، وصرح للبطريرك
ابراهيم السورى راس الكنيسة القبطية آنذاك بترميم الأديرة
القديمة وبناء ما التمسسه من الأديرة الجديدة فى سائر أقاليم
الدولة (٢٧٧) .

وفى خلافة العزيز بالله كانت ديارات النصارى فى حمايته ،
ونعم الرهبان بالامن والطمانينة طوال عهده ، كما قام النصارى

(٢٧٤) أبو صالح الأرمنى : المصدر السابق ، ص ٢١ .

(٢٧٥) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٣ ، ورقة ٧٧ .

(٢٧٦) المقرئى : المخطوط ، ج ٢ ، ص ٥٠٦ .

(٢٧٧) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٣ ، ورقة ٤١ ، ٤٤ .

ببناء بعض الأديرة دون الاستئذان منه (٢٧٨) ، وعلى سبيل المثال
غان أرسانيوس البطريرك الملكاني صهر العزيز بالله أحاط دير
القصر بالمقطم بسور عظيم ، وعمر الدير وجده ، وأنشأ فيه أبنية
كثيرة (٢٧٩) .

وقبل أن تهب العاصفة ويتشدد الحاكم بأمر الله في سياسته
تجاه أهل الذمة ، قام النصاري بتجديد عمارة بعض الأديرة ، فقد
اهتم أبو نصر ابن عبدون - وكان آنذاك يتولى ديوان الشام ،
بتجديد عمارة دير ماريوحنا (٢٨٠) ، وكان على جانبي هذا الدير
بساتين أنشأ بعضها الأمير تميم بن المعز وكانت من مواضع النزهة
والطرب (٢٨١) .

وعندما هبت العاصفة ضد أهل الذمة في خلافة الحاكم ، وصل
ذراها إلى الأديرة والرهبان ، فهدم الكثير من الأديرة ، ولم يبق منها
إلا القليل (٢٨٢) .

ففي العاشر من رجب سنة ٣٩٨ هـ ، أمر بوضع اليد على
أوقاف الديارات الحديثة والعتيقة بمصر دون غيرها من البلدان ،
وجعلها باسمه في الديوان (٢٨٣) ، وفي مرسومه الصادر في
ذى الحجة سنة ٣٩٩ هـ ، كان هدم كنيسة القيامة بالقدس وشمل
الهدم والتخريب دير للرهبان بجوارها يعرف بدير السرى ، ونهب
ما فيه من تحف و ذخائر (٢٨٤) . كما صودرت أملاك الأديرة

(٢٧٨) جاك تاجر : المرجع السابق ، ص ١٢٥ .

(٢٧٩) الانتاكي : المصدر السابق ، ص ١٩٧ .

(٢٨٠) أبو صالح الأرمني : المصدر السابق ، ص ٥١ .

(٢٨١) المقرئ : الخطط ، ج ٢ ، ص ٥٠٥ .

(٢٨٢) — : نفس المصدر ، ص ٥٠٦ .

(٢٨٣) الانتاكي : المصدر السابق ، ص ١٩٤ .

(٢٨٤) — : نفس المصدر ، ص ١٩٦ .

وأوقافها في أنحاء الدولة وامتدت إليها معاول الهدم لنقضها (٢٨٥) .

وفي يوم الثلاثاء ثامن شهر رمضان سنة ٤٠٠ هـ ، أصدر الحاكم بأمر الله مرسوماً بهدم دير القصير بجبل المقطم ، ونهب جميع ما فيه ، وكان أرسانيوس بطريرك الملكانية يومئذ مقيماً فيه مع الرهبان ، فأخرجوا جميعاً من الدير ، وأخذت تنقضه معاول الهدم ، ولعل السبب في ذلك تشدد الحاكم بأمر الله في سياسته إزاء أهل الذمة عامة ، وإزاء النصارى الملكانية بوجه خاص ، هذا بجانب أن البطريرك استحدث بالدير عدة مبان ومنشآت جديدة ، وعمر وجدد في مبانيه ، مما اضطر الحاكم بأمر الله تمشياً مع سياسته وتشدده في تطبيق الشروط العمرية إلى هدم الدير وجميع ملحقاته المستحدثة ، واستمر الهدم فيه عدة أيام . وكان للنصارى الملكانية خارج الدير مقابر ومدافن لموتاهم ، ففتح الرعايا والعبيد جميعها ، ونشوها ، وأخذوا توابيت الموتى ، ولما علم الحاكم بذلك ، أمر بالكف عن فتح القبور وترك التعرض لرفات الموتى وما تحويه المدافن (٢٨٦) . وفي تلك السنة الغيت جميع الأحباس المرصودة على الأديرة بمصر وضممت للديوان (٢٨٧) . وفي صفر سنة ٤٠٢ هـ نزع الصليبان وطمست آثارها من ظاهر الأديرة ، وفي جمادى الآخرة سنة ٤٠٣ هـ أقطع الحاكم بأمر الله معظم الأديرة العتيقة والحديثة بمصر وسائر أقاليم الدولة لكل من التمسها (٢٨٨) ،

(٢٨٥) القريزي : الخطط ج ، ٢ ، ص ٤٩٥

(٢٨٦) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ٦٩٧

- أبو صالح الأرمي : المصدر السابق ، ص ٦٢

(٢٨٧) عنان : الحاكم بأمر الله ، ص ١٢٨

(٢٨٨) القريزي : انفاط الحنفا ، ج ٣ ، ص ٨١

وأحرق بعضها (٢٨٩) ، ووهب لهم أملاكها وما هو موقوف عليها ،
وسمح لهم بنهب محتوياتها ، وكتب الى عماله في سائر أعمال
الدولة بهدم الأديرة ونقضها ومحو آثارها ، فأتى على أكثر الأديرة
بالأقاليم ، الا الدير الكبير المعروف بدير أبى مقار - فى ترنوط من
أعمال الاسكندرية - وما حوله من الأديرة القريبة منه ، اذ بلغ
الحاكم بأمر الله أن هذا الدير فى حماية قبيلتى بنى قره وبنى كلاب
العربيتين ، وأن عرب هاتين القبيلتين لا يمكنون أحدا من الوصول
إليه والتعرض له ، فأمسك الحاكم عن هدمه أو إلحاق الضرر
به (٢٩٠) ، مما أتاح للرهبان المقيمين فيه حرية العبادة وإقامة
الشعائر الدينية فى الفترة التى ضيق فيها الحاكم بأمر الله الخناق
على الكنائس والأديرة بمصر (٢٩١) .

هذا بينما أقطع الحاكم بأمر الله دير راية ، ودير طور سيناء ،
لرجل عربى يعرف بابن غياث ، فهدم احدى كنيستى دير راية ،
وأخذ جميع ما فيه من تحف و ذخائر ومحتويات . ويذكر الأنطاكي
أن الخليفة الحاكم أوعز الى ابن غياث المسير الى دير طور سيناء
لهدمه وبناء مسجد مكانه ، الا أن الأنبا سلمون بن ابراهيم أحد
الكتاب النصارى الذين اتخذوا من الرهبانية طريقا لهم ، وكان
على قدر كبير من الذكاء والسياسة ، أحسن استقبال ابن غياث
هذا ، وأكد له أن أسقف الدير ورهبانه على استعداد تام للمساعدة
فى هدم الدير لساعته وغير مانعين له منه ، وسلم اليه جميع
محتويات الدير من التحف والذخائر وما به من الذهب والفضة ،
وقال له قولا لينا . وأوضح الأنبا سلمون لابن غياث صعوبة هدم
الدير لحصانة مبانيه وضخامة جدرانہ وأسواره ، وكثرة ما يلزم

(٢٨٩) أبو صالح الأرمنى ، ص ٧٧ .

(٢٩٠) الأنطاكي : المصدر السابق ، ص ٢٠٤ .

(٢٩١) ابن الراهب : المصدر السابق ، ص ١٢٥ .

من الأموال والنفقات لهدم الدير ، والتمس الراهب من ابن غياث عدم التعرض للدير مقابل مبلغ من المال تقرر دفعها اليه ، فرضى ابن غياث بما تم الاتفاق عليه ، وانصرف دون أن يهدم الدير أو يلحق برهبانه الأذى (٢٩٢) .

لكن الحاكم بأمر الله قبل اختفائه سنة ٤١١ هـ / ١٠٢٠ م كان قد خفف من مطاردته لأهل الذمة ، فانتهاز الأنبا سلمون رئيس دير طور سيناء تحول الخليفة عن سياسته السابقة وتسامحه مع أهل الذمة ، وشكى اليه سوء حالة رهبان دير طور سيناء ، وما هم عليه من الضر والفاقة ، وتوسل اليه في اطلاق الأوقاف الخاصة بالدير والتي سبق مصادرتها ليستعين الرهبان بريعتها في احتياجاتهم ومتطلبات اعاشتهم ، فأجابه الحاكم بأمر الله الى ملتمسه ، وأعاد ما كان للدير من أوقاف وأملاك (٢٩٣) .

وعندما التقى الأنبا سلمون بالحاكم بأمر الله شكى اليه ما أصاب دور العبادة الخاصة بالنصارى من خراب ، وما تعرضت له أوقافها من المصادرة والتمس منه الاذن بتجديد عمارة دير القصير ، والسماح بعودة الرهبان الى سكناه ، واجتماع النصارى فيه للصلاة مع رد ما سبق مصادرته من أملاك وأوقاف الدير اليه واعفائها واعفاء ما يستجد له من أوقاف مما يجب من « خراج وعشر وغرم ورسم » فى سائر دواوين الدولة ، فأجابه الحاكم الى ما التمسه وكتب له سجلا بذلك فى ربيع الآخر سنة ٤١١ هـ . ثم كتب الحاكم سجلا الى نقفور بطريرك بيت المقدس بحماية أديرة

(٢٩٢) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ .

(٢٩٣) — : نفس المصدر ، ص ٢٢٨ .

بيت المقدس ورد أوقافها اليها واطلاق حرية التعبد لرهبانها ،
وحذر كل من تسول له نفسه مخالفة أوامره (٢٩٤) .

وبعد ذلك أطلق الحاكم عمارة جميع الديارات فى سائر أنحاء
الدولة وأمر برد أوقافها وأملاكها اليها ، الا ما كان قد بيع ابان
مصادرتها ، وأعطى لكل من سأله سجلا فى معنى سجل دير
القصير (٢٩٥) .

ثم كان قرار الحاكم بالعفو الشامل بمقتضى مرسوم أصدره
فى شهر شعبان سنة ٤١١ هـ قبيل اختفائه (٢٩٦) . كما تعاطف
الحاكم بأمر الله مع الرهبان ونشأت صداقة وطيدة بينه وبين بعض
الرهبان ، ومنهم برين الراهب الذى كان قد اعتنق الاسلام ثم ارتد
الى النصرانية فى خلافته ، وعاد صاحباً له ، وكان واحداً من الذين
التمسوا من الحاكم بأمر الله إعادة فتح الكنائس والأديرة ، والغاء
الكثير من القيود التى فرضت على النصارى ، كما أن الحاكم
بأمر الله صرح له بتجديد عمارة أحد الأديرة ، وأطلق ما سبق
مصادرتها من أوقاف هذا الدير (٢٩٧) .

وزار الخليفة الحاكم بأمر الله فى أواخر أيامه الرهبان فى
أديرتهم وقد لبس زى الرهبان . فكثيراً ما كان يقصد دير القصير
أثناء تجديد عمارته ، ويحث الصناع والعمال على الانتهاء منه ،
كما أطلق الأموال للصرف على بنائه ، ودفع للرهبان المقيمين فيه
الأموال الجزيلة للمساهمة فى نفقات معيشتهم وسد احتياجاتهم ،

(٢٩٤) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ٢٢٩-٢٣١ .

(٢٩٥) — : نفس المصدر ، ص ٢٣١ .

(٢٩٦) — : نفس المصدر ، ص ٢٣٢ .

(٢٩٧) أبو صالح الأرمنى : المصدر السابق ، ص ٦٠ .

كما ساعد في دفع أجور العمال ، وكافأ البنائين العاملين في بنائه ،
تشجيعا لهم للاسراع في عمارته (٢٩٨) .

هذا ولم يقتصر الحاكم بأمر الله على زيارة دير القصير الخاص
بالروم الملكانية ، بل انه كان يقصد الديارات التي جردها النصارى
اليعاقبة للوقوف على ما تم في عمارتها ، مما دفع عوام المسلمين الى
اطلاق الاشاعات المغرضة ضده ، واتهامه بأنه قد تتلمذ على يد الأنبا
سلمون الراهب ، وأنه قد انحاز اليه وامثل لأوامره (٢٩٩) .

وهكذا أعاد الحاكم بأمر الله سياسة التسامح الدينى باطلاق
الحرية الدينية لأهل الذمة ، فصرح لهم بحرية اقامة شعائرهم
الدينية ، والتعبد علانية في الكنائس والأديرة ، وحثهم على اعادة
بنائها ، وسمح للرهبان بالعودة الى أديرتهم ، والسكن بها ، مع
توفير الأمن والحماية لهم ، وشملهم بعطفه ورعايته ، وزارهم في
أديرتهم ، وأطلق لهم ما كان موقوفا عليها من أملاك وأموال
وعقارات ، وأجاب النصارى لكل ما يحقق صلاح أمورهم (٣٠٠) .

وفى تلك الأثناء ، أذن الحاكم بأمر الله لمن دخل في الاسلام
كرها أن يرتد الى دينه ، فارتد آلاف من النصارى ممن كانوا قد
تظاهروا بالاسلام الى المسيحية . ويروى عن الحاكم قوله في هذا
الصدد : « ننزه مساجدنا عن لانية له في الاسلام » (٣٠١) ،
كما صرح بأن تضرب النواقيس في البيع والكنائس (٣٠٢) ، ايذانا
منه باطلاق الحرية الدينية لأهل الذمة .

(٢٩٨) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ٢٣٣ .

(٢٩٩) — : نفس المصدر ونفس الصفحة .

(٣٠٠) — : نفس المصدر ونفس الصفحة .

(٣٠١) العيني : المصدر السابق ، ج ١٩ ، ورقة ٥٤٨ .

(٣٠٢) الأنبا ميخائيل (اسقف اتريب) : السنكسار ، ج ١ ، ص ١٠٦ .

أما عن الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله ، فقد أعلن أنه سيتوخى العدل في سياسته مع كافة الناس على اختلاف وظائفهم ودياناتهم . ولقد انعكست تلك السياسة على أهل الذمة ، إذ استمرت سياسة إعادة بناء الأديرة ، وبذل رؤساء الكنيسة جهودا كبيرة لتعمير ما خرب منها (٣٠٣) ، هذا فضلا عن أن الخليفة الظاهر أصدر مرسوما عاما يؤكد استمرار سياسته في إطلاق الحرية الدينية لأهل الذمة ، وبأنه لا اكراه في الدين . فمن أثر منهم البقاء على يهوديته أو نصرانيته فله ذلك ، ولهم جميعا الحماية والأمان والطمأنينة « على نفوسهم ودمائهم ، وأولادهم ، وأموالهم ، وأحوالهم ، ما سلكوا الطريق المستقيمة ولم يقصدوا المقاصد الذميمة » (٣٠٤) .

كما أصدر الخليفة الظاهر في المحرم سنة ٤١٥ هـ مرسوما للرهبان اليعاقبة بتجديده ما سبق أن أقره الخلفاء الفاطميون الأوائل من توفير الحماية لهم ، وصيانة ممتلكات أديرتهم ، وعدم المساس بأوقافها (٣٠٥) .

بل أن الظاهر لاعزاز دين الله سمح بعودة جماعة من النصرانيين سبق لهم الهجرة الى بلاد الروم ، الا أنه أخذ منهم الجزية من السنة التي انتهى استخراجها منهم الى السنة التي عاد فيها كل واحد منهم (٣٠٦) .

(٣٠٣) الأنبا ميخائيل : سر البيعة المقدسة ، ج ٢ ، ورقة ٦١ .

(٣٠٤) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ٢٢٦ .

Stern : Op. Cit., p. 15-17. (٣٠٥)

(٣٠٦) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ٢٢٩ .

وفى خلافة المستنصر بالله الفاطمى نعم الرهبان بحرية ممارسة شعائهم الدينية فى الفترة الأولى من خلافته (٤٢٧ هـ - ٤٤٧ هـ) أى حتى منتصف القرن الخامس الهجرى / منتصف القرن الحادى عشر الميلادى . ولم تتعرض الأديرة لما يسمّى اليها أو الى رهبانها ، اذ سار المستنصر بالله على سياسة أسلافه التى تميزت بالتسامح الدينى وحرية العبادة لأهل الذمة . والرحالة ناصرى خسرو الذى زار مصر وفلسطين فى خلافته ، يذكر أن كنيسة القيامة « يقيم بها كثير من القسس والرهبان ، يقرأون الانجيل ، ويصلون ، ويشغلون بالعبادة ليل نهار » (٣٠٧) .

على أن أديرة النصارى فى الوجه البحرى امتدت اليها يد السلب والنهب ، أثناء تلك الحروب التى قامت بين قوات المستنصر ، وبين القائد التركى نصر الدولة الذى شق عصا الطاعة ، كما شوهدت زخارف ورسوم تلك الأديرة ومبانيها ، وتعرض رهبانها للأذى والقتل والتشريد ، مما أدى الى هروب من نجا منهم الى الأرياف فرارا من البطش والموت (٣٠٨) .

ومع انتشار المجاعة ، وازدياد الفتن ، واضطراب الأمن وعجز الخليفة المستنصر عن استرجاع هيئته وسلطانه ، وتدهور الأوضاع بوجه عام فى جميع أنحاء الدولة ، اضطر المستنصر الى استدعاء بدر الجمالى الى مصر ، لعله يعيد الأمور الى حالتها الطبيعية (٣٠٩) .

(٣٠٧) ناصرى خسرو : المصدر السابق ، ص ٣٧ .

(٣٠٨) الانبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٣ ، ورقة ٧٩ ، ٨٧ .

(٣٠٩) - ماجد : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر ، ص ٢٨٣ ،

٣٩٢-٣٩٣ .

الكنائس اليهودية :

واذا ما انتقلنا الى الحديث عن كنائس اليهود في مصر ، فان المقریزی يذكر أنه كان لليهود عدة كنائس منتشرة في الديار المصرية ويتناول في حديثه احدى عشرة كنيسة منها : كنيسة دموه بالجيزة ، وكنيسة جوجر بالقرى الغربية (٣١٠) ، وفي مدينة الفسطاط كان لليهود ثلاث كنائس هي : كنيسة المصاصة (٣١١) ، وكنيسة الشامين (٣١٢) ، وكنيسة الربانيين (٣١٣) .

كما كان لليهود عدة كنائس في مدينة القاهرة . فكان بحارة الجوردية كنيسة عرفت بها ، ويروي المقریزی أنها خراب منذ أن أحرق الخليفة الحاكم بأمر الله تلك الحارة على اليهود (٣١٤) . أما حارة زويلة وحدها فقد وجد بها خمس كنائس (٣١٥) هي : كنيسة القرائين ، وكنيسة دار الحدره ، وكنيسة الربانيين ، وكنيسة السامرة . وجميع تلك الكنائس المذكورة - على حسب قول المقریزی - محدثة في الاسلام (٣١٦) .

وكان لمعظم هذه الكنائس مكانة خاصة عند اليهود ، فهم يعتقدون أن كنيسة دموه - أعظم المعابد اليهودية بمصر - كانت الموضع الذي لجأ اليه موسى عليه السلام ، حينما كان يبلغ رسالة

(٣١٠) المقریزی : الخطط ، ج ٢ ، ص ٤٦٣ .

(٣١١) — : نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٤٧٠ .

(٣١٢) بنيامين التطيلي : المصدر السابق ، ص ١٧٠ ، ١٧١ .

(٣١٣) المقریزی : الخطط ، ج ٢ ، ص ٤٧١ .

(٣١٤) — : نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٤٧٠ .

(٣١٥) — : نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٤٦٣ .

(٣١٦) المقریزی : نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٤٧١ .

الله عز وجل الى فرعون ، مدة اقامته بمصر ، منذ أن قدم من مدين الى مصر ، الى أن خرج بنى اسرائيل منها وكان بتلك الكنيسة شجرة زيزلخت فى غاية الضخامة ، لا يشكون من أنها ترجع الى زمن موسى عليه السلام . كما كان لهذه الكنيسة عيد يرحل اليهود بأهاليهم اليها ، فى عيد الخطاب ، وهو فى شهر سيوان ، ويجعلون ذلك بدل حجهم الى القدس (٣١٧) .

أما كنيسة جوجر ، فيزعمون أنها الموضع الذى ولد به نبي الله الياس (٣١٨) ، كما يزعمون أن كنيسة المصاصة كانت مجلسا له (٣١٩) . كذلك يعتقد اليهود أن فى كنيسة الشاميين نسخة من التوراة لا يشكون فى أنها بخط عزرا أحد أنبيائهم (٣٢٠) .

لكننا علينا أن نتساءل : هل تعرضت معابد وكنائس اليهود لآية أضرار أو قيود فى العصر الفاطمى الأول ؟ ثم لماذا تركزت معظم الكنائس اليهودية فى حارة زويلة بالقاهرة ؟

والواقع أن يهود مصر كغيرهم من أهل الذمة ، قد نعموا بسياسة التسامح الدينى التى سار عليها الخلفاء الفاطميون فى العصر الفاطمى الأول اذ تولوا أرقى مناصب الدولة ، وكانوا على صلة وثيقة بقصر الخلافة (٣٢١) ، فتمتعوا بحرية ممارسة شعائرتهم الدينية فى أمن وطمأنينة . كما أن كنائسهم لم تتعرض طوال خلافة المعز لدين الله وابنه العزيز بالله ، لما ينال منها أو يلحق الضرر بها .

وفى بداية خلافة الحاكم بأمر الله مارس اليهود شعائرتهم الدينية فى حرية تامة ، بل ان بعض الوثائق تمتدحه بسبب

(٣١٧) المقرئى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٦٤ .

(٣١٨) — : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٦٩ .

(٣١٩) — نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٤٧٠ .

(٣٢٠) — : نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٤٧٠ .

Goitein : A Mediterranean Society. The Jews Community of the Arab World as Portrayed in the Documents of the Cairo Geniza, Vol. I, p. 33-34.

« أضلأحاته العظيمة » ، كما أن كنائس اليهود فى أوائل خلافة الحاكم لم تتعرض لأية أضرار ، فكان اليهود يجتمعون بها لاقامة الاحتفالات الدينية الخاصة بهم (٣٢٢) .

الا أن اليهود الذين كانوا يسكنون حارة الجودرية أثاروا سخط الحاكم عليهم ، فصب عليهم جام غضبه ، اذ بلغه أن اليهود يجتمعون بها أوقات خلواتهم ويغنون :

وأمة قد ضلوا ، ودينهم معتل

قال لهم نبيهم نعم الا دام الخل

ويستخرون بذلك من المسلمين ، ويستنهضون بنى الاسلام ويخوضون فى الديانة الاسلامية ، ويتعرضون الى ما لا ينبغى سماعه ، مما اضطر الحاكم بأمر الله الى الانتقام منهم (٣٢٣) ، فسد عليهم حارتهم ليلا وأحرقها . فامتد الحريق الى كنيستهم بتلك الحارة فدمرها وأصبحت خرابا (٣٢٤) ، ثم منعهم من السكن بحارة الجودرية أو المبيت فيها ، وأفرد لهم حارة زويلة للاقامة بها (٣٢٥) ، وأمرهم بعدم مغادرتها والا يخالطوا المسلمين فى حاراتهم (٣٢٦) ، مما أدى الى تركزهم فى حارة زويلة ، وبالتالى الى اهتمامهم بإنشاء معظم كنائسهم المحدثه فى تلك الحارة .

(٣٢٢) قاسم عبده : المرجع السابق ، ص ٥٩ .

(٣٢٣) المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٤ .

(٣٢٤) المقرئى : نفس المصدر ونفس الصفحة .
Goitein : Op. Cit., p. 84.

(٣٢٥) المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٤ .

— : نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٤٧٠ .

(٣٢٦) ابن اياس : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥١ .

ولقد تعرض اليهود في مصر لصرامة القيود التي فرضها الحاكم بأمر الله على أهل الذمة ، وتشدده في تطبيق الشروط العمرية التي زاد عليها ، مما اضطر كثير من اليهود في هذه الفترة الى الهجرة الى بلاد اليمن ، وإلى تظاهر بعضهم بالاسلام (٣٢٧) وذلك اما حفاظا على وظائفهم في الدولة ، واما هروبا من قسوة القيود الصارمة التي ضيقت الخناق على أهل الذمة بوجه عام .

وإذا كانت بعض كنائس اليهود قد تعرضت للنهب والتخريب في هذه الفترة من خلافة الحاكم فإنه قد عاد وصرح لهم باعادة بنائها (٣٢٨) ، كما أنه لم يكره أحدا على اعتناق الاسلام ، والدليل على ذلك أنه عندما انتهج سياسة متسامحة مع أهل الذمة قبيل اختفائه سنة ٤١١ هـ / ١٠٢٠ م ، وسمح لهم بالعودة الى دينهم ، ارتد أكثر أهل الذمة ممن كانوا قد تظاهروا بالاسلام (٣٢٩) ، وفي يوم واحد ارتد سبعة آلاف يهودي الى اليهودية (٣٣٠) .

Goitein : Jews and Arabs, p. 84. (٣٢٧)

Goitein : The Mediterrean Society. Vol. I, p. 84. (٣٢٨)

_____ : Jews and Arabs, p.84.

(٣٢٩) العيني : المصدر السابق ، ج ١٩ ، ورقة ٥٤٨ .

(٣٣٠) ابن اياس : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٨ .

الباب الرابع

(علاقة الدولة الفاطمية بالدول المسيحية)

وأثر ذلك على أهل الذمة

الفاطميون والبيزنطيون

استوجبت الأحوال التي تعرضت لها بلاد الشام قبيل الفتح الفاطمي لمصر ، أن يعمل الفاطميون على فتح الشام بمجرد أن انتهوا من فتح مصر .

فالجيش البيزنطي في عهد الامبراطور نقفور فوكاس (٣٥٢-٣٥٩ هـ / ٩٦٣-٩٦٩ م) كانت تواصل هجماتها بعنف على الشام ، وبخاصة في النصف الثاني من عام ٣٥٥ هـ / ٩٦٦ م وتبالغ في تخريب الأراضي الزراعية بالشام تمهيدا لغزو المدن الهامة بها ، وقد تمكنت هذه الجيوش من الاستيلاء على بعض الحصون والمراكز الرئيسية التي في حوزة المسلمين ، وسأقت أمامها الآلاف من أسرى المسلمين (١) .

ثم كانت وفاة سيف الدولة الحمداني أمير حلب في صفر ٣٥٦ هـ فرصة كبيرة أمام البيزنطيين ليستعدوا لتجهيز حملة أخرى على الشام في أواخر ٣٥٧ هـ / ٩٦٨ م ليبدأ بها الامبراطور نقفور فوكاس هجومه الكبير على الشام ضد المسلمين هناك في أوائل

(١) ماجد : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطهم في مصر ، ص ١٢٩ .

العام التالى . وقد نجحت القوات البيزنطية فى الاستيلاء على كثير من الحصون والقرى وبعض المدن فى شمالى الشام ، كما تكرر حصارها لبعض المدن الهامة كأنطاكية (٢) .

وأمام خطر البيزنطيين فى بلاد الشام التى أصابها الضعف ، وانهكت قواها الحروب فى ظل ظروف سياسية بالغة السوء ، بالإضافة الى ضعف العباسيين وعجزهم عن التصدى للهجمات البيزنطية ، بدا واضحا أنه لابد من وجود قوى اسلامية قوية ونشطة ، تمكنها قوتها العسكرية والسياسية والاقتصادية من التصدى لخطر البيزنطيين الداهم ، وكان ذلك من نصيب الفاطميين الذين كانوا يحلمون باسقاط الخلافة العباسية وتوحيد العالم الاسلامى تحت ظل خلافتهم وكان تحقيق ذلك يقتضى منهم الاستيلاء على الشام ونشر مذهبهم الشيعى هناك ، وجعل مصر والشام قاعدة للجهاد ضد الروم (٣) .

كما قضت الضرورة السياسية والحربية على الفاطميين أن يوجهوا جيوشهم نحو الشام لتأمين حدود مصر من ناحية الشمال الشرقى من خطر القرامطة القادم الى مصر بزعامة الحسن بن أحمد القرمطى ، ولصد هجمات الروم فى شمال الشام (٤) ، ولكى يكتسبوا ثقة الراى العام الاسلامى كخلافة قوية قادرة على دفع الأخطار عن المسلمين الذين فقدوا الثقة من قبل فى الخلافة العباسية الضعيفة ، والدولة الحمدانية التى أصابها الضعف بعد وفاة سيف الدولة (٥) .

(٢) عمر كمال توفيق : الامبراطور نقفور فوكاس واسترجاع الاراضى المقدسة ، ص ٢٧ الى ص ٣٧ .

(٣) ماجد : ظهور خلافة الفاطميين ، ص ١١٩-١٢٣ .

(٤) سرور : النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق ، ص ١٦ ، ١٧ .

(٥) ماجد : المرجع السابق ، ١٢٥ .

ولم تكد جيوش الفاطميين تستقر في مصر ، حتى قام البيزنطيون في عهد الامبراطور نقفور فوكاس بهجوم مفاجئ على مدينة أنطاكية وتمكنوا من الاستيلاء عليها في ذى الحجة سنة ٣٥٨ هـ / أكتوبر ٩٦٩ م . وكان سقوطها في يد البيزنطيين حدثا ضخما ، فهي المدينة التي كان يطمح نقفور فوكاس في الاستيلاء عليها منذ توليه عرش الامبراطورية ، لأنها مدينة البطارقة والقديسين ، والتي كانت تعتبر منافسة لبيزنطة على حدود الشام لمدة مائة وخمسة عشر عاما حتى استردها المسلمون في سنة ٤٧٧ هـ / ١٠٨٤ م (٦) .

وما لبث البيزنطيون بقيادة بطرس فوكاس - قائد قواتهم بالشام - أن تقدموا نحو مدينة حلب أهم المدن الشامية ، ودام حصارهم لها سبعة وعشرين يوما ، تمكنوا خلالها من التقدم في الجانب الشمالي منها ، وشددوا الحصار عليها ، مما اضطر أهالي المدينة الى التوسط بين بطرس فوكاس وحاكم المدينة قرعوية - الذي كان قد ثار على سعد الدولة بن سيف الدولة الحمداني - في عقد معاهدة صلح بينهما في سنة ٣٥٩ هـ / ٩٧٠ م . وفي هذه المعاهدة فرض البيزنطيون شروطهم التي تدعم نفوذهم بالشام ، وكان من أهمها التعاون مع الروم ضد المسلمين ، وأن يدفع جزية سنوية كبيرة الى بيزنطة (٧) .

على أنه بعد استيلاء الفاطميين على دمشق ، رأى جعفر ابن فلاح قائد جند الفاطميين ، أن في استيلاء الروم على أنطاكية ،

(٦) عمر كمال توفيق : المرجع السابق ، ص ٤٠ .

- سرور : النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق ، ص ٢١ ، ٢٢ ، ٢٦ .

(٧) عمر كمال توفيق : المرجع السابق ، ص ٤٠ ، ٤١ .

- ماجد : ظهور خلافة الفاطميين ، ص ١٣٠ .

وازدىاد نفوذهم فى حلب ما يهدد حكم الفاطميين فى الشام ، ومن ثم أعد جيشا كبيرا ضم جنودا من أعمال دمشق وفلسطين ، وصار يرسل الحملة تلو الحملة الى أنطاكية لاجلاء الروم عنها ، لكن هذه الحملات منيت بالفشل (٨) .

غير أن الفاطميين أرجأوا مواصلة حملاتهم على أنطاكية ، وسحبوا قواتهم التى كانت تحاصرها ، ليواجهوا خطر القرامطة الداهم ، بزعامة الحسن بن أحمد القرمطى ، الذى نجحت قواته فى سنة ٣٥٩هـ / ٩٦٩ م فى الاستيلاء على دمشق وقتل جعفر بن فلاح ، واقامة الدعوة للخليفة العباسى ، ثم توجهت جيوشه فى أواخر العام التالى لمهاجمة الفاطميين فى مصر (٩) .

وتمنع أن الفاطميين نجحوا فى رد هجوم القرامطة عن مصر ، ودخلوا دمشق فى عام ٣٦٣ هـ / ٩٧٣ م ، وأرسلوا قواتهم لحصار أنطاكية للقيام بالجهاد (١٠) . إلا أن الأمور زادت تعقيدا بالنسبة للحكم الفاطمى فى الشام ، ذلك أن الامبراطور حنا زيمسكس الذى كان مثل سلفه تقفور تحركه الأطماع لمعاونة المسلمين فى شن هجوم على الشام فى ذلك العام ، منتهزا اضطراب أحواله ، وبخاصة أنه كان يعتقد باستحالة الحياة بينه وبين الفاطميين . وكان هدفه ليس فقط الاغارة على الشام ، وإنما الوصول الى بيت المقدس مزار النصرانى الذى يرتبط بذكرىات المسيح (١١) .

(٨) سرور : النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق ، ص ٢٩ .

_____ : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٣٩ .

(٩) _____ : مصر فى عصر الدولة الفاطمية ، ص ١٢٠ .

(١٠) ماجد : ظهور خلافة الفاطميين ، ص ١٣١ .

(١١) _____ : المصدر السابق ، ص ١٣٢ .

وفي تلك الظروف التي كان يعاني منها الحكم الفاطمي في بلاد الشام وصل الى القاهرة في رمضان سنة ٣٦٣ هـ ، رسول الامبراطور البيزنطي حاملا رسالة الى الخليفة المعز ، الذي تسلمها ، ورأى أنه من حسن السياسة أن يعقد هدنة مع الروم بسبب الظروف البالغة السوء التي تواجه الفاطميين في الشام ، فأحسن استقبال الرسول البيزنطي ، رغم اعتراض بعض كبار رجال دولته . الا أن الرسول البيزنطي توفي في القاهرة في شهر ذي الحجة من نفس العام ، وعملا على تهدئة حالة التوتر في العلاقات البيزنطية الفاطمية ، أمر المعز باعادة جثمانه الى بلاد الروم (١٢) .

غير أنه في تلك الأثناء عمت الفوضى بلاد الشام بسبب الاضطرابات التي أثارها أفتكين التركي (١٣) ، الذي استولى على بعلبك في شعبان سنة ٣٦٤ هـ (١٤) ، ثم دخل دمشق في نفس الشهر من العام نفسه (١٥) . ولم يلبث البيزنطيون أن انتهزوا هذه الاضطرابات واستولوا على بعلبك في رمضان سنة ٣٦٤ هـ ، ونهبوها وأحرقوا كل ما وصلت اليه أيديهم ، ثم هددوا مدينة دمشق ، ولما كان أفتكين قد دخل دمشق ، فانه طلب عقد هدنة مع الامبراطور البيزنطي جنا زيمسكيس ، مقابل مبلغ من المال ، فجئى له أفتكين ثلاثين ألف دينار جمعها بالعنف ، فرحل الامبراطور الى بيروت ، وبها نصير الخادم والى المدينة من قبل المعز ، ولم يزل محاصرا للمدينة حتى سلم أهلها نصير الخادم للامبراطور الذي ولى عليها حاكما من قبله مع حامية من مائتى رجل ، وبعد ذلك بقليل

(١٢) المقرئى : اتعاظ الجنفا ، ج ١ ، ص ٢٠٨-٢١٤ .

(١٣) أفتكين : قائد جند الأتراك في بغداد في عهد عز الدولة بختيار أمير بى

بويه في العراق (٣٥٦ - ٣٦٧ هـ - وتوجه الى الشام بعد هزيمته أمام جند الديلم .

(المائوى ، المرجع السابق ، ص ١٩١) .

(١٤) المقرئى : اتعاظ الجنفا ، ج ١ ، ص ٢٢٠ - ٢٢١ .

(١٥) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ٧ ، ص ٦٣ .

نجح ريان الخادم أحد قواد المعز في أن ينزل هزيمة بقسوات الروم (١٦) ، غير أن زيمسكيس توجه الى فلسطين حيث تحصن الجيش الفاطمي بالقدس مدافعا عنها ومانعا الروم من السيطرة عليها ، فاضطر الامبراطور الى العودة الى القسطنطينية (١٧) .

ومع هذا لم تنقطع الاتصالات الدبلوماسية بين البلدين ، فقد وصل الى القاهرة رسول آخر للامبراطور البيزنطي في المحرم سنة ٣٦٥ هـ ، لمقابلة الخليفة المعز . ولم يكتب لهذه المفاوضات الثانية النجاح ، أما بسبب عدم الوصول الى اتفاق حول شروط الصلح ، أو بسبب استمرار الهجمات البيزنطية المتكررة على مدن الشام بالدرجة التي جعلت المعز يقرر أن يجهز جيوشه للمسير الى القسطنطينية في هذا العام ، لكنه توفي في شهر ربيع الآخر قبل أن ينفذ خطته (١٨) .

وقد انشغل العزيز بالله - في بداية عهده - بمحاربة أفتكين التركي الذي تحالف مع القرامطة ، واستطاع أن ينزل بهذا التحالف هزيمة منكرة عند الرملة في المحرم سنة ٣٦٧ هـ ، وأسر أفتكين ، بينما عاد القرامطة منهزمين الى الاحساء (١٩) وبذلك تخلص العزيز بالله من خطر القرامطة ، واتجه الى فلسطين ، حيث ثار أحد زعماء العرب المسمى المفرج بن دغفل بن الجراح الذي استولى على الرملة ، وأعلن العصيان على الفاطميين سنة ٣٧١ هـ ، حينما قلد العزيز الرملة

(١٦) المقرئى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٢٢ .

(١٧) ماجد : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر ، ص ١٣٤ .

(١٨) المقرئى : اتعاظ الحنفا ، ج ١ ، ص ٢٣١ .

(١٩) سبط بن الجوزى : المصدر السابق ، ج ١١ ، ورقة ٩١ .

- ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٦٤ ، ٦٥ .

- المقرئى : اتعاظ الحنفا ، ج ١ ، ص ٢٤٢ - ٢٤٤ .

الفضل بن صالح (٢٠) ، ونشبت الحرب بين ابن الجراح والفاطمين ، واستطاع بلمتكنين - قائد جيش مصر - أن ينزل هزيمة بابن الجراح الذي فر الى أنطاكية سنة ٣٧٢ هـ ، مستجيرا بالامبراطور البيزنطي الذي زحفت جيوشه على الشام . ومن أنطاكية دخلت جيوشه حمص ، ثم زحف الى طرابلس ، غير أنه عاد الى حمص فنهبها وأحرقها في جمادى الأولى سنة ٣٧٢ هـ ، عندما امتنع أهلها عن دفع الأموال له (٢١) .

على أن ابن الجراح عاد الى الشام والتمس الأمان من العزيز بالله فعفا عنه ، وما لبثت جيوش العزيز أن دخلت قنسرين وحمص مرة ثانية ، وأقامت الدعوة له بها في ربيع الأول سنة ٣٧٣ هـ (٢٢) . وفي العام نفسه استطاع بكجور - والى دمشق - أن يحاصر حلب ، غير أن الروم أسرعوا لنجدة سعد الدولة - طبقا لسياستهم في الدفاع عن الحمدانيين - وحاولوا تطويق عسكر الفاطمين ، مما اضطر بكجور الى فك حصاره لحلب ، بينما سار الروم ونزلت قواتهم حمص (٢٣) وبهذا وقف البيزنطيون حائلا أمام الفاطمين ولم يتمكنوهم من اقتحاح حلب ، وعاد بكجور الى دمشق ليتولى إمارتها ، إلا أنه ما لبث أن عزل من الولاية لسوء سياسته ولغضب ابن كلس عليه لتتكيله بأتباعه ، مما دفعه الى أن يوعز الى العزيز بعزله . فرحل بكجور الى الرقة (على نهر الفرات) وأرسل الى سعد الدولة التماسا بأن يعيده الى ولاية حمص ، فلم يستجب لطلبه (٢٤) .

(٢٠) المناوى : المرجع السابق ، ص ١٩٤ .

(٢١) المقرئى : المصدر السابق ، ص ٢٥١ ، ٢٥٦ - ٢٥٨ .

- المناوى : المرجع السابق ، ص ١٩٤ .

(٢٢) النويرى : المصدر السابق ، ج ٢٦ ، ورقة ٤٧ ، ٤٨ .

(٢٣) المقرئى : اتعاظ الحنفا ، ج ١ ، ص ٢٥٨ .

(٢٤) سرور : النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق ، ص ٤٩ .

وقد واصل العزيز بالله سياسته التي ترمى الى تدعيم مركز الفاطميين بالشام ، فجهز أسطولاً حربياً للسيطرة على سواحلها ، وليقف في وجه الروم ، الا أن حريقاً شب في الأسطول الفاطمي قبل اقلاعه ، فدمر معظم قطعه ، وعطل سير الحملة . هذا بينما وصلت الى مصر في العام نفسه (٣٧٧ هـ / ٩٨٧ م) ، رسل الامبراطور باسيل الثاني تحمل هدية الخليفة العزيز وتطلب عقد صلح بين الدولتين فأجابهم العزيز ، واشترط عدة شروط التزموا بها كلها ، وهي :

- ١ - أن يطلق البيزنطيون سراح جميع الأسرى المسلمين .
- ٢ - أن يخطب للعزيز في جامع القسطنطينية كل جمعة .
- ٣ - أن تعود العلاقات التجارية بين مصر وبيزنطة ، وأن يصعدوا الى مصر كل ما تحتاج اليه من بضائع الروم .
- ٤ - أن تكون مدة هذه الهدنة سبع سنين (٢٥) .

وظل بكجور أثناء اقامته يواصل جهوده للاستيلاء على حلب من الحمدانيين ، ونجح في استمالة ممالك ساعد الدولة اليه ، كما أرسل الى العزيز ليحصل على تأييد الفاطميين له ، وأطمعه في حلب ، وقال في رسالته عن حلب « أنها دهلين العراق ، ومتى أخذت كان ما بعدها أسهل منها » (٢٦) .

وطلب امداده بالجنود والمؤن ، فأمر العزيز واليه بطرابلس بمساعدة بكجور في حصار حلب . ولما علم ساعد الدولة بذلك ،

(٢٥) ابو المحاسن : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٥١-١٥٢ .

(٢٦) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٢٤ .

استنجد بالامبراطور باسيل الثاني الذي امر واليه بأنطاكية بمعاونه
سعد الدولة والتصدى للفاطمين ونشبت الحرب بين الطرفين (٢٧) .
فانهزم بكجور وسبق أسيرا الى سعد الدولة فضرب عنقه في ثاني
صفر سنة ٣٨١ هـ وصلبه ، ثم سار واستولى على الرقة ونهبها (١٨) .
بعد أن أعطى الأمان لأولاد بكجور ، بينما هرب علي بن الحسين
المغربى كاتب بكجور واجتمع بالعزیز بالله فى القاهرة واقنعه بأهميه
الاستيلاء على حلب كما هون عليه فتحها (٢٩) . فأرسل العزیز الى
سعد الدولة يسأله أن يسير أولاد بكجور الى مصر وهدده بقوله له :
« انك متى خالفتنا فى ذلك واحتججت فيه ، كنا الخصوم لك .
وجهزنا العسكر اليك ، فأهان سعد الدولة رسول العزیز وقال له :
« قل لصاحبك انى سائر اليه » ، غير أن سعد الدولة توفى فى شهر
رمضان سنة ٣٨١ هـ ، بعد أن عهد الى ولده أبى الفضائل وأوصى
لؤلؤ الخادم به (٣٠) . هذا فى الوقت الذى سار منجوتكين قائد
جيش الفاطميين صوب حلب ، فكتب أبو الفضائل الى باسيل امبراطور
الروم - وكان اذ ذاك يقاتل الباغار - يحثه على تجديده ، كما بع
اليه بالهدايا والتحف ، فأمر باسيل واليه على أنطاكية أن يسارع
الى نجدة أبى الفضائل . وعلى ضفاف نهر العاصى داهمت القوات
الفاطمية الروم وأنزلت بهم هزيمة ساحقة سنة ٣٨١ هـ . فارتد
الروم الى أنطاكية ، وواصل منجوتكين هجومه فنهب أنطاكية وقراها
وأحرقها ، ثم عاد فحاصر حلب (٣١) . وبعد مدة وجيزة ارند
منجوتكين الى دمشق بحجة نفاذ المؤن (٣٢) .

(٢٧) سرور : النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق ، ص ٥٠ .

(٢٨) المقرئى : اتعاظ الحنفا ، ج ١ ، ص ٢٦٩ .

(٢٩) بيبرس الدوادار : المصدر السابق ، ج ٦ ، ورقة ٢٧٨ .

(٣٠) ابن القلانسى : المصدر السابق ، ص ٢٨ ، ٢٩ .

(٣١) — : نفس المصدر ، ص ٤١ .

(٣٢) بيبرس الدوادار : المصدر السابق ، ج ٦ ، ورقة ٢٧٨ .

استمرت العلاقات متوترة بين الفاطميين والبيزنطيين في أواخر عهد العزيز بالله ، وحدثت تحرشات بين القوات المتحاربة في البحر سنة ٣٨٣ هـ / ٩٩٣ م وكانت الغلبة فيها لقوات العزيز ، كما فشل الروم في محاولتهم مهاجمة الاسكندرية بحرا ولتأمين سواحل مصر أمر العزيز بتدعيم الاسطول الفاطمي ليستطيع رد الهجمات البحرية البيزنطية المتكررة (٣٣) .

وعاد منجوتكين الى حصار حلب بعد أن زوده العزيز بالله الفاطمي بكل ما يلزمه ، ولما ضيق الخناق على حلب ، استنجد أبو الفضائل بالامبراطور باسيل الثاني ، وأرسل اليه يوضح الأخطار التي قد يتعرض لها اذا نجح الفاطميون في الاستيلاء على حلب ، وقال له : « متى أخذت حلب ، أخذت أنطاكية ، ومتى أخذت أنطاكية أخذت القسطنطينية » (٣٤) .

وانزعج باسيل الثاني لهجوم الفاطميين على حلب ، وما أن رأى أن الخطر يتهدد ببلاده ، حتى سار بقواته - من بلاد البلغار - الى الشام لنجدة الحمدانيين تنفيذا للمعاهدة التي سبق أن أبرمها معهم (٣٥) ، ولفك الحصار عن حلب التي كادت تقع في يد الفاطميين ، ولحماية أنطاكية التي تعرضت لغارات الفاطميين (٣٦) .

وقد اضطر منجوتكين الى فك الحصار عن حلب والعودة الى دمشق عندما علم بزحف قوات باسيل نحو الشام ، تلك القوات التي نزلت حلب ، وواصلت تقدمها بقيادة الامبراطور ، واستولت

(٣٣) المقرئى : اتعاط الحنفا ، ج ١ ، ص ٢٧٧ ، ٢٧٨ .

- أبو المحاسن : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٢١ .

(٣٤) بيبيرس الدوادار : المصدر السابق ، ج ٦ ، ورقة ٢٧٩ .

(٣٥) — : نفس المصدر ، نفس الصفحة .

(٣٦) المقرئى : اتعاط الحنفا ، ج ١ ، ص ٢٨٥ .

على حصن شيزو - على مقربة من حماة - ثم حاصرت مدينة طرابلس .
غير أنها فشلت فى الاستيلاء عليها لاستبسال أهلها فى الدفاع
عنها (٣٧) . فانسحبت القوات البيزنطية الى انطرسوس ثم انطاكية
ثم كر الامبراطور راجعا الى القسطنطينية سنة ٣٨٥هـ / ٩٩٥م (٣٨) .
بعد أن بسط سلطان البيزنطيين على معظم ساحل الشام (٣٩) .

ولما تخرج موقف الفاطميين بالشم قرر العزيز بالله الخروج
بنفسه على رأس قواته لاستعادة هيبة الفاطميين ، وأمر بإعداد حملة
برية وأخرى بحرية لهذا الغرض ، فبذل عيسى بن نسطورس جهودا
كبيرة فى إعداد الحملة غير أن حريقا مروعا شب فى قطع الأسطول
المصرى قبل اقلاعه من ميناء المقس فدمر معظمه فى ربيع الثانى
سنة ٣٨٦هـ (٤٠) . وثار عامة المسلمين بالقاهرة ومصر (الفسطاط)
لهذا الحادث الجلل ، واتهموا تجار الروم الواردين بالبضائع الى
مصر (٤١) ، كما اتهموا الاسارى الروم بتدبير مؤامرة لاحتراقه (٤٢) ،
وعمت القاهرة موجة من الاضطرابات العنيفة ، قتل فيها حوالى مائة
من الروم ، ونهب العامة الحى الذى يقيمون به ، وكان على مقربة

(٣٧) ابن القلائس : المصدر السابق ، ص ٤٢ ، ٤٤ .

(٣٨) بيبرس الدوادار : المصدر السابق ، ج ٦ ، ورقة ٢٧٩ .

- أبو المحاسن : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٢١ .

(٣٩) سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٤١ .

(٤٠) المقرئى : اتعاظ الحنفا ، ج ١ ، ص ٢٩٠ .

(٤١) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ١٧٨ .

(٤٢) المقرئى : اتعاظ الحنفا ، ج ١ ، ص ٢٩٠ .

من دار الصناعة • الا أن الخليفة العزيز بالله أمر عيسى بن نسطورس باتخاذ اجراءات أمن صارمة للقضاء على الفتنة ، فضرب بيد من حديد على أيدي مثيري الشغب من العامة ، وقتل بعضهم ، كما سجن واعتقل الكثير منهم (٤٣) •

وعلى الرغم من غضب عامة المسلمين لهذا الحادث ، فإن اليهود ونصارى مصر لم يتعرضوا لأية أضرار ، بل ان العزيز بالله أمر برد ما أخذ من أموال الروم اليهم ، رغم اعترافاتهم بارتكابهم لحادث حرق الأسطول (٤٤) وليس لنا من تعليق على ذلك الا أنه عهد العزيز بالله الذى تميز بالتسامح التام والمطلق ...

وفى بداية عهد الحاكم بأمر الله لم يقيم الفاطميون والبيزنطيون باتخاذ أية اجراءات استفزازية تسيء الى العلاقات فيما بينهما • وبدأ البيزنطيون هذه الفترة بشيء من التعقل ، اذ رفض الامبراطور باسيل الثانى مساعدة منجوتكين - الذى أعلن عصيانه على الفاطميين - فالتقى منجوتكين هزيمة ساحقة قرب عسقلان فى جمادى الأولى سنة ٣٨٧هـ ، واضطر الى طلب الأمان ، ودخل مصر وخلع عليه (٤٥) •

وبعد فترة من الاضطرابات بين المشاركة والمغاربة تولى برجوان الخادم الوساطة ، وعهد الى كاتبه فهد بن ابراهيم النصرانى بتصريف أمور الدولة والنيابة عنه ، فأصبح المنفذ الحقيقى لسياسة الدولة (٤٦) •

(٤٣) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ١٧٩

(٤٤) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ١٧٩ •

- المقرئى : اتعاظ الحنفا ، ج ١ ، ص ٢٩٠ •

(٤٥) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ١٨٠-١٨١ •

(٤٦) انظر الباب الاول ، هـ

وخلال تلك الفترة من الاضطرابات في مصر ، حدث أيضا أن
 ثار أهل دمشق على أبي تميم سليمان بن فلاح وإلى دمشق وطردوه
 منها ، بينما قام أهالي مدينة صور سنة ٣٨٧ - ٣٨٨ هـ / ٩٩٧ -
 ٩٩٨ م بثورة على الادارة الفاطمية ، وقتلوا جماعة من المغاربة ،
 والتفوا حول رجل سلاح يعرف بعلاقة ، أعلن الثورة وتمرد على
 الفاطميين ، كما أعلن استقلال صور ، وضرب النقود باسمه ، ونقش
 عليها عبارة (عز بعد فاقة للأمير علاقة) ، (٤٧) ، وأرسل إلى الامبراطور
 باسيل الثاني يطلب مساعدته ، ويبدى استعداده لتسليم صور إلى
 الروم ، ورأى الامبراطور باسيل أن ينتهز هذه الفرصة للقضاء على
 نفوذ الفاطميين بالشام ، فاستجاب لطلب علاقة وأرسل أسطولاً
 حربيًا بيزنطياً إلى صور لتدعيم ثورة أهلها ضد الفاطميين ولما استفحل
 أمر الثورة أرسل برنجان أسطولاً حربيًا وجيشاً كبيراً لخماد الثورة
 في كل من دمشق وصور ، وتدعيم النفوذ الفاطمي بهما (٤٨) .
 واستطاع الأسطول الفاطمي أن يلحق بالأسطول البيزنطي هزيمة
 ساحقة ، وأن يأسر عدداً من سفنه ، كما استطاعت القوات الفاطمية
 أن تدخل صور ، وتحاصر علاقة في أبراجها ، وتشدد الحصار عليه .
 وتضطره إلى التسليم وطلب الأمان (٤٩) .

وهكذا سقطت مدينة صور في يد القوات الفاطمية ، وأخذ
 علاقة أسيراً إلى القاهرة في جمادى الآخر سنة ٣٨٨ هـ ، ومعه

(٤٧) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٨١ .

- ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٥٠ .

(٤٨) — : المصدر السابق ، ص ٥٠ .

(٤٩) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٨١ .

مجموعة من الأسرى ، حيث شهر به ، و صلب ، تم قتل هو وأصحابه (٥٠) .

وإذا كانت القوات البيزنطية قد فشلت في مساندة ثورة علاقة ، فان الفاطميين قد أحكموا سيطرتهم على صور ، وواصلت جيوشهم زحفها نحو دمشق فدخلتها ، ومنها اتجهت الى أفاعية ، حيث أنزلت بالقوات البيزنطية هزيمة ساحقة في رجب سنة ٣٨٨ هـ ، وتعقببت فلول البيزنطيين حتى أبواب أنطاكية ، وحاصرتها ، ثم ما لبثت القوات الفاطمية أن عادت الى دمشق (٥١) .

وعلى الرغم من انتصارات قوات الحاكم بأمر الله على القوات البيزنطية بالشام ، الا أن برجران رأى أن يهادن الروم لكي يتفرغ لمعالجة الأحداث والاضطرابات الداخلية في مصر ، وليوفر الظروف لاستقرار الأمور في بلاد الشام . لهذا أرسل برجران الى الامبراطور ياسيل الثاني يعرض عليه عقد صلح وقرار هدنة بين البلدين ، كما أرسل الى الامبراطور هدايا سلك فيها سبيل التآلف والملاطفة (٥٢) ، وقد رحب الامبراطور بهذه الدعوة ، وأنفذ رسولين الى الحاكم لعقد الهدنة والاتفاق على شروط الصلح (٥٣) .

وبينما كانت المفاوضات على وشك أن تبدأ في القاهرة رأى الامبراطور أن يرد على هزيمة قواته في أفاعية سنة ٣٨٨ هـ / ٩٩٨ م ، فخرج بنفسه على رأس قواته غازيا لبلاد الشام في شوال من السنة

(٥٠) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٨٢

(٥١) ابن القلائسي : المصدر السابق ، ص ٥٠ .

(٥٢) ماجد : الحاكم بأمر الله ، ص ١٣٣ .

(٥٣) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٨٢ .

التالية ، لوقف زحف القوات الفاطمية ، ولاحداث ضغط عسكرى وسياسى لتحسين موقف وفد بلاده فى المفاوضات ، فاستولت قوات الامبراطور على جسر الجديد ، وشيّر وحصن أبى قبيس ومصياى (٥٤) ، ثم دخل حمص ، وسار بعدها الى بعلبك مما دفع جيش ابن الصمصامة أمام ضغط القوات البيزنطية الى أن يستنجد ببزجوان فى القاهرة وببولاة الشام ، فأرسلت اليه قوات ضخمة انظمت الى قواته بدمشق (٥٥) .

وكادت مفاوضات القاهرة تنهار ويفشل مشروع الصالح لولا الفشل الذى منيت به قوات الامبراطور فى هجومها الجديد على الشام وبخاصة أمام طرابلس ، واضطراره للانسحاب فى المحرم سنة ٣٩٠ هـ (٥٦) ، فارتد الامبراطور الى أنطاكية عن طريق اللاذقية (٥٧) ، ومنها توجه بجيوشه نحو أرمينية (٥٨) ، ليواجه

(٥٤) جسر الجديد : قرب دمشق ، شيّر : قلعة قرب العرة بينها وبين حماة
حسن أبى قبيس : حصن مقابل لشيّر ، مصياى : حصن مشهور للاسماعيلية قرب
طرابلس . (المناوى ، المصدر السابق ، ص ٢٢١ حاشية ١) .

(٥٥) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ١٨٣ .

— المناوى : المرجع السابق ، ص ٢٢١ .

(٥٦) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ١٨٣ .

— سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٤٢ .

— المناوى : المرجع السابق ، ص ٢٢١ .

(٥٧) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ١٨٤ .

(٥٨) المقرئى : اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ، ص ٢٢ .

الخطر البلغارى بينما آثر اقامة سلام على حدود بلاده الجنوبية مع
الفاطمين (٥٩) .

وبانسحاب باسيل الثانى من الشام تهيأ الجو مرة أخرى
لاستئناف مفاوضات الصلح بين الطرفين ، ففي جماد الآخرة سنة
٣٩١ هـ / مارس ١٠٠٢ م استقبلت القاهرة السفير البيزنطى
- المكلف بالمفاوضات مع الفاطمين - أحسن استقبال وسط مراسم
احتفال رائعة يصفها المقرئى بقوله : « فحشدت له العساكر من
سائر الأعمال ، ووقفوا صفين والحاكم واقف ليراهم ، وسار الرسول
بين العساكر الى باب الفتوح ، ونزل ومشى الى القصر يقبل الأرض
فى طول المسافة حتى وصل الى حضرة الحاكم ، وقد فرش ايوان
القصر وعلق فيه تعاليق غريبة ، وعلقت بصدور الايوان العسجدة ،
وهى ورقة مطعمة بفاخر الجواهر والنفيس من كل أصنافه ، فأضاء
لها ما حوله ، ووقعت عليها الشمس فلم تطق الأبصار تأملها كلالا ،
وقبل الأرض ، ودفع الكتب وعرض الهدية (٦٠) .

وانتدب الحاكم بأمر الله أريسطيس بطريك بيت المقدس
- وهو خال ست الملك أخت الحاكم من أم أخرى مسيحية - ليكون
مندوبا للحكومة الفاطمية فى المفاوضات ، وأعطى البطريرك صلاحيات
كاملة كمفاوض مصرى ، وقيل للسفير البيزنطى : « ما يقرره هذا
البطريرك فإن مولانا ممتض ومرتض به » (٦١) .

ثم جمع بينهما وخلع على كل واحد منهما خلعا نفيسة ، وتوجه

(٥٩) عنان : الحاكم بأمر الله ، ص ١٧٨ .

(٦٠) المقرئى : اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ، ص ٣٩ ، ٤٠ .

(٦١) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ١٨٤ .

السفيران البيزنطي والفاطمي الى القسطنطينية لاتمام المرحلة الأخيرة من المفاوضات « ولتقرير الهدنة وعقد المسألة » ، وللتصديق على المعاهدة بعد عرضها على الامبراطور ، وقام أريستطيس بهذه المهمة ، وقد تم عقد معاهدة سلم وصداقة بين الدولتين في سنة ٣٩١ هـ / ١٠٠١ م ، وكان من شروط الصلح أن يتمتع الروم في جميع أنحاء الدولة الفاطمية بالحرية الدينية ، ويسمح لهم بتجديد كنائسهم (٦٢) .

وهكذا نجح أريستطيس بطريرك بيت المقدس في اقرار الهدنة بين مصر وبيزنطة ، غير أنه توفي بعد أن أمضى أربع سنوات في العاصمة البيزنطية (٦٣) .

لكن مجموعة المراسيم والسجلات الدينية والاجتماعية التي أصدرها الحاكم بأمر الله - والتي سبق الإشارة اليها - والتي ضيقت الخناق على أهل الذمة ومنهم المسيحيون ، حدثت من الحرية الدينية لأهل الذمة بوجه عام والروم الملكانية بوجه خاص ، وكذلك سياسته ازاء الكنائس والأديرة وهدم الآلاف منها ، وخاصة كنيسة القيامة بالقدس ، أدت الى توتر العلاقات الدبلوماسية بين الدولتين ، وإلى قطع الامبراطور باسيل الثاني لعلاقته بالدولة الفاطمية حينما وصلتته أنباء هذه السياسة التي انتهجها الحاكم ازاء النصارى . وعلى الرغم من ذلك فقد ظل الحاكم متمسكا بالهدنة مع الامبراطور .

(٦٢) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٨٤ .

- عايد : الحاكم بأمر الله ، ص ١٢٣ .

- الخربوطلي : مصر العربية ، ص ٢٠٤ .

(٦٣) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٨٤ .

وأرسل اليه فى سنة ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م هدية قيمتها سبعة آلاف دينار (٦٤) . ثم ما لبث أن أرسل الحاكم بأمر الله سفارة الى القسطنطينية فى أوائل العام التالى برئاسة عبد الغنى بن سعيد ، ومعه هدية فخمة الى الامبراطور . وبعد نحو من عام وفى جماد الآخرة سنة ٤٠٥ هـ / أكتوبر سنة ١٠١٤ م عاد السفير الفاطمي ومعه سفير بيزنطى بهدية من الامبراطور كدليل على تدعيم علاقة حسن الجوار والصداقة بين الدولتين وقد استقبل السفير البيزنطى فى القاهرة استقبالا رائعا وسط مظاهر الفخامة والتكريم (٦٥) .

على أن الهدنة بين الدولتين ما لبثت أن تعرضت مرة أخرى لخطر نقضها من جانب البيزنطيين ، حينما بلغ الامبراطور باسيل الثانى أن ملك الأنجazy - (لعل أصلهم من الهنغار أو البلغار أو الروس) - أرسل الى الحاكم بأمر الله يعرض عليه التحالف معه لشن حرب مزدوجة ضد الدولة البيزنطية وساعات العلاقات بين الدولتين ، لدرجة أن الامبراطور قطع العلاقة التجارية مع مصر والشام ، واستعد لمهاجمة الفاطميين ، لولا اختفاء الحاكم بأمر الله فى أواخر شوال سنة ٤١١ هـ / فبراير سنة ١٠٢١ م ، واعتلاء ابنه الظاهر لاغراز دين الله عرش الخلافة ، واسراع ست الملك الى ارسال سفارة الى الامبراطور ، اختارت لرئاستها البطريرك نقفور - وهو من الملكانيين - بطريرك بيت المقدس ، للعمل على تخفيف حدة التوتر بين الدولتين ، وقوطيد أواصر الصداقة بين مصر وبيزنطة (٦٦) ،

(٦٤) المقرئى : أتعاط الحنفا ، ج ٢ ، ص ٩٩ .

(٦٥) المقرئى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٠٧ ، ١٠٨ .

(٦٦) ماجد : الحاكم بأمر الله ، ص ١٢٣ ، ١٢٤ .

— : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر ، ص ١٤٢ .

— سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٤٣ .

ولاطلاع الامبراطور على العديد من الاجراءات التي اتخذتها الدولة الفاطمية لرفع الحيف عن النصارى ، واطلاق الحرية الدينية لأهل الذمة ، والسماح للنصارى باعادة بناء وتجديد الكنائس وسائر البيع فى مصر والشام ، مع تجديد كنيسة القيامة بالقدس ، ورد ما أخذ من أموال المسيحيين وأوقاف الكنائس ، كما كلفت ست الملك البطريرك بأن يطلب من الامبراطور عودة العلاقات بين الدولتين ، واستئناف العلاقات التجارية بينهما ، ويبلغه أن المسيحيين من رعايا الدولة الفاطمية قد شملتهم الدولة برعايتها ويتمتعون بحمايتها ، وأن مصر لديها الرغبة فى اقامة علاقات حسن جوار وصدقة مع بيزنطة (٦٧) .

وقابل البطريرك نقفور الامبراطور بالقسطنطينية ، وكادت هذه السفارة تؤت ثمارها بسبب التفاهم الذى تم بين نقفور وافسطاثيوس بطريرك القسطنطينية الذى أشاد بزميله سفير الفاطميين . وبينما كان نقفور يجرى المفاوضات مع الحكومة البيزنطية فى القسطنطينية توفيت ست الملك ، وأخطر البطريرك نقفور بذلك . فتوقفت المفاوضات ، لأن الأميرة الفاطمية كانت « أول من يهملها الأمر ، وأنها كانت التى تنتظر الجواب » (٦٨) ، وأنها قبل أى شئ كانت أول من شجع على القيام بهذه السفارة بحكم مسئوليتها عن ادارة الدولة فى تلك الفترة . وعاد نقفور الى مصر دون أن يبرم عقدا أو يوقع على اتفاق (٦٩) .

(٦٧) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ٢٤٣ .

(٦٨) الانطاكي : نفس المصدر ونفس الصفحة .

(٦٩) — : نفس المصدر ونفس الصفحة .

وعندما تولى أبو القاسم الجرجاني الوزارة في مصر سنة ٤١٨ هـ / ١٠٢٧ م ، واصل سياسة مهادنة الروم وتحسين العلاقات معهم حتى يتمكن من اعادة النظام والقضاء على الاضطرابات في الشام (٧٠) ، ويذكر المقرئى أنه قبل تم عقد هدنة بين الخليفة الظاهر والامبراطور قسطنطين الثامن في هذا العام وبموجبها تم ما يلى :

١ - تفردت الخطبة للخليفة الظاهر ببلاد الروم ، وفتح جامع القسطنطينية للمسلمين هناك ، وزود الجامع بالحصر والقناديل ، كما عين مؤذن مقيم به .

٢ - اذن الخليفة الظاهر فى فتح كنيسة القيامة ببيت المقدس ، وسمح لملوك النصارى بإرسال الأموال وما يلزم من آلات وأثاث لاعادة كنيسة القيامة الى ما كانت عليه من فخامة وأبهة (٧١) .

وكان لهذه الهدنة أثرها الطيب على أهل الذمة فى مصر وجميع أقاليم الدولة الفاطمية ، اذ أن كثيرا من النصارى الذين كانوا قد تظاهروا باعتناق الاسلام أيام الخليفة الحاكم بأمر الله قد ارتدوا الى دين النصرانية (٧٢) ، انطلاقا من مبدأ حرية العقائد الدينية لأهل الذمة وفى ظل علاقة طيبة بين الروم والفواطم .

لكن مدينة حلب ظلت دائما مصدر الصراع بين الدولتين . فقد حاول البيزنطيون الاستيلاء عليها سنة ٤٢٠ هـ / ١٠٢٩ م ، وفشلت

(٧٠) المناوى : المرجع السابق ، ص ٢٢٢ .

(٧١) المقرئى : اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ، ص ١٧٦ .

(٧٢) — : نفس المصدر ، نفس الصفحة .

محاولتهم هذه لتمررد بعض قادة الجيش البيزنطى (٧٢) وفى سنة ٤٢٢ هـ / ١٠٣١ م استطاع جيش بيزنطى الاستيلاء على أقاليمية من أملاك الفاطميين (٧٤) ، غير أن أنوشتكين التولى الذى اشتهر بلذبىرى قائد الجند الفاطمى استطاع إسترجاع معظم البلاد الشامية الا مدينة حلب التى طلب حاكمها نصر بن صالح بن مرداس فى جمادى الأولى سنة ٤٢٢ هـ ، حماية الامبراطور البيزنطى رومانوس الثالث ، على أن يدفع اليه خمسمائة ألف درهم سنويا (٧٥) .

وعلى الرغم من استمرار حالة الحرب بين الدولتين وتوتر العلاقات بينهما ، فقد جرت مراسلات بين قائده الجيش الفاطمى فى دمشق ، وبين حاكم أنطاكية لعقد هدنة بين مصر وبيزنطة . وكانت المفاوضات التمهيدية تتوقف بينهما ، بسبب استيلاء والى انطاكية على حصن ينكسراثيل فى شهر رجب سنة ٤٢٣ هـ . وتعقد الموقف ، الا أن المفاوضات استمرت بين الطرفين واشترط الامبراطور البيزنطى - كما يذكر الانطاكى - ثلاثة شروط تكون أساسا لأية هدنة تعقد بين الدولتين وهى :

أولا : « أن يعمر الملك (الامبراطور رومانوس الثالث) كنيسة القيامة ببيت المقدس ، ويجدها من ماله ، ويصير بطريركا على بيت المقدس وأن تعمم النصارى جميع الكنائس الخراب فى بلاد الظاهر » .

ثانيا : « أن لا يتعرض الظاهر لحلب ، ولا يروم هو ولا أحد من ذوى

(٧٢) المناوى : المرجع السابق ، ص ٢٢٢ .

(٧٤) سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٤٥ .

(٧٥) المقرئى : اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ، ص ١٨٠ .

طاعته لقتالها ولا التعرض لها بمكروه ، اذ هي بلد قد تقرر عليه إتاة ويحمل اليه في كل سنة مال الهدنة » .

ثالثا : « أن لا يساعد صاحب صقلية على محاربته للروم ، ولا لغيره من جميع من يروم الفساد في شئ من أعمالهم ، ولا ينجده ، ولا يقويه ، وهو أيضا يلزم له مثل ذلك الشرط » (٧٦) .

وبهذا تكون هناك أسس قوية لقيام واستمرار علاقة صداقة وحسن جوار بين مصر وبيزنطة ، ولا تتعرض مستقبلا لما يفسدها (٧٧) .

وبجانب هذه الشروط السابقة تناولت المفاوضات عدة نقاط على جانب كبير من الأهمية ومنها :

١ - عرض الامبراطور رومانوس الثالث على الخليفة الظاهر ، أن يطلق الامبراطور سراح الأسرى من بلاد الاسلام الذين في قبضة الروم ، في مقابل أن يسمح له باعادة بناء كنيسة القيامة بالقدس .

٢ - التمس الامبراطور أن يصدر الخليفة الظاهر عفوا شاملا عن حسان بن الجراح - الذي كان قد خرج على طاعة الفاطميين ولجأ الى الروم - ، وأن يسمح له بالعودة الى بلده ورد اقطاعاته اليه ، شريطة أن يلتزم بحسن الطاعة والسياسة مع الفاطميين والا تعرض ابن الجراح لما يكره .

(٧٦) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ٧٠ .

(٧٧) — : نفس المصدر ، ص ٢٧١ .

٣ - كما عرض رومانوس الثالث أيضا على الظاهر لاعزاز دين الله ان يدفع اليه حصن شيزر اذ هو من بين عمل المسلمين ، ويعطيه الظاهر لاعزاز دين الله حصن افامية عوضا عنه . اذ هو قريب من بلاد الروم ومجاور لحصونهم ، ان رغب في ذلك (٧٨) .

فقبل الخليفة الظاهر ما شرطه رومانوس الثالث من بناء كنيسة القيامة على نفقته ، ومن تعيين بطريك بمعرفة الامبراطور لبيت المقدس ، ومن تجديد النصارى بقية الكتائس سوى ما كان منها قد عمل مسجدا ، ويكون اطلاق الأسرى المسلمين في بلاد الروم عوضا عن ذلك . كما قبل الظاهر ما اشترطه الامبراطور بعدم تقديم المساعدة والاعانة لأي عدو من أعداء الدولة البيزنطية وبخاصة صقلية ، مع المعاملة بالمثل ، لكنه رفض الشرط الخاص بحلب . واحتج عليه بأنها ثغر جليل من ثغور المسلمين . لا ينبغي أن يكون في حوز الروم ، والتمس أن يحمل ذكرها بالجملة فيما تعقد عليه الهدنة (٧٩) .

ولم ير قبول حسان بن الجراح والعفو عنه ، ولا رغب في أخذ شيزر والتعويض عنها بأفامية (٨٠) .

وكانت حلب هي الصخرة التي تحطمت عليها المفاوضات التي جرت بين الدولتين اذ « لم يذعن رومانوس الملك الى الرجوع عما اشترطه في معنى حلب ، وجزم أنه لا يعقد الهدنة الا عليه ، وترددت

(٧٨) الانتاكي : المصدر السابق ، ص ٢٧١ .

(٧٩) — : المصدر السابق ، ص ٢٧١ .

(٨٠) — : نفس المصدر ونفس الصفحة .

المكاتبة بين الجهتين في هذا المعنى في أيامه » (٨١) . وتمسك كل طرف بموقفه من حلب . مما أدى الى أن رفض رومانوس الثالث عقد معاهدة سلام مع الخليفة الظاهر (٨٢) ، اذ يذكر الانطاكي ان أمر هذه المفاوضات لم يستقر الا بعد ثلاث سنين ونصف وفي عهد الامبراطور ميخائيل الرابع (٨٣) .

ففي سنة ٤٢٧ هـ / ١٠٣٥ م عقدت الهدنة بين الخليفة الظاهر وبين الامبراطور ميخائيل الرابع لمدة عشر سنين متوالية (٨٤) . ويظهر أن الهدف من هذه الهدنة هو ألا يتدخل البيزنطيون في سبيل استيلاء الفاطميين على حلب ، وألا يثير الروم القلاقل ضد الحكيم الفاطمي في بلاد الشام ، أو يحرضوا أمراء الشام على الفاطميين هناك . وقد تحقق هذا الهدف ، عندما رفض الامبراطور البيزنطي مساعدة نصر بن صالح بن مرداس في سنة ٤٢٨ هـ / ١٠٣٦ م في نزاعه مع الفاطميين ، وطلب منه الدخول في طاعة المستنصر ، فاضطر نصر الى استرضاء الفاطميين وكسب ودهم (٨٥) ، ولما وقع النزاع بين الـدزيرى في دمشق وبين نصر بن صالح بن مرداس مرة أخرى

(٨١) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٧١ .

(٨٢) ماجد : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر ، ص ١٤٧ .

(٨٣) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٧١ .

(٨٤) المقرئى : اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ، ص ١٨٢ ، وفي هذا يتفق المقرئى مع الانطاكي بالنسبة للمفاوضات التى سبق الإشارة إليها ، والتى لم يستقر الأمر عليها الا فى عهد الامبراطور ميخائيل الرابع (انظر الانطاكي : المصدر السابق ، ص ٢٧١) .

(٨٥) المقرئى : اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ، ص ١٨٦ .

في سنة ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م وحمل الأول رأس الثاني الى دمشق ،
ودخل حلب ، لم يتدخل الروم (٨٦) . ولهذا فان الجرجرائي وزير
المستنصر بالله قابل ذلك بمحاولة استرضاء الروم ، وتحسين
العلاقات معهم ، وعقد هدنة في تلك السنة بين الخليفة المستنصر
والامبراطور ميخائيل الرابع انعكس أثرها على أهل الذمة في أنحاء
الدولة الفاطمية اذ اتفق على أن يسمح للامبراطور البيزنطي باتمام
اصلاح وتعمير كنيسة القيامة بالقدس مقابل أن يطلق الامبراطور
سراح خمسة آلاف من أسرى المسلمين ، فأخلى الامبراطور سراح
الأسرى ، وأرسل الى بيت المقدس من عمر كنيسة القيامة ، وأغدق
كثيرا من الأموال في اعادة تجديدها وتعميرها (٨٧) ، وهكذا شهدت
الفترة في أوائل عهد المستنصر بالله تحسنا في العلاقات الفاطمية
البيزنطية (٨٨) .

لكن البيزنطيون نقضوا الهدنة في سنة ٤٣٢ هـ / ١٠٤٠ م
وشنت قواتهم الغارات على حلب وأقامية . وأوقعوا هزيمة بالقوات
الفاطمية (٨٩) . غير أن الدزيري ما لبث أن ألحق بالبيزنطيين الهزيمة
فيما بين حماة وأقامية وأسر كثيرا من قواتهم ، وبينهم ابن عم
الامبراطور ، فاضطر الروم الى اللجوء الى طلب الهدنة ، واقتداء
ابن عم الامبراطور مقابل مبلغ كبير من المال وعدد لا بأس به من أسرى

(٨٦) المقرئى : اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ، ص ١٨٧ .

(٨٧) العيني : المصدر السابق ، ج ١٩ ، ورقة ٨٤٨ .

(٨٨) سرور : مضر في عصر الدولة الفاطمية ، ص ١٦٩ .

— : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٤٥ .

(٨٩) المقرئى : اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ، ص ١٨٨ .

المسلمين وبعدها آثر الروم الهدوء مع الفاطميين (٩٠) . وبذل
الامبراطور قسطنطين التاسع جهده في الحفاظ على استمرار العلاقات
الودية بينه وبين القاهرة ، فأرسل في سنة ٤٣٧ هـ / ١٠٤٥ م
هدية ثمينة للخليفة المستنصر ، قيمتها ثلاثون قنطارا من
الذهب (٩١) ، قيمة كل قنطار منها عشرة آلاف دينار عربية (٩٢) ،
وكان من جملة ما بخل وحصان من أحسن الدواب وأغلاها قيمة ،
كل منهما عليه ثوب ديباج رومى منقوش ثقيل ، وخمسون بغلا عليها
مائة صندوق مصفحة بالفضة ، فيها آنية الذهب والفضة ، منها مائة
قطعة بميناء - أى مموهة بالميناء - ، وفيها من الديباج والسندس
والبرسيم والعمائم المعلمة ما يقدر على مثله ، فعرض عنها بمثلها ،
واشتملت هدية مصر الى الامبراطور من الجواهر والمسك والعود
والطراز - عمل تنيس ودمياط - ما هو أكثر قيمة مما بعته (٩٣) .

وتدعيمها لاستمرار العلاقات الودية بين الدولتين ، تجددت
الهدنة بين مصر وبيزنطة سنة ٤٣٩ هـ / ١٠٤٧ م ، وتبادل الخليفة
الفاطمي الهدايا مع الامبراطور البيزنطى حسبما جرت به العادة (٩٤) ،
والتزم الامبراطور بشروط ما عقد بين الدولتين من معاهدات سابقة،
وللحيلولة دون تعكير صفو العلاقات السياسية بين الدولتين ،

(٩٠) ابن الاثير : المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٢٩ .

- المناوى : المرجع السابق ، ص ٢٢٣ .

(٩١) المقرئى : اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ، ص ١٩٤ .

(٩٢) سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٤٥ .

(٩٣) المقرئى : اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ، ص ١٩٤ .

(٩٤) ابن الاثير : المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٤٦ .

وتعميقا لمزيد من العلاقات الودية بينهما ، فان الامبراطور البيزنطى سلم الى المستنصر بالله رسول المعز بن باديس - الذى خلع طاعة الفاطميين سنة ٤٤٣ هـ / ١٠٥١ م - ، وكان فى طريق عودته من بغداد مارا ببلاد الروم ، بينما أرسل المستنصر بالله هدايا عظيمة الى الامبراطور قسطنطين التاسع ، ورد الامبراطور بدوره على الخليفة المستنصر فى عهد وزارة اليازورى سنة ٤٤٤ هـ / ١٠٥٢ م مع رسول ورد من البحر (٩٥) .

وقبل ان عكست طبيعة العلاقات الطيبة بين الفاطميين والروم على المسيحيين فى أنحاء الدولة الفاطمية ، فيذكر القاضى الرشيد بن الزبير فى « كتاب الذخائر والتحف » أن المستنصر بالله الفاطمى سیر مع السفير البيزنطى سفنا من أسطول الشام لمرافقة وحراسة السفير من تنيس الى يافا ، حتى يستطيع أن يصل فى كنيسة بيت المقدس ، ويوصل هدية أنفذها معه الامبراطور الى كنيسة القيامة ، « وكان فى جملتها بدنة من الذهب مرصعة بأنواع الجواهر النفيس الفاخر ، وصليبان من الذهب طول كل واحد منهما ثلاثة أذرع ونصف فى عرض مثلها ، ووزنهما قنطار مكللان بأنواع الياقوت والجواهر ، وصواني كثيرة من الذهب مكللة أيضا بغرائب الجواهر ، وكأسان من الذهب ، ملئ كل منهما بعشرين رطلا خمرًا بالبغدادى . وثريات عدة من الذهب بسلاسلها من الذهب ، فى أوساطها فراخ من البللور ، مكللة بالجواهر ، وستور طوال من الديباج الطميم المغرق بالذهب ، المكلل بالجواهر ، وأشياء ذلك من الآلات فى الكنائس » (٩٦) .

(٩٥) المقرئى : اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ، ص ٢١٤ .

(٩٦) الرشيد بن الزبير : المصدر السابق ، ص ٧٧ .

وانتهز المستنصر بالله الفاطمي قرصه صفاء العلاقات بين الدولتين للعمل على إنعاش الوضع الاقتصادي في مصر ، فأرسل على أثر المجاعة التي حلت بالبلاد ابتداء من عام ٢٤٥ هـ / ١٠٥٣ م الى امبراطور قسطنطين التاسع يطلب منه امداد مصر بالغلل (٩٧) ، ولم يتردد الامبراطور قسطنطين التاسع في الموافقة على ارسال ما طلبه المستنصر بالله من القمح ، غير أنه توفي فجأة في سنة ٤٤٦ هـ / ١٠٥٤ م ، واشترطت الامبراطورية تيودورا التي تولت العرش من بعده عقد معاهدة دفاع مشترك ، تتعهد فيها مصر بمساعدة القسطنطينية ضد أي اعتداء مقابل حصول مصر على الغلال من بيزنطة . ورفض اليازوري الوزير الفاطمي حينئذ مطلب الامبراطورة ، فاضطرت بدورها الى إلغاء صفقة القمح مع مصر ، ومنعت القضاء رسول الفاطميين بالقسطنطينية من الخطبة باسم الخليفة الفاطمي في جامع القسطنطينية . بينما صرحت لرسول العباسيين الذي كان موجودا بالعاصمة البيزنطية بالخطبة للقائم الخليفة العباسي . ورد المستنصر بالله على ذلك بأن أرسل الى كنيسة القيامة بالقدس من أخذ ما فيها من تحف و ذخائر وأثاث ، وأخرج البطريرك منها الى دار مفردة ، وأغلق أبواب الكنائس في مصر والشام ، وطالب الرهبان بالجزية لأربع سنين ، كما زاد على النصاري في الجزية (٩٨) ، ومنع دخول الحجاج المسيحيين الى بيت المقدس (٩٩) ، وأدت كل هذه

(٩٧) العيني : المصدر السابق ، ج ٢٠ ، ورقة ٩٧ ، ٩٨ .

(٩٨) ابن ميسر : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٦ - ٧ .

- المقرئى : اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ، ص ٢٣٠ .

- _____ : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٣٤ .

(٩٩) أسد رستم : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٧٨ .

الاجراءات الى تقييده الحرية الدينية للمسيحيين في مصر والشام والى
توتر العلاقات بين الدولتين .

وهكذا نقضت الهدنة ، وتآزم الموقف بين مصر وبيزنطة ،
وبخاصة عندما علم المستنصر بالله باستعداد البيزنطيين لقتاله ،
فأمر قائده مكين الدولة الحسن بن علي بن ملهم الكتامي بالسير الى
اللاذقية فحاصرها . وجرى محاولات من جانب البيزنطيين لتفادي
الحرب ، لكنها باءت بالفشل أمام قوة حصار الفاطميين للاذقية التي
ما لبثت أن وقعت في أيديهم ، كما عانت القوات الفاطمية في أعمال
أنطاكية ، وواصلت توغلها في بلاد الروم . وبينما كانت الحرب
مستمرة بين الدولتين ، كانت الرسل والمكاتبات تتردد بين الطرفين
حتى تم الاتفاق على وقف القتال بينهما ، على أن يدفع مبلغ نيف
وثلاثين ألف دينار الى مصر كجزية . ولكن عندما علم الروم بمقتل
اليازوري سنة ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م ردوا الجزية الى القسطنطينية
قبل وصولها الى مصر ، بل زينت بلاد الروم ابتهاجا بموته ، كما
تمكن الروم من هزيمة ابن ملهم وأسرهم مع بعض قواته (١٠٠) .

وبموت اليازوري أخذت علاقة مصر بالشام ومن ثم علاقتها
بالروم تضعف نتيجة لزحف السلاجقة على معظم البلاد الشامية ،
وحلولهم محل الفاطميين (١٠١) ، وكان السلاجقة في ذلك الوقت
أشد خطرا على البيزنطيين من الفاطميين الذين أصبحوا يواجهون في
مصر العديد من المشاكل الداخلية والخارجية (١٠٢) .

(١٠١) المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ، ص ٢٢٩ .

(١٠٢) سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٤٦ .

الفاطميون وبلاد النوبة

من الأمور الجديدة بالبحث موقف الفاطميين منذ عهد الخليفة المعز من بلاد النوبة ، فعندما غزا جوهر الصقلي مصر سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٩ م كانت بلاد النوبة تتمتع بالاستقلال التام في عهد ملكها المسيحي « جورج الثاني » ، وكانت المسيحية منتشرة في تلك البلاد انتشارا كبيرا (١٠٣) .

وبعد مجيء الفاطميين الى مصر واستقرارهم بها لم يكن ملك النوبة قد اعترف بسلطان الفاطميين ، لذا رأى جوهر الصقلي أن يمد فتوحاته صوب الجنوب ليمسك النفوذ الفاطمي في النوبة ، ولنشر الاسلام بها على المذهب الشيعي (١٠٤) .

وقد بادر جوهر الصقلي بارسال وفد برئاسة عبد الله ابن أحمد ابن سليم الأسواني - وهو من أهالي أسوان - الى جورج الثاني (جرجس) ملك النوبة ، محملا برسالة رقيقة العبارة ، يدعوه

(١٠٣) حسن ابراهيم وطه شرف : المعز لدين الله ، ص ١٦٢ .

(١٠٤) مصطفى مسعد : الاسلام والنوبة في العصور الوسطى ، ص ١٢٢ .

فيها الى اعتناق الاسلام ودفع الجزية السنوية المعروفة بالبقط (١٠٥) .

وفي هذه الرسالة الى ملك النوبة أوضح جوهر قوة الجيوش الفاطمية المراقبة في جنوب مصر ، وأنه يستطيع أن يعيش في سلام وحسن جوار مع الفاطميين اذا قام بتنفيذ معاهدة البقط (١٠٦) . وقد احتفى ملك النوبة بالوفد الفاطمي ، كما قوبل الوفد بالترحاب في كل مكان زاره بمملكة النوبة (١٠٧) وقبل ملكها دفع الجزية الى الفاطميين ، ولكنه اعتذر عن الدخول في الاسلام وقد قبل جوهر منه ذلك (١٠٨) .

وكانت علاقة النوبة بمصر في عهد جوهر علاقة ودية ، فلم يقيم ملك النوبة باثارة أية اضطرابات أو قلاقل ضد الحكم الفاطمي في جنوب مصر ، كما اتسم عصر الفاطميين في مصر (٣٥٨ - ٥٦٧ هـ / ٩٦٩ - ١١٧١ م) بقيام علاقات حسن الجوار والمسألة مع النوبة . وانعكس أثر هذه العلاقة على المسيحيين في مصر والنوبة على حد سواء ، ففي عهد الخليفة العزيز بالله ، قبل الأنبا فيلوتائوس البطريرك الثالث والستين للكنيسة القبطية وساطة جورج الثاني ملك النوبة لاعادة العلاقات الدينية بين الكنيستين القبطية والحبيشية بعد انقطاعها مدة (١٠٩) ، كما أنه رسم للحبيشة مطرانا بعد أن

(١٠٥) المناوي : المرجع السابق ، ص ٢٢٥ .

— يقتصر : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢ .

(١٠٦) مصطفى سعد : المرجع السابق ، ص ٩٨ ، ٩٩ ، ١٣٢ .

(١٠٧) Lane-Poole : Op. Cit., p. 105.

(١٠٨) مصطفى سعد : المرجع السابق ، ص ٩٩ .

(١٠٩) ساويرس : تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية ، ج ٢ ، ص ١١٢ .

ص ١١٤ .

امتنع خمسة بطاركة من أسلافه عن ترسيم مطران للحبشة لأسباب
سوف نذكرها عند الكلام عن الحبشة (١١٠) .

واستمرارا لهذه العلاقات الطيبة بين النوبة والفاطمين ،
حرص النوبيون على تنفيذ معاهدة البقط ففي سنة ٣٨٣ هـ / ٩٩٣ م
وصل البقط الى مصر من النبوية كالعادة مع فيل وزرافة (١١١) ،
كما وصل البقط أيضا الى مصر بعد ذلك بسنتين (١١٢) .

وعندما ثار أبو ركوته على الخليفة الحاكم بأمر الله تصدى
الخليفة لثورته ودارت بينهما عدة معارك ، كان آخرها عند الموضع
المعروف « بالسبخة » أو « رأس البركة » على مقربة من مدينة
القيوم ، حيث لحقت الهزيمة بأبي ركوته الذي فر الى بلاد النوبة
طلبا للنجاة بنفسه (١١٣) .

ويذكر البعض نقلا عن ابن الأثير أنه كان هناك اتفاق بين
أبي ركوته وجورج الثاني ملك الحبشة على أن يمدّه بقوات لمساعدته
في القتال ضد أعدائه ، وكان ملك النوبة قد أرسل بعض قوات له
انضمت لقوات أبي ركوته واشتركت في المعركة قبل الأخيرة التي
دارت عند الجيزة ، غير أن ملك النوبة لم يرسل له قوات أخرى بعد
هذه المعركة ، ولما حلت الهزيمة بأبي ركوته وانفض عنه أتباعه ، هرب

(١١٠) سميكة : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٤٢ .

(١١١) المقرئى : اتعاظ الحنفا ، ج ١ ، ص ٢٧٩ .

(١١٢) — : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٢٨٥ .

(١١٣) القوصر : بنو الكنز - دراسة تاريخية - رسالة ماجستير من جامعة
القاهرة سنة ١٩٧٠ ، ص ٥٠ .

الى بلاد النوبة (١١٤) ، فأرسل الفضل ابن عبد الله قائد الجيش الفاطمي رسالة الى ملكها في طلبه ، لكن ملك النوبة قد توفي (٣٩٢ هـ / ١٠٠٢ م) (١١٥) ، واستطاع ابنه المسمى روفائيل أن يتدارك الأمر بسرعة ، فقبض على أبي ركة وسلمه الى القاهرة لاعدامه (١١٦) ، وذلك حتى لا تنكشف علاقة أبيه بأبي ركة ، وحتى لا تسوء العلاقة بينه وبين الحاكم بأمر الله (١١٧) . فضلا عن أن موقف روفائيل هذا ، هو تنفيذ لمعاهدة البقط التي نصت على تسليم الهاربين الى النوبة (١١٨) .

ولقد كانت المراسيم التي أصدرها الحاكم بأمر الله ضد أهل الذمة في مصر سببا في هجرة الكثيرين منهم الى النوبة ، وبخاصة بعد أن سمح لهم بذلك ، فاتجه الكثير منهم الى أقصى الصعيد ، وواصل بعضهم السير جنوبا حتى وصلوا الى النوبة واستقروا بها (١١٩) .

ومن الجدير بالذكر أن مستقبل الكنيسة النوبية قد تحدد بطبيعة العلاقات بين الكنيستين المصرية والنوبية ، غير أن هذه

(١١٤) — : المرجع السابق ، ص ٥١-٥٠ .

(١١٥) أبو صالح الارمني : المصدر السابق ، ص ١٢٠ ، ١٢١ .

(١١٦) ماجد : الحاكم بأمر الله ، ص ١٦١ .

(١١٧) القوصي : المرجع السابق ، ص ٥١ .

(١١٨) ماجد : الحاكم بأمر الله ، ص ١٦١ .

(١١٩) زاهر رياض : تاريخ اثيوبيا ، ص ٦٤ .

العلاقات لم تلبث أن خضعت لعوامل سياسية ، فتأثر مركز الكنيسة النوبية تبعاً لسياسة الخلفاء الفاطميين في مصر ازاء أهل الذمة ، فقد اشتملت القوانين الصارمة التي أصدرها الحاكم بأمر الله سنة ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م ضد أهل الذمة على أوامره بمنع سفر الأساقفة المصريين الى النوبة والحبشة - كما منع ارسال خطابات بطريرك الكنيسة المرقسية السنوية الى كنيسة النوبة والحبشة لمدة أعوام ، وقد ترتب على ذلك أن أغلقت تلك الكنائس أبوابها (١٢٠) ، بل اننا نجد ملك النوبة يتراسل مع ملك الحبشة بشأن قبض مصر (١٢١) .

وعلى الرغم من مبالغة بعض المصادر في عدد ما هدمه الحاكم بأمر الله من أديرة وكنائس في مصر وبخاصة كنائس وأديرة الروم الملكانية الا أن الكثير من الكنائس والأديرة في مصر لم تهدم خوفاً على مساجد المسلمين في البلاد المسيحية لاسيما في النوبة والحبشة اللذين كان بهما عدد كبير ممن يعتنقون الاسلام (١٢٢) . واذا كان الفاطميون قد أرسلوا بعض الحملات التأديبية الى بلاد النوبة عندما كان ملوكها ينتفضون الهدنة ان يسيئون للمسلمين هناك أو يهاجمون أسوان ، فان الفاطميين حرصوا على صفاء علاقاتهم بالنوبة حرصاً على حياة المسلمين بها ، وقد تبودلت الهدايا بين البلدين وبخاصة في عهد الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله . ففي ربيع الأول سنة

(١٢٠) أبو صالح الأرمني : المصدر السابق ، ص ١٣٤ .

- مصطفى سعد : المرجع السابق ، ص ١٠٠ .

(١٢١) ماجد : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر ، ص ٢٣٤ .

(١٢٢) — : الحاكم بأمر الله ، ص ١٠٠ .

٤١٥ هـ ، وصلت الى مصر هدايا من بلاد النوبة فيها عبيد واماء
وخشب أبنوس وزرافات (١٢٣) .

وفي خلافة المستنصر بالله أرسل ملك النوبة الى الأنبا
خريستوذولس - البطريك السادس والستين للكنيسة القبطية -
يرجو منه رسامة أسقف للكنيسة النوبية - التي توفي أسقفها - ،
وحرصا على الصلات الطيبة بين الكنيسة المصرية وأهل النوبة بادر
البطريك باختيار راهب ممتاز ورسمه أسقفا وأرسله الى النوبة على
وجه السرعة (١٢٤) ، كما أرسل البطريك في سنة ٤٤٢ هـ / ١٠٥٠ م
اثنين من أساقفة الكنيسة المصرية الى ملك النوبة المسمى سلجون
لتدشين كنيسة شيدها الملك في بلاده . وقد أحسن ملك النوبة
استقبال المبعوثين ، وبعد انتهاء مهمتهما أرسل معهما مالا أوصلاه الى
البطريك (١٢٥) .

وعندما تولى اليازورى الوزارة - فى عهد المستنصر بالله -
أرسل فى سنة ٤٤٣ هـ / ١٠٥١ م حملة الى بلاد النوبة ، وفرض
عليهم مضاعفة البقط وهو ما استقر عليه الأمر (١٢٦) ، على الرغم
من أن المقرئ لم يذكر الأسباب التى أدت الى ارسال هذه
الحملة (١٢٧) ، وقد يكون فى حادث الاعتداء على البطريك

(١٢٣) المقرئ : اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ، ص ١٤٢ .

(١٢٤) اريس حبيب : قصة الكنيسة القبطية - الجزء الثالث . ص ٨٩ .

(١٢٥) سميكة : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٤٢ .

- البراوى : المرجع السابق ، ص ٢٣٥ .

(١٢٦) المقرئ : اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ، ص ٢٢٢ .

(١٢٧) المناوى : المرجع السابق ، ص ٢٣٥ .

خرستوذولس ما يشير الى أسباب هذه الحملة ، ذلك أن بعض المصادر تذكر أن اليازورى قبض على البطريك المذكور وسجنه وصادر أمواله واضطهد النصارى بسبب ما ترامى اليه من أن البطريك يحرض ملك النوبة على عدم دفع التزاماته للخليفة ، ويشجعه على قطع العلاقات التجارية مع المسلمين ، وعدم ارسال الجزية السنوية كل عام (١٢٨) . وان كانت بعض المصادر تذكر أن البطريك أرسل الى ملك النوبة - الذى امتنع عن ارسال الجزية الى مصر - يوصيه بتنفيذ معاهدة البقط ، حرصا على العلاقات الطيبة بين البلدين ، وتدعيما لمركز البطريك والأقباط في مصر ، وحفاظا على الصلات القوية بين الكنيستين المصرية والنوبية (١٢٩) .

وفي وزارة بدر الجمالى كانت العلاقات طيبة بين مصر والنوبة، فعندما ثار الزعيم العربى كنز الدولة محمد فى أسوان ولجأ الى بلاد النوبة ، بادر بدر الجمالى بارسال الشريف سيف الدولة ومعه الأسقف « مرقوره » Mercure الذى يعرف بالوعواع ، والذى كان يحمل رسالة توصية من البطريك القبطى الى ملك النوبة ، يطلبان منه باسم الخليفة تسليم كنز الدولة الى السلطات المصرية فما كان من ملك النوبة الا أن استجاب - لاعتبارات سياسية ودينية - لهذا الطلب وسلمهما كنز الدولة سنة ٤٧٤ هـ تقريبا ، حيث اعدم بالقاهرة ، بل ان اثنين من أخوة كنز الدولة محمد ، طلبا من ملك

(١٢٨) بتشر : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٤٧ .

- مصطفى مسعد : المرجع السابق ، ص ٩٩ .

(١٢٩) اريس حبيب : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٨٩ .

النوبة سالمون أن يتوسط لهما عند بدر الجمالى فى الصفيح عنهما ،
وتقديرا لموقف ملك النوبة الطيب مع بدر الجمالى قبل بدر الجمالى
وساطته وعفا عن بنى كنز (١٣٠) .

وفى وزارة بدر الجمالى حدث أيضا ابن وشى أحد الوشاة الى
بدر الجمالى أن ملك النوبة - بايعاز من البطريك خرسستوذولس -
قد هدم جميع مساجد المسلمين هناك ، فما كان من بدر الجمالى الا أن
أرسل مبعوثا ليتحقق من صحة النبأ ، وبعد حين عاد الرسول وقد
اتضح أن الأمر أكذوبة (١٣١) ، فحكم على صاحبها بالاعدام وبرئ
البطريك . وأغلب الظن أن ملك النوبة قد استخدم نفوذه فى قصر
الخلافة فجاء التحقيق فى صالح البطريك (١٣٢) .

وكثيرا ما كان النوبيون يلجأون الى السلطات المصرية كلما
حدث خلاف بينهم وبين بطارقة الكنيسة المرقسية بمصر ، كما حدث
عندما أرسل الملك باسيل (١٠٨٩ م) وقدما يضم ابنه الى بدر
الجمالى ، يلتمس منه وساطته ومساعدته لتعين الكنيسة المصرية هذا
الابن رئيسا دينيا للنوبة (١٣٣) .

كما حرص بدر الجمالى على استمرار علاقته الطيبة ببلاد
النوبة . فعندما علم أن والى قوص قبض على ملك النوبة - أثناء

(١٣٠) عطية القوصي : المرجع السابق ، ص ٥٨ ، ٥٩ .

(١٣١) البراوى : المرجع السابق ، ص ٢٣٦ .

(١٣٢) مصطفى مسعد : المرجع السابق ، ص ٩٩ .

(١٣٣) البراوى : المرجع السابق ، ص ٢٣٦ .

- المناوى : المرجع السابق ، ص ٢٣٦ .

زيارته لكنيسة أسوان - أمر بإرساله الى القاهرة معززا مكرما حيث
أنعم عليه بالهدايا القيمة ، وقد أدركت الوفاة ملك النوبة وهو في
مصر قبل أن يعود الى بلاده (١٣٤) .

وكان للكنيسة المصرية الهيمنة على الكنيسة النوبية ، اذ تقلد
رجال مصر من مبعوثي الكنيسة المصرية قمة وظائف الجهاز الكنسى
فى مملكة النوبة وكانت الكنيسة النوبية من أهم مصادر تمويل
الكنيسة المصرية وبطاركتها ، وبخاصة ابان الأزمات المالية التى كانوا
يتعرضون لها لسبب أو لآخر (١٣٥) .

وهكذا يتضح لنا أن العلاقة بين كنيسة الاسكندرية وكنيسة
النوبة كانت تخضع لعوامل سياسية ، وأن مركز الكنيسة النوبية
كان يتأثر تبعا للتدخل من جانب السلطان الحاكمة فى مصر (١٣٦) .
كما استغلت السلطات المصرية مركز ونفوذ بطريرك الكنيسة المصرية
فى بلاد النوبة فى الوصاية لدى ملوك النوبة بالمسلمين فى
بلادهم (١٣٧) .

(١٣٤) المناوى : المرجع السابق ، ص ٢٣٦ .

(١٣٥) مصطفى مسعد : المرجع السابق ، ص ١٠٠ .

(١٣٦) — : نفس المصدر ونفس الصفحة .

(١٣٧) أبو صالح الأرمنى : المصدر السابق ، ص ١٣٤ .

الفاطميون والحبشة

أما عن علاقة الدولة الفاطمية بالحبشة فهي من الأهمية بمكان ، ذلك أن الحبشة كانت لها علاقات وروابط قوية مع مصر وبخاصة تلك الصلات الدينية الوثيقة بين الكنيسة المصرية وأهالي الحبشة ، الذين كانوا يدينون بالنصرانية ، ويعتقدون مذهب اليعقوبية (١٣٨) ، كما كان على رأس الكنيسة الحبشية أسقف مصرى يعينه البطريرك القبطى بناء على طلب ملك الحبشة وكان الأسقف يقوم بدوره برسم القسس والشمامسة من أهل البلاد (١٣٩) .

وعندما جاء الفاطميون الى مصر كانت العلاقات الدينية بين الكنيسة القبطية والحبشة مقطوعة منذ مدة طويلة ، فلم يعد البطاركة والأقباط يرسلون الأساقفة اليها ، ذلك أن الملكة جوديت التى تولت عرش الحبشة لمدة أربعين عاما (٩٤٠ - ٩٨٠ م) ،

(١٣٨) المقرئى : الامام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام ، ص ٢ .

- زاهر رياض : كنيسة الاسكندرية فى المرقيا ، ص ١٦٨ .

(١٣٩) أبو صالح الارمنى : المرجع السابق ، ص ١٢٢ ، ١٢٤ .

- زاهر رياض : كنيسة الاسكندرية فى المرقيا ، ص ١٦٨ .

والتي تروى الأساطير أنها كانت يهودية الديانة ، كانت قد قطعت
علاقتها الدينية بمصر ، رغبة منها في نشر ديانتها في مملكتها ،
فخربت الكنائس ونهبتها ، واضطهدت رجال الدين المسيحي
وقتل كثيرا منهم ، واستعانت ببعض القبائل الموالية لها لاراقة
مزيد من دماء المسيحيين هناك . كما أمنت في هدم الأديرة
ونهب محتوياتها ، واتلاف الكتب الدينية بها وحرقتها ، والقضاء
على رجال الدين المسيحي والرهبان (١٤٠) . على أنه بوفاتها
عمل خليفتها المسمى تكلاهيمانوت (٩٨٠ - ٩٩٥ م / ٣٧٠ -
٩٨٥ هـ) على إعادة الحال الى ما كان عليه ، وحياء وحماية
الديانة المسيحية في بلاده ، فرد الى الكنائس والأديرة حريتها
وما أخذ منها (١٤١) ، وأرسل الى جورج الثاني ملك النوبة - الذي
كانت علاقته حسنة بالخليفة الفاطمي العزيز بالله آنذاك - رسالة
يصف له فيها الدمار الذي لحق بالحشمة ، وأن ما أصابهم كان
عقابا لهم على مسلك أسلافه مع الأنبا بطرس أسقف كنيستهم الذي
رسمه لهم الأنبا قزمان الثالث (البطريك الثامن والخمسون) ،
ثم طلب تكلاهيمانوت من ملك النوبة أن يتوسط لدى البطريك
فيلوتاوس (٩٧٠ - ٩٩٥ م / ٣٦٠ - ٣٨٥ هـ) لاعادة العلاقات
الدينية بين الكنيسة المصرية والحشمة (١٤٢) ، وقال له في
رسالته : « استعطف لنا الأب البطريك ليرسم لنا أسقفنا
رأفة بنا ، حتى لا تتلاشى المسيحية من بلادنا ، اذ لنا الآن ما يربو

-
- (١٤٠) — : تاريخ اثيوبيا ، ص ٦٣ .
(١٤١) زاهر رياض : المرجع السابق ، ص ٦٤ .
(١٤٢) — : نفس المرجع ، ونفس الصفحة .
- سميكة : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٤٨ .

على ستين سنة هائمين بلا راع ، فقد رفض خمسة من الباباوات الاسكندريين المتعاقبين على السدة المرقسية أن يرسموا لنا أسقفا ، وأدى حرماننا هذا الى نقص متزايد فى عدد الكهنة ، لأنه لا يوجد بيننا من يملك سلطان رسامة كهنة جدد عند فياحة أى كاهن فكانت النتيجة وبالا علينا ، وتدهورت حياتنا الروحية ، (١٤٣) .

وما أن وصلت رسالة جورج الثانى ، حتى بادر باستخدام نفوذه فى قصر الخليفة العزيز بالله ، وعلاقته الطيبة بالكنيسة المصرية ، لاعادة العلاقات الطبيعية بين الكنيسة الام وكنيسة الحبشة ، فقبل البطريرك وساطة ملك النوبة ، ورسم راهبا من دير أبى مقار اسمه دانيال ، وأرسله أسقفا لكنيسة الحبشة . حيث استقبله أهلها استقبالا حماسيا فى سرور بالغ (١٤٤) .

وفى خلافة الحاكم بأمر الله انقطعت العلاقات مرة أخرى بين الكنيسة المصرية والحبشة ، ذلك أن الحاكم بأمر الله فى فترة تشدده فى سياسته ازاء أهل الذمة ، منع سفر الأساقفة المصريين الى الحبشة ، كما منع الأنبا زخاريا البطريرك الرابع والستين من مكاتبة ملوك النوبة والحبشة كما جرت به العادة سنويا ، مما أدى الى أن أغلقت كثير من كنائس الحبشة أبوابها بل أن الخليفة الحاكم بأمر الله عندما سلك مسلكا متشددا مع نصارى مصر وفرض عليهم قيودا اجتماعية ودينية صارمة ، جعل الكثيرين منهم يهاجرون الى النوبة جنوبا ، وأمعن بعضهم فى السير قاصدا الحبشة ، وكان يحكمها فى ذلك الوقت أحد ملوكها المسمى « لا ليبالا » ، الذى اتخذ لنفسه حين اعتنل العرش اسم

(١٤٣) اريس حبيب : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٩ .
(١٤٤) ساويرس : تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية ، ج ٢ ، ص ١٦٤ .

« جبراما سقال » (ومعناها : خادم الصليب) ، وعرف عنه اهتمامه برجال الدين المسيحي ، وتعمير الكنائس والأديرة ، فأحببه الأحباش ، ورفعوه بعد موته الى مرتبة القديسين . وفي تلك الأحوال الطيبة التي سادت بلاد الحبشة ، كانت هجرة كثير من أقباط مصر وخاصة عندما سمح لهم الحاكم بأمر الله بذلك . وكان بينهم عدد كبير من الصناع ، والعمال المهرة ، الذين استعان بهم « لا لبيالا » في اقامة كثير من المباني والمنشآت وبخاصة الكنائس التي ما زال بعضها يشهد ببراعة الفنان والصانع المصري . كما كان من الطبيعي أن يتصاهر هؤلاء القبط مع الأحباش فتزوجوا منهم ، واختلطوا بالوطن من أهل البلاد (١٤٥) ، ونقلوا اليهم كثيرا من العادات والتقاليد المصرية (١٤٦) .

على أنه يجدر بنا أن نشير الى أن الحاكم بأمر الله ، عندما خفف من غلواء سياسته وسمح لأقباط مصر بالهجرة الى بلاد الروم والنوبة والحبشة ، وأبقى على كثير من الكنائس والأديرة القبطية دون هدم فانه ولا شك قد اتخذ هذا الموقف خوفا على المساجد التي في بلاد النصارى لاسيما في الحبشة التي كان بها عدد كبير من المسلمين (١٤٧) الذين يدفعون الجزية لملكها ، ويعيشون تحت سلطانه (١٤٨) .

(١٤٥) زاهر رياض : تاريخ اثيوبيا ، ص ٦٤ .

(١٤٦) عن هذه العادات والتقاليد التي نقلها اقباط مصر الى الحبشة ، راجع

رياض : تاريخ اثيوبيا ، ص ٢٢٦ - ٢٢٧ .

(١٤٧) ماجد : الحاكم بأمر الله ، ص ١٠٠ .

(١٤٨) أبو صالح الأرمني : المصدر السابق ، ص ١٣٤ .

بل ان السلطات الحاكمة في مصر كانت تطلب من البطريرك
مكاتبة ملك الحبشة بما يتمتع به النصارى في مصر من حرية في
ممارسة حياتهم وشعائهم في ظل سياسة التسامح الديني التي
سار عليها الخلفاء الفاطميون ، كما يطلبون منه أن يوصى الملك
الحبشي بأن يشمل بعطفه المسلمين الذين تحت رعايته (١٤٩) .

(١٤٩) : المصدر السابق ، ص ١٢٤ .

ملحق رقم ١

سجل للحاكم بأمر الله

لرهبان دير القصير (١)

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين .
هذا كتاب من عبد الله ووليه المنصور أبي علي ، الامام الحاكم
بأمر الله أمير المؤمنين ، لسليمان بن ابراهيم الراهب ، بما رآه
من انعامه عليه ، واسعافه بما رغب اليه من الاذن له في إعادة
عمارة الدير المعروف بالقصير بطرا من جبل فسطاط مصر الى ما كان
عليه قبل هدمه ، وتمكين الرهبان سكناه والمقام فيه على عادتهم ،
والجري على ما سلف من عبادتهم وصلواتهم واقامة سنة ديانتهم ،
والفسح في اجتماع من يطرقه من أهل ملتهم ، وازالة الاعتراضات
عنهم ، ومنع الأذى والتسلط عليهم ، وكف التبسط والحيث لهم ،
ورد الأوقاف والأمالك التي كانت محبسة عليه ، ومنسوبة اليه ،
من ضيعة ، ومزرعة ، ومنية ، وأرض ، وحصنة ، ودار ،
وقيسارية ، وحمسام ، وعرصة ، وحانوت ، وفاخورة ، ونخيل ،

(١) نقلا عن الانتاكي : المصدر السابق ، ص ٢٢٩ .

وبستان ، وشجرة مثمرة ، وجنان بمصر وأعمالها من جميع بلاد
المملكة أقطارها وأطرافها ، وتسليم ذلك الى هذا الراهب ، ليتولى
جداه ويحوز نفعه وجناه ، ويصرفه فى مصالح هذا الدير والمقيمين
فيه والقاصدين اليه ، ويبسط يده فى تدبيره ومن يسببه فى جمعه
وصيائنه حقوق بيت مال المسلمين منه ، ويظهره من درنه ،

والوزر عنه ، والمسامحة بما يجب على ذلك من خراج ، وعشر وغرم ،
ورسم فى سائر دواوين الحضرة المحلولة والمحبسة ، وإزالة التأول
عنه والاضرار بسببه ، والتتبيع له فى هذا الوقت ، وما يأتى بعده
من الأوقاف على استقبال تاريخ هذا السجل ، وفاء بالذمة ، وجزاء
على مناصحتهم ومضامنتهم الملة ، لا يغيره كرحين ، ولا يحيلة من
الأحقاب والسنين ، فمن قرأه أو قرئ عليه من الأولياء والولاة ،
ومتولى الدواوين ، والضمنا ، والمتصرفين فى الأعمال والأحوال ،
فليعلم ذلك من أمير المؤمنين ورسمه وليعمل عليه وبحسبه ، وكتب
فى شهر ربيع الآخر سنة احدى عشرة وأربعمائة ، وليقرأ هذا
المنشور فى يد متخذه حجة له بمضمونه ويثبت بحيث مثله ان
شاء الله .

سجل للحاكم بأمر الله

الى نقفور بطريرك بيت المقدس (٢)

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين .

أمر أمير المؤمنين بكتابة هذا المنشور لنقفور بطريرك بيت المقدس بما رآه من اجابة رغبته واطلاق بغيته من صيانتة وحياطته والذب عنه ، وعن أهل الذمة من نحلته ، وتمكينهم من صلواتهم على رسومهم في افتراقهم واجتماعهم وترك الاعتراض لمن يصل مناهم في عرصة الكنيسة المعروفة بالقيامة وخربتها على اختلاف رأيه ومذهبه ومفارقته في دينه وعقيدته واقامة ما يلزمه في حدود ديانته وحفظ المواضع الباقية في قبضته داخل البلد وخارجه والديارات وبيت لحم ولد ، وما برسم هذه المواضع من الدور المنضوية اليها والمنع من نقص المصلبات بها والاعتراض لاحتباسها المطلقة لها ومن هدم جدرانها وسائر أبنيتها احسانا من أمير المؤمنين اليهم ودفع الأذى عنهم وعن كافتهم وحفظا لذمة الاسلام فيهم ، فمن قرأه أو قرىء عليه من الأولياء ، والولاة ، ومتولى هذه

(٢) نقلا عن الانطاكي : المصدر السابق ، ص ٢٣٠ .

النواحي وكافة الحماية ، وسائر المتصرفين في الأعمال ، والمستخدمين على سائر منازلهم ، وتفاوت درجاتهم ، واستمرار خدمتهم أو تعاقب نظرهم في هذا الوقت وما يليه ، فليعلم ذلك من أمر أمير المؤمنين ورسوله ، ويعمل عليه وبحسبه ، وليحذر من تعدى حده ومخالفته حكمه ، ويتجنب مباينة نصه ومجانبته شرحه ، وليقر هذا المنشور في يده حجة لودعه ، يستعين بها على نيل طلبته وإدراك بغيته إن شاء الله تعالى .

وكتب في جمادى الأخرى سنة إحدى عشرة وأربعمائة .

سجل للحاكم بأمر الله

لنصارى مصر (٣)

« بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين .

هذا كتاب من عبد الله ووليه المنصور أبى على ، الامام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين ، ابن الامام العزيز بالله أمير المؤمنين ، لجماعة النصارى بمصر ، عندما أنهوا اليه الخوف الذى لحقهم ، والجزع الذى هالهم فأقلقهم ، واستذراءهم بظل الدولة ، وتحريمهم بحضور الحضرة ، بما رآه وأمر به من تكميل النعمة عليه بتوحيه لهم ذمة الاسلام وشرعه ، من تصيرهم تحت كنفه ، بحيث تصفو لهم موارد الطمأنينة ، وتصفوا عليهم ملابس السكون والدعة ، واجابتهم الى ما سألوا فيه من كتب أمان لهم يخلد حكمه على الأحقاب ، ويتوارثه الأخلاف منهم والأعقاب ، فأنتم جميعا آمنون بأمان الله عز وجل ، وأمان نبيه محمد خاتم النبيين ، وسيد المرسلين صلعم وعلى آله الطاهرين ، وأمان أمير المؤمنين على بن أبى طالب سلام الله عليه ، وأمان الأئمة من آبساء أمير المؤمنين

(٣) نقلا عن الانتفاكى : المصدر السابق ، ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

سلام الله عليهم ، هذا على نفوسكم ، ودمائكم ، وأولادكم ، وأموالكم وأحوالكم ، وأملاككم وما تحويه أيديكم ، أمانا صريحا ثابتا ، وعقدا صحيحا باقيا ، فتقوا به واسكنوا اليه ، وتحققوا أن لكم جميل رأى أمير المؤمنين وعاطفته ، ونصرته تحميكم ، وعصمته تقيكم ، لا يقدم عليكم بسوء أحد ، ولا تتطاول اليكم بمضرة يسد الا كانت زواجر أمير المؤمنين مقصرة من باعه ، وعظيم انكاره مضيقا فيه من ذراعه ، والله عون أمير المؤمنين على ما تعتقدونه من صلاح واصلاح لسكان أقطار مملكته ، ومد له وسيلة الشواء في كنف دولته ، وإياه يستشهد على ما أمضاه من أمانه لكم ، وعهده الذي يشرفه طرفكم ، وكفى بالله شهيدا وليقرر في أيديهم حجة بما أسبغ من النعم عليهم ، ان شاء الله •

• وكتب في شعبان سنة احدى عشرة وأربعمائة •

سجل من الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله

للرهبان القبط (٤)

« عماراتكم ولا تطالبوا بحشد في حرب ولا بخروج واعزاز
كل راهب يخرج منكم الى الضياع للتعيش فيها وقضاء حاجات من
وزاه منكم وألا تلزموا عما يحمل النصارى من الميرة وما يجسرى
مجرهاها مكسا ولا غرما قل أو جل وأن تحفظوا فيما لكم من زرع
وغلة وعوامل في سائر النواحي وألا يعترض ما يخلفه من يموت من
رهبانكم خارجا عن دياراتكم في حال ترده الى الريف وغيره للتصرف
في ماosبكم من كل شيء يملكه ليكون جميعه عائدا على اخوته في
رهبانيته دون كل قريب له ونسيب غيرهم وان الامام المعز لدين الله
والامام العزيز والامام الحاكم بأمر الله قد حفظ الله ارواحهم تقدموا
بكتب سجلات بامضاء ذلك كله لكم وسألتم كتب سجل بتجديد
ما كانت أمضته لكم الأئمة ، وتوكيد ما دعتكم لكافتكم من الحرمة وحفظ
ما لكم من هذه الموات والأذمة فأمر أمير المؤمنين بكتب هذا السجل
المنشور ، لحملكم على مقتضى النص المذكور ، وموجب الشرح

المسطور واقرار فى أيديهم حجة بذلك باقية على مر الأيام والدهور،
حتى لا يعترضكم معترض بما يزيل هذا الانعام عن حده أو يتأول
فيه تأول بما يصرفه عن وجهه وقصده ، والذب عنكم .

فمن قرأه أو قرئ عليه من الأولياء والولاة ، والمتصرفين فى
الأموال والجباة ، وسائر عبيد الدولة وخدمها على اختلاف
طبقاتهم ، وتراجع درجاتهم ، فليعلمه من أمر أمير المؤمنين ورسمه
وليعمل عليه وبحسبه ان شاء الله ، وكتب فى المحرم سنة
خمس عشرة وأربع مائة .

وصلى الله على جدنا محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين
وآله الطاهرين الأئمة المهديين وسلم تسليما حسينا الله
ونعم الوكيل ، .

**رسالة ملك الحبشة الى جورج ملك النوبة للتدخل لاعادة
العلاقات بين كنيسة الحبشة والكنيسة المرقسية (٥)
من حياة البطريرك فيلاتاوس وهو العدد الثالث والستون**

٩٧٠ - ٩٩٥ م

وفى أيامه (البطريرك فيلاتاوس) أنفذ ملك الحبشة الى
ملك النوبة كتابا ، واسمه جرجس ، وعرفه ما أدبه الرب به هو
وأهل كورته وهو ، أن امرأة ملكة على بنى الهيبة ثارت عليه وعلى
كورته وسببت منها خلق كثير وأحرقت مدن كثير وأخسرت البيع
وطردته من مكان الى مكان وأن الذى لحقه جزى (جزاء) عما كان
الملك الذى قبله فعله مع المطران فى أيام الأب أنبا قزما مما شرحناه
أولا من تزويره وكذبه ، وقال له فى الكتاب الذى أنفذه له :
أحب أن تساعدنى وتشاركنى فى التعب منجل (من أجل) الله
ومن أجل اتفاق الأمانة ، وتكتب كتاب من جهتك الى الأب البطرك

(٥) ساويرس : تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية والمعروف بسير البيعة المقدسة

المجلد الثانى ، الجزء الثانى ، ص ١١٤١١٢ .

— مصطفى سعد : الاسلام والنوبة فى العصور الوسطى ، ص ٢٧٠ .

بمصر تسله أن يحللنا ويحلل بلادنا ويصل علينا ليزيل الله عنا
وعن أرضنا هذا البلاء وينعم لنا بأن يقسم لنا مطران كما جسرت
عادة آباينا ويدعى لنا بأن يزيل الله غضبه عنا . وذكرت لك أيها
الأخ ذلك خوفا من أن ينقرض ويبطل دين النصرانية من عندنا لأن
هو ذا ستة بطارقة قد جلسوا ولم يلتفتوا الى بلادنا بل هي سايبة
بلا راعي ، وقد ماتوا أساقفتنا وكهنتنا ، وقد خربت البيع وعلمنا
أنه بحكم حق نزل علينا هذا البلاء عوضا مما فعلناه بالمطران .
فلما وصلت الكتب الى جرجس ملك النوبة ووقف عليها أنفذ من
جهته كتبنا ورسلا الى البطرك فيلاتاوس وشرح له فيها جميع ما ذكره
ملك الحبشة وساله أن يتراف على شعبه فأجاب سواره ورسم لهم
راهبا من دير أبو مقار اسمه دانيال وأنفذه لهم مطرانا فقبلوه بفرح
وأزال الله عنهم الغصب وأبطل أمر الامراة التي قامت عليهم .

قائمة المصادر

(١) المخطوطات :

- ١ - ابن أبيك (توفي بعد ٧٣٥ هـ / ١٣٣٥ م) :
- « كنز الدرر وجامع الغرر » ، الجزء السادس ، بعنوان
« الدرة المضيئة في أخبار الدولة الفاطمية » مخطوط بدار الكتب
المصرية برقم ٢٥٧٨ تاريخ .
- ٢ - بيبرس الدوادار (ت ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥ م) :
- « زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة » ، مخطوط بمكتبة
جامعة القاهرة الجزء السادس برقم ٢٤٠٢٧ .
- ٣ - ابن ظافر (ت ٦٢٣ هـ / ١٢٢٦ م) :
- « أخبار الدول المنقطعة » ، مخطوط مصور بدار الكتب
المصرية برقم ٨٩٠ تاريخ .
- ٤ - سبط بن الجوزي (ت ٦٥٤ هـ / ١٢٥٧ م) :
- « مرآة الزمان في تاريخ الأعيان » ، الجزءان : الحادى عشر
والثانى عشر ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٥٥١ تاريخ .

٥ - أبى السرور البكرى (ت ١٠٠٥ - ١٠٠٦ هـ / ١٥٩٦ - ١٦٥٠ م) :

- « عيون الأخبار ونزهة الألبصار » ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٧٢ تاريخ ، بمكتبة مصطفى كامل باشا .

٦ - رسائل الحاكم بأمر الله ، كتبها دعاة الفاطميين ، ولا سيما حمزة بن على وهى مخطوطة بدار الكتب المصرية ، برقم ٣٧ ، ٣٨ ، ١٣٣ عقائد ونحل .

٧ - العيني (ت ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م) :

- « عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان » ، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية ، برقم ١٥٨٤ تاريخ ، الجزء التاسع عشر .

٨ - القضاعى (ت ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م) :

- « عيون المعارف وفنون أخبار الخلايف » ، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية برقم ١٧٧٩ تاريخ .

٩ - ميخائيل « الأنبا » (أسقف تنيس - عاش فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى) :

- « سير البيعة المقدسة » والمعروف « بذيل سبيل الأباء البطارقة » الجزء الثالث ، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية برقم ٦٤٣٤ تاريخ .

١٠ - النويرى (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م) :

- « نهاية الأرب فى فنون الأدب » ، مخطوط بدار الكتب

المصرية برقم ٥٤٩ معارف عامة ، الجزء السادس والعشرون .

(ب) المصادر العربية المطبوعة

١١ - الأبشيهي (ت ٨٥٠ هـ / ١٤٤٦ م) :

- « المستطرف في كل فن مستظرف » ، القاهرة ١٣٨٥ هـ ،
جزءان .

١٢ - ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٨ م) :

- « الكامل في التاريخ » ، مصر ١٣٥٣ هـ ، الجزءان
الثامن والتاسع .

١٣ - ابن أبي أصيبعة (ت ٦٦٧ هـ / ١٢٧٠ م) :

- « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » ، تحقيق د . نزار
رضا ، بيروت ١٩٦٥ م .

١٤ - ابن أياس (ت ٩٣٠ هـ / ١٥٢٣ م) :

- « تاريخ مصر » المعروف بـ « بدائع الزهور في وقائع
الدهور » ، بولاق ١٣١١ هـ ، الجزء الأول .

١٥ - التطيلي (بنيامين بن يونة التطيلي الأندلسي) :

- « رحلة بنيامين » (٥٦١ هـ / - ٥٦٩ هـ) ، ترجمة
وتعليق عزرا حداد ، بغداد سنة ١٣٦٤ هـ / ١٩٤٥ م .

١٦ - ابن الجوزي (أبو الفرج ، ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠١ م) :

- « المنتظم في تاريخ الملوك والأمم » ، حيدر أباد سنة
١٣٥٧ - ١٣٥٨ هـ ، الأجزاء من ٥ - ١٠ .

١٧ - ابن جبير (ت ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م) :

- « رحلة ابن جبير » ، تحقيق د . حسين نصار ،
القاهرة ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٥ م .

١٨ - ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٣ هـ / ١٤٤٩ م) :

- « رفع الأحاد عن قضاة مصر » ، القسم الثاني ، تحقيق
د . حامد عبد المجيد ، القاهرة ١٩٦١ م .

١٩ - ابن حوقل (نبغ في سنة ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م) :

- « كتاب صورة الأرض » ، مطبعة دار الحياة ببيروت .

٢٠ - ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ - ١٤٠٦ م) :

- « العبر وديوان المبتدأ والخبر » ، طبعة بولاق ١٢٨٤ هـ
الجزء الرابع .

٢١ - ابن خلكان (ت ٦٨١ هـ / ١٢٨١ م) :

- « وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان » ، ستة أجزاء ،
تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٣٦٧ هـ /
١٩٤٨ م .

٢٢ - ابن دقماق (٨٠٩ هـ / ١٤٠٦ - ١٤٠٧ م) :

- « الانتصار بواسطة عقد الأمصار » ، الجزء الرابع
والخامس ، بولاق ١٣٠٩ - ١٣١٠ هـ .

٢٣ - ابن الراهب (رسم شماساً في دير النقلة بفسطاط مصر
سنة ٦٦٩ هـ / ١٢٧٢ م) :

- « تاريخ ابن الراهب » ، نشر لويس شـيخو ، بيروت
١٩٠٣ م .

٢٤ - رشيد بن الزبير (عاش في القرن الخامس الهجري /
العاشر الميلادي) :

- « الذخائر والتحف » تحقيق د . محمد حميد الله ،
الكويت ١٩٥٩ .

٢٥ - ساويرس بن المقلع (اسقف الآشمنونين) :

- « تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية » ، المجلد الثاني ،
الجزء الثاني تحقيق ، عبد المسيح ، وسوريال ، وبرمستر ،
طبعة مصر سنة ١٩٤٨ م .

٢٦ - السيوطي (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) :

- « حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة » ، جزءان ،
القاهرة ١٣٢٧ هـ / ١٩٠٩ م .

٢٧ - أبو شجاع (ت ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م) :

- « ذيل تجارب الأمم » ، صححه ه . ف . أمديوز ، طبع
بمصر سنة ١٣٣٤ هـ / ١٩١٦ م .

٢٨ - الشيزري (ت ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م) :

- « نهاية الرتبة في طلب الحسبة » ، تحقيق السيدة الباز
العويني القاهرة ١٣٦٥ هـ / ١٩٤٦ م .

٢٩ - أبو صالح الأرمني (٦٠٥ هـ / ١٢٠٨ م) :

- « تاريخ الشيخ أبو صالح الأرمني » المعروف ب « كنائس
وأديرة مصر » تحقيق وترجمة Evelts طبعة أكسفورد
سنة ١٨٩٤ م .

- ٣٠ - ابن ظهيرة (عاش في القرن العاشر الهجري) :
 - « الفضائل الباهرة في ملوك مصر والقاهرة » ، تحقيق
 مصطفى السقا ، كامل المهندس ، القاهرة ١٩٦٩ م .
- ٣١ - العبري (ت ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م) :
 - « تاريخ مختصر الدول » ، بيروت ١٨٩٠ م .
- ٣٢ - أبو عثمان النابلسي الصفدي (ت ٦٤١ هـ) :
 - « تاريخ الفيوم وبلاده » ، القاهرة ١٨٩٨ م .
- ٣٣ - ابن العماد (ت ١٠٨٩ هـ / ١٦٧٨ م) :
 - « شذرات الذهب في أخبار من ذهب » ، القاهرة ١٣٥٠ -
 ١٣٥٣ هـ الجزء الثالث .
- ٣٤ - ابن العميد (ت ٦٧٢ هـ / ١٢٧٣ م) :
 - « تاريخ المسلمين » ، لندن ١٩٢٥ م .
- ٣٥ - غرس الدين خليل (ت ٨٧٣ هـ) :
 - « كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك » ،
 صححه بولس راويس ، باريس ١٨٩٣ م .
- ٣٦ - أبو الفدا (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م) :
 - « المختصر في أخبار البشر » ، المطبعة الحسينية بالقاهرة
 سنة ١٣٢٥ هـ .
- ٣٧ - ابن فضل الله العمري (ت ٧٤٩ هـ / ١٣٥٩ م) :
 - « مسالك الأنصار في أخبار ملوك الأمصار » ، الجزء الأول ،
 تحقيق أحمد زكي باشا ، القاهرة ١٣٤٢ هـ / ١٩٢٤ م .

- ٣٨ - ابن القلانسي (ت ٥٥٥ هـ / ١٣٣١ م) :
 - « ذيل تاريخ دمشق » ، بيروت ١٩٠٨ م .
- ٣٩ - القلقشندي (ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) :
 - « صبح الأعشى فى صناعة الانشا » ، ١٤ جزءا ، القاهرة ١٩١٣ - ١٩١٧ م .
- ٤٠ - القفطى (ت ٦٤٦ هـ / ١٢٤٨ م) :
 - « تاريخ الحكماء » أو « اخبار العلماء بأخبار العلماء » ،
 ليبزج ١٩٠٣ م .
- ٤١ - ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٢ م) :
 - « البداية والنهاية فى التاريخ » ، القاهرة ١٣٥٨ هـ ،
 الجزءان : الحادى عشر والثانى عشر .
- ٤٢ - كاتب مراکشى (من كتاب القرن السادس الهجرى /
 الثانى عشر الميلادى) :
 - « كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار » ، تحقيق
 د . سعد زغلول نصار ، الاسكندرية ١٩٥٨ .
- ٤٣ - أبو المحاسن (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٩٦ م) :
 - « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » ، الجزءان
 الرابع والخامس ، طبعة دار الكتب المصرية ١٣٥١ - ١٣٥٣ هـ /
 ١٩٣٢ - ١٩٣٥ م .
- ٤٤ - مجير الدين الحنبلى (ت ٩٢٨ هـ / ١٥٢١ م) :
 - الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل « الجزء الأول » .

- ٤٥ - المقدسى (ت ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م) :
- « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » ، ليدن ١٩٠٦ م .
- ٤٦ - المقرئى (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م) :
- « اتعاط الحنفية بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء ،
الجزء الأول ، تحقيق الشيال ، القاهرة ١٩٦٧ م ، والجزء الثانى
تحقيق د . محمد حلمى محمد ، القاهرة ١٩٧١ م .
- ٤٧ - « المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار » ، جزءان ،
طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ .
- ٤٨ - « الامام بأخبار من بارض الحبشة من ملوك الاسلام » ،
طبع بمصر سنة ١٨٩٥ م .
- ٤٩ - ابن ميسر (ت ٦٧٧ هـ / ١٢٧٨ م) :
- « تاريخ مصر » ، الجزء الثانى ، القاهرة ١٩١٩ م .
- ٥٠ - ناصرى خسرو (زار مصر بين سنتى ٤٣٩ - ٤٤١ هـ) :
- « سفرنامه » ، ترجمة يحيى الخشاب ، الطبعة الأولى ،
القاهرة ١٩٥٤ م .
- ٥١ - ابن الوردي (ت ٧٥٠ هـ / ١٣٥٨ م) :
- « تنمة المختصر فى أخبار البشر » ، جزءان ، طبع بالقاهرة
١٢٨٥ م .
- ٥٢ - ياقوت (ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م) :
- « معجم البلدان » ، ١٠ أجزاء ، القاهرة ١٣٣٢ هـ /
١٩٠٦ م .

٥٣ - يحيى بو سعيد الأنطاكي (ت ٤٥٨ هـ / ١٠٦٦ م) :

- « تاريخ » أو « صلة كتاب أوتخا » المسمى « التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق » ، تحقيق شيوخو ، بيروت ١٩٠٩ م .

(ج) المراجع الحديثة :

٥٤ - اريس حبيب المصرى :

- « قصة الكنيسة القبطية » ، الجزء الثالث ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٧٥ م .

٥٥ - أونولد :

- « الدعوة الى الاسلام » ، ترجمة د . حسن ابراهيم ، وعبد المجيد عابدين ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٧ م .

٥٦ - أسد رستم :

- « الروم فى سياستهم وحضارتهم ، ودينهم ، وثقافتهم ، وصلاتهم بالعرب » فى جزئين ، بيروت ١٩٥٥ - ١٩٥٦ م .

٥٧ - بتشر (السيدة ا . ل .) :

- « تاريخ الأمة القبطية وكنيستها » ، ٤ أجزاء ، طبع بالفجالة بمصر سنة ١٩٠٦ م .

٥٨ - بارتولد :

- « تاريخ الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى » ، نقله من التركية الى العربية حمزة طاهر ، القاهرة ١٩٥٢ م .

٥٩ - البراوى (راشد - الدكتور) :

- « حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين » ، القاهرة
١٩٤٨ م .

٦٠ - **ترقسون (أ . س .) :**

- « أهل الذمة في الاسلام » ترجمة د . حسن حبشي ،
الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦٧ م .

٦١ - **جسك تاجر :**

- « أقباط ومسلمون منذ الفتح العربى الى سنة ١٩٢٢ » ،
القاهرة سنة ١٩٥١ م .

٦٢ - **جروهمان (أدولف) :**

- « أوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية » ، ترجمة
د . حسن ابراهيم وعبد الحميد حسن ، القاهرة ١٩٣٤ م .

٦٣ - **حتى (فيليب - الدكتور) :**

- « تاريخ العرب » فى جزئين ، ترجمة ادوارد جرجى
وجبرائيل جبور بيروت ١٩٦١ م .

٦٤ - **حسن ابراهيم حسن (الدكتور) :**

- « تاريخ الاسلام السياسى » الجزء الثالث ، الطبعة
السابعة ، القاهرة ١٩٦٥ م ، والجزء الرابع ، الطبعة الثانية
١٩٥٨ م .

٦٥ - « الفاطميون فى مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه

خاص » القاهرة ١٩٣٢ م .

٦٦ - « تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية

وبلاد العرب الطبعة الثانية ١٩٥٨ م .

٦٧ - حسن ابراهيم وطه شرف :

- « المعز لدين الله الفاطمي ، امام الشيعة الاسماعيلية
ومؤسس الدولة الفاطمية في مصر » ، القاهرة ١٩٤٨ م .

٦٨ - حسن ابراهيم وآخرون :

- « المجمل في التاريخ المصري (الطبعة الأولى ، القاهرة
١٩٤٢ م .

٦٩ - خطاب عطية علي :

- « التعليم في مصر في العصر الفاطمي الأول » ، القاهرة
١٩٤٧ م .

٧٠ - ديماند :

- « الفنون الاسلامية » ، ترجمة أحمد عيسى .

٧١ - زاهر رياض (الدكتور) :

- « تاريخ أثيوبيا » ، القاهرة ١٩٦٤ م .

٧٢ - « كنيسة الاسكندرية في افريقيا » الطبعة الأولى ،

القاهرة ١٩٦٢ م .

٧٣ - رؤوف حبيب :

- « كنائس القاهرة القبطية القديمة » ، القاهرة ١٣٨٦ هـ /

١٩٦٦ م .

- ٧٤ - زكى محمد حسن (الدكتور) :
- « الفن الاسلامى فى مصر » ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٣٥ م .
- ٧٥ - « كنوز الفاطميين » ، القاهرة ١٩٣٧ م .
- ٧٦ - « فنون الاسلام » ، القاهرة ١٩٤٨ م .
- ٧٧ - سرور (محمد جمال الدين - الدكتور) :
- « النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق فى القرنين الرابع والخامس بعد الهجرة » ، القاهرة ١٩٥٩ م .
- ٧٨ - « مصر فى عصر الدولة الفاطمية » ، مجموعة الألف كتاب ، القاهرة ١٩٦٠ م .
- ٧٩ - « الدولة الفاطمية فى مصر » ، القاهرة ١٩٦٥ - ١٩٦٦ م .
- ٨٠ - « سياسة الفاطميين الخارجية » ، القاهرة ١٩٦٧ م .
- ٨١ - سسيد أمير على :
- « مختصر تاريخ العرب » ، ترجمة عفيفى البعلبكي ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٦١ م .
- ٨٢ - سيدة اسماعيل كاشف (الدكتورة) :
- « مصر فى فجر الاسلام » ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٧٠ م .
- ٨٣ - « مصر فى عصر الاخشيديين » ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٧٠ م .

- ٨٤ - حسن أحمد محمود (الدكتور) :
- « حضارة مصر الاسلامية ، العصر الطولوني » ، القاهرة ١٩٦٠ م .
- ٨٥ - حسن أحمد محمود وسيدة كاشف :
- « مصر فى عصر الطولونيين والاشيدين » ، مجموعة الألف كتاب ، القاهرة ١٩٦٠ م .
- ٨٦ - الشيال (جمال الدين - الدكتور) :
- « تاريخ مصر الاسلامية » الجزء الأول ، القاهرة ١٩٦٧ م .
- ٨٧ - عاشور (سعيد عبد الفتاح - الدكتور) :
- « المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المالك » ، القاهرة ١٩٦٢ م .
- ٨٨ - عبد اللطيف ابراهيم (الدكتور) :
- « فى مكتبة دير سسانت كاترين » ، مستخرج من « مجلة أم درمان الاسلامية » - العدد الأول ، سنة ١٩٦٨ م .
- ٨٩ - عبد الرحمن فهمى :
- « موسوعة النقود العربية وعلم النميات » ، الجزء الأول بعنوان « فجر السكة العربية » ، القاهرة ١٩٦٥ م .
- ٩٠ - عبد الرحمن زكى (الدكتور) :
- « القاهرة . تاريخها وآثارها ، من جوهر القائد الى الجبرتنى المؤرخ » القاهرة ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م .

٩١ - علي ابراهيم حسن (الدكتور) :

- « تاريخ جواهر الصقلي » ، الطبعة الأولى ، القاهرة سنة ١٣٥١ هـ / ١٩٣٣ م .

٩٢ - علي حسنى الخربوطلى (الدكتور) :

- « مصر العربية الاسلامية . السياسة والحضارة في مصر في العصر العربى الاسلامى ، منذ الفتح العربى الى الفتح العثمانى » القاهرة ١٩٦٣ م .

٩٣ - « العرب واليهود في العصر الاسلامى » ، القاهرة ١٩٦٣ م .

٩٤ - عمر كمال توفيق (الدكتور) :

- « الامبراطور نقفور فوكاس ، واسترجاع الاراضى المقدسة » الاسكندرية ١٩٥٩ م .

٩٥ - عنان (محمد عبد الله) :

- « الحاكم بأمر الله ، وأسرار الدعوة الفاطمية » ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٣٧٩ هـ / ١٩٥٩ م .

٩٦ - (تاريخ الجامع الأزهر » ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٨ م .

٩٧ - « مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية » ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٣١ م .

٩٨ - عطية محمود القوصى (الدكتور) :

- « بنو الكنز - دراسة تاريخية » ، رسالة ماجستير غير مطبوعة تحت اشراف الدكتور أحمد دراج ، جامعة القاهرة ١٩٧٠ .

٩٩ - « تجارة مصر في البحر الأحمر ، منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية سنة ٦٥٦ هـ ، رسالة دكتوراة غير مطبوعة تحت اشراف د . أحمد دراج ، جامعة القاهرة ١٩٧٣ م .

١٠٠ - كارل بروكلمان :

- « تاريخ الشعوب الاسلامية » ، الجزء الثانى ، بعنوان « الامبراطورية الاسلامية وانحلالها » ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٥٤ .

١٠١ - لين بول (ستانلى) :

- (سيرة القاهرة) ، ترجمة د . حسن ابراهيم وآخرون ، القاهرة ١٩٥٠ م .

١٠٢ - ماجد (عبد المنعم - الدكتور) :

- « نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر » ، القاهرة .

١٠٣ - « الحاكم بأمر الله ، الخليفة المقتدى عليه » ، القاهرة ١٩٥٩ م .

١٠٤ - « ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر » ، الاسكندرية ١٩٦٨ م .

١٠٥ - متز (آدم) :

- « الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى » ، فى جزئين ، القاهرة ١٩٤١ م .

١٠٦ - المناوى (محمد حملى - الدكتور) :

١٠٦ - « الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي » ، القاهرة
١٩٧٠ م .

١٠٧ - مرقص سميكة (باشا) :

- « دليل المتحف القبطي ، وأهم الكنائس والأديرة الأثرية »
في جزئين ، طبع بمصر ١٩٣٠ ، ١٩٣٢ م .

١٠٨ - مرزوق (محمد عبد العزيز - الدكتور) :

- « الزخرفة المنسوجة في الأقمشة الفاطمية » ، القاهرة
١٩٤٢ م .

١٠٩ - مشرفة (عطية مصطفى - الدكتور) :

- « نظم الحكم في عصر الفاطميين » ، الطبعة الأولى ،
القاهرة ١٩٤٨ م .

١١٠ - مصطفى مسعد (الدكتور) :

- « الإسلام والنوبة في العصور الوسطى » ، القاهرة
١٩٦٠ م .

(د) المراجع الأجنبية :

- 1) Goitein (S. D.) :
— « Jews and Arabs ».
New York, 1955. W
- 2) « A Mediterranean Society, the Jewish Communities of the
Arabs World as Portrayed in Documents of the Cairo
Geniza ». Volume I, California, 1967.
- 3) Lean-Pool (S.) :
— History of Egypt in the Middle Ages. London, 1901.
- 4) Mann (J.) :
— « The Jews in Egypt and Palestine under the Fatimid
Caliph ». Volume I, Oxford, 1920.
- 5) Stern (S.M.) :
— « Fatimid Decrees, Original Documents from the
Fatimid Chancery ». London, 1964.

فهرس

الصفحة	الموضوع
٥	مقدمة البحث
١٥	عرض لأهم مصادر البحث

الباب الأول

٢٥	« أهل الذمة والوظائف العامة »	
	سياسة الخلفاء الفاطميين إزاء الموظفين من أهل	—
٢٧	الذمة	
٤٣	الوزراء والوسطاء من أهل الذمة	—
٧٣	أهل الذمة والنواوين الحكومية	—
٨١	الأطباء من أهل الذمة	—
٨٧	موقف المسلمين من سياسة الموظفين الذميين	—

الباب الثاني

٩٣	« أهل الذمة والحياة الاقتصادية »	
٩٥	النشاط الزراعى لأهل الذمة	—
١٠٩	النشاط الصناعى لأهل الذمة	—
١٤٤	النشاط التجارى لأهل الذمة	—
١٥٠	دور أهل الذمة فى التجارة الخارجية	—

الباب الثالث

١٥٧	« الحياة الاجتماعية والدينية لأهل الذمة »	
١٥٩	(١) الحياة الاجتماعية لأهل الذمة	

١٥٩	— القبط واليهود فى مصر فى العصر الفاطمى الأول
١٦٨	— المكانة الاجتماعية لكبار أهل الذمة . . .
١٧٥	— القيود الاجتماعية التى فرضت على أهل الذمة
١٨٦	(ب) أعياد أهل الذمة
١٨٧	— أعياد النصارى
٢٠٥	— أعياد اليهود
٢١٢	(ج) سياسة الفاطميين الدينية إزاء أهل الذمة
	— موقف الخلفاء الفاطميين إزاء رجال الكنيسة
٢١٢	القبطية
	— القيود التى فرضت على دور العبادة لأهل الذمة
٢٢١	(الكنائس المسيحية - الأديرة - الكنائس اليهودية)

البسب الرابع

« علاقة الدولة الفاطمية بالدول المسيحية » وأثر

٢٤٧	ذلك على أهل الذمة
٢٤٩	— الفاطميون والبيزنطيون
٢٧٨	— الفاطميون وبلاد النوبة
٢٨٧	— الفاطميون والحبشة
٢٩٣	المسالحق
٣٠٣	قائمة المصادر

● صدر من هذه السلسلة :

- ١ - مصطفى كامل فى محكمة التاريخ
د. عيد العظيم رمضان
- ٢ - على ماهر
اعداد : وشوان محمود جاب الله
- ٣ - ثورة يوليو والطبقة العاملة
اعداد : عيد السلام عيد الحليم عامر
- ٤ - التيارات الفكرية فى مصر المعاصرة
د. محمد نعمان جلال
- ٥ - غارات أوربا على الشواطىء المصرية فى العصور
الوسطى
عليسة عبد السميع
- ٦ - هؤلاء الرجال من مصر ج ١
لمعى المطيعى
- ٧ - صلاح الدين الأيوبى
د. عهد المنعم ماجد
- ٨ - رؤية الجبرتى لأزمة الحياة الفكرية
د. على بركات
- ٩ - صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل
د. محمد أنيس
- ١٠ - توفيق دياب ملحمة الصحافة الحزبية
محمود فوزى
- ١١ - مائة شخصية مصرية وشخصية
شكرى القاضى

- ١٢ - هدى شعراوي وعصر التنوير
د. قبيل راغب
- ١٣ - اكدوية الاستعمار المصرى للسودان
د. عيد العظيم رمضان
- ١٤ - مصر فى عصر الولاة
د. سيادة اسماعيل كاشف
- ١٥ - المستشرقون والتاريخ الاسلامى
د. على حسنى الخربوطلى
- ١٦ - فصول من تاريخ حركة الاصلاح الاجتماعى فى مصر
د. حلمى احمد شلبى
- ١٧ - القضاء الشرعى فى مصر فى العصر العثمانى
د. محمد نور فريحات
- ١٨ - الجوارى فى مجتمع القاهرة المملوكية
د. على السيد محمود
- ١٩ - مصر القديمة وقصة توحيد القطرين
د. احمد محمود صايون
- ٢٠ - المراسلات السرية بين سعد زغلول وعبد الرحمن فهمى
د. محمد انيس
- ٢١ - التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى ج ١
توفيق الطويل
- ٢٢ - نظرات فى تاريخ مصر
جمال بدوى
- ٢٣ - التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى ج ٢
توفيق الطويل

- ٢٤ - الصحافة الوفدية
د. نجوى كامل
- ٢٥ - المجتمع الاسلامى
ترجمة : د. عبد الرحيم مصطفى
- ٢٦ - تاريخ الفكر التربوى فى مصر الحديثة
د. سعيد اسماعيل على
- ٢٧ - فتح العرب لمصر ج ١
ترجمة : محمد فريد أبو حديد
- ٢٨ - فتح العرب لمصر ج ٢
ترجمة : محمد فريد أبو حديد
- ٢٩ - مصر فى عهد الاخشيديين
د. سيدة اسماعيل كاشف
- ٣٠ - الموظفون فى مصر
د. حلمى أحمد شلبى
- ٣١ - خمسون شخصية وشخصية
شكرى القاضى
- ٣٢ - هؤلاء الرجال من مصر ج ٢
لمعى المطيعى
- ٣٣ - مصر وقضايا الجنوب الافريقى
د. خالد الكومى
- ٣٤ - تاريخ العلاقات المصرية الغربية
د. يوفان لبيب رزق
- ٣٥ - اعلام الموسيقى المصرية عبر ١٥٠ سنة
عبد الحميد توفيق زكى

- ٣٦ - المجتمع الاسلامى والغرب ج ٢
ترجمة : د. أحمد عبد الرحيم مصطفى
- ٣٧ - الشيخ على يوسف
تأليف : د. سليمان صالح
- ٣٨ - فصول من تاريخ مصر الاقتصادى
والاجتماعى فى العصر العثمانى
د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم
- ٣٩ - قصة احتلال محمد على لليونان
د. جميل عبيد
- ٤٠ - الأسلحة الفاسدة ودورها فى حرب ١٩٤٨
د. عبد المنعم الدسوقي الجميلى
- ٤١ - محمد فريد الموقف والمأساة
رفعت السعيد
- ٤٢ - تكوين مصر عبر العصور
محمد شفيق غبريال
- ٤٣ - رحلة فى عقول مصرية
ابراهيم عبد العزيز
- ٤٤ - الأوقاف والحياة الاقتصادية فى مصر فى العصر
العثمانى
د. محمد عفيفى
- ٤٥ - الحروب الصليبية
تأليف : وليم الصورى
ترجمة : أ.د. حسن حبشى

- ٤٦ - تاريخ العلاقات المصرية الأمريكية ١٩٣٩ : ١٩٥٧
تأليف : د. عبد الرؤوف أحمد عمرو
- ٤٧ - تاريخ القضاء المصرى الحديث
تأليف : د. لطيفة محمد سالم
- ٤٨ - الفلاح المصرى
تأليف : د. زبيدة عطا
- ٤٩ - العلاقات المصرية الاسرائيلية
تأليف : د. عبد العظيم رمضان
- ٥٠ - الصحافة المصرية والقضايا الوطنية
تأليف : د. سهير اسكندر
- ٥١ - تاريخ المدارس فى مصر الاسلامية
اعداد : د. عبد العظيم رمضان
- ٥٢ - مصر فى كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين فى القرن
الثامن عشر
تأليف : د. الهام محمد على ذهنى
- ٥٣ - أربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات من دولة المماليك
د. محمد كمال الدين عز الدين على
- ٥٤ - الأقباط فى مصر فى العصر العثمانى
تأليف : الدكتور محمد عفيفى
- ٥٥ - الحروب الصليبية ج ٢
ترجمة وتحقيق : د. حسن حبشى
- ٥٦ - المجتمع الريفى فى عصر محمد على
د. حلمى أحمد شلبى

- ٥٧ - مصر الاسلامية وأهل الذمة
د. سيدة اسماعيل كاشف
- ٥٨ - أحمد حلمى سجين الحرية والصحافة
د. ابراهيم عبد الله المسلمى
- ٥٩ - الرأسمالية الصناعية فى مصر
د. عبد السلام عبد الحليم عامر
- ٦٠ - المعاصرون من رواد الموسيقى العربية
عبد الحميد توفيق زكى
- ٦١ - تاريخ الاسكندرية
د. عبد العظيم رمضان
- ٦٢ - هؤلاء الرجال من مصر ج ٣
لمعى المطيعى
- ٦٣ - موسوعة تاريخ مصر عبر العصور
د. سيد اسماعيل الكاشف
- ٦٤ - مصر وحقوق الانسان
د. محمد نعمان جلال
- ٦٥ - موقف الصحافة المصرية من الصهيونية
د. سهام نصار
- ٦٦ - المرأة فى مصر فى العصر الفاطمى
د. نريمان عبد الكريم أحمد
- ٦٧ - الأصول التاريخية لمساعى السلام العربية الاسرائيلية
ظ. د. عبد العظيم رمضان

- ٦٨ - الحروب الصليبية ج ٣
ترجمة وتحقيق : د. حسن حبشي
- ٦٩ - نبوية موسى ودورها فى الحياة
د. محمد أبو الأسعاد
- ٧٠ - أهل الذمة
أ. د. حسن حبشي
- ٧١ - مذكرات اللورد كليرين
ترجمة : د. عبد الرؤوف أحمد عمر
- ٧٢ - رؤية الرحلة المسلمين للأحوال المالية والاقتصادية
لمصر فى العصر الفاطمى (٣٥٨ - ٥٦٧ هـ / ٩٦٩ -
١٧١ م)
د. أمينة أحمد امام الشوربجي
- ٧٣ - تاريخ جامعة القاهرة
د. رؤف عباس حامد
- ٧٤ - تاريخ الطب والصيدلة المصرية
د. سمير يحيى الجمال
-

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٩٤/٩٦٣٦

ISBN — 977 — 01 — 4166 — 6

وما هو هذا الكتاب بين يدي القارئ الكريم كتاب جديد عن أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الأول ألفه أستاذ جامعي متخصص هو الدكتور سلام شافعي محمود، يتناول تاريخ النصارى واليهود في مصر في عصر لعبوا فيه دورا هاما في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية وهو العصر الفاطمي الأول الذي امتد نحو قرن من الزمان (٣٥٨-٤٤٧ هـ / ٩٦٩-١٠٥٥ م) وقد تتبع هذا الكتاب الهام دور هذه الطبقة من أهل الذمة في الوظائف العامة والحياة العامة، فتناول أداؤهم الوظيفي، واحتفالاتهم، وكنائسهم وأديرتهم ومعابدهم ودورهم في النشاط الزراعي والصناعي، وحياتهم في القرى والمدن المصرية، ولغتهم القبطية ولهجاتها، وأسطورة تنصر المعز لدين الله الفاطمي. كما تناول علاقات الدولة الفاطمية بالدولة المسيحية وأثرها على أهل الذمة، والسفارات التي يتولى رئاستها كبار رجال الدولة من أهل الذمة. وأفرد فصلا لعلاقات الدولة الفاطمية ببلاد النوبة، والصلة بين الكنيسة القبطية في مصر والكنيسة النوبية، وأختتم الكتاب بفصل عن العلاقة بين مصر وبلاد الحبشة، وبين الكنيسة القبطية وكنيسة الحبشة. ومدى تأثيرها بموقف الخلفاء الفاطميين من الأقباط إيجابا وسلبا.